

فرات المحدثين

كارل ماركس في العراق

رواية



ألف ياسين
Alf Yaseen

كارل ماركس في العراق

المؤلف: فرات المحسن

الكتاب: كارل ماركس في العراق (رواية)

صدرت النسخة الرقمية: تشرين 2/نوفمبر 2025

الطبعة الأولى: 2017/دار الجواهري بغداد العراق

- الناشر: "ألفياء AlfYaa"
- الموقع الإلكتروني: www.alfyaa.net
- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (ePub، PDF وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ "ألفياء AlfYaa"
- جميع الحقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
- "ألفياء AlfYaa" ناشرة للكتاب فقط.



- لوحة الغلاف: ؟؟؟؟؟؟؟
- تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداود

منشورات «ألفياء AlfYaa»

فرات المحسن

كارل ماركس

في العراق

رواية

الفهرست

| | |
|----------|-----------------------------|
| 9..... | دعوة إلى العراق |
| 19..... | في البحث عن عباس بن فرناس |
| 43..... | لقاء تاريخي في الزمن العصيب |
| 53..... | سوء فهم أم خلاف مبيت |
| 63..... | ليلة الفزع الكبير |
| 71..... | الخروج نحو الجنوب |
| 85..... | الناصرية الوجهة الجديدة |
| 97..... | هناك حيث العشوائيات |
| 119..... | هناك حيث زقورة أور |
| 129..... | البصرة وجهتنا القادمة |
| 145..... | الاختطاف |
| 161..... | ليلة الاختطاف الأولى |
| 181..... | الشعب الألماني يتحمل خطيتك |
| 189..... | ضيوف جدد |
| 197..... | هل كان غسل ذنوب |
| 205..... | الخلاص من قبضة أبو بشير |
| 223..... | في الحبس |
| 229..... | ليس من السهولة نسيان القسوة |
| 241..... | في حضرة العقيد لطفي |

| | |
|----------|---|
| 251..... | ما وزع مع الحصة التموينية |
| 267..... | سر مرض أبو رمزي |
| 281..... | الانفجار |
| 291..... | البحث عن المأوى |
| 309..... | في ثياب الأستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس |
| 315..... | الحلم |
| 327..... | الاختطاف مرة أخرى |
| 339..... | خبز حرية دولة مدنية |
| 355..... | الشباب زباين المقهى |
| 369..... | في ساحة التحرير |
| 391..... | وصية الأستاذ عبد القادر |

«في إنتاج الناس الاجتماعي لحياتهم يدخلون في علاقات محددة، ضرورية ومستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات إنتاج تطابق درجة معينة من تطور قواهم الإنتاجية المادية. وتشكل مجموع علاقات الإنتاج هذه البنيان الاقتصادي للمجتمع، أي تشكل الأساس الحقيقي الذي يقوم فوقه صرح علوي قانوني وسياسي تتماشى معه أشكال اجتماعية. فأسلوب إنتاج الحياة المادية هو شرط العملية الاجتماعية والسياسية والعقلية للحياة بوجه عام. ليس وعي الناس هو الذي يحدد وجودهم، إنما وجودهم الاجتماعي هو الذي يحدد وعيهم.»

كارل هانريك ماركس

دعوة إلى العراق

الرسالة تبدو واضحة وضوح الشمس في هذا اليوم المشرق الجميل. هكذا فكر كارل ماركس وهو يعيد قراءة مضمون الرسالة التي وصلتته من بعض مريديه في العراق. دعوة صريحة وكريمة لا لبس فيها، تظهر حاجتهم لوجوده بينهم في العراق. الرسالة تستعرض بفيض من العبارات المشوقة والمشجعة الغرض من الزيارة، وفي مقدمتها رغبة حقيقية من المشايخين في الوصول لمعرفة متكاملة عن طبيعة الأحداث الجارية، ومقارباتها من خلال تحليل نظري وعلمي مطابق وسليم للواقع السياسي الاقتصادي الاجتماعي الثقافي الحاصل الآن في العراق. وهم يعتقدون، وهذا هو الصواب، بأن منهجية تحليلاته وبمقاربات المادية الجدلية والتاريخية، سوف تظهر بصورة جلية طبيعة الحدث العراقي، مسبباته ووقائعه ثم مخارجه وأيضا استخلاص النتائج وتقديم الحلول.

في الرسالة شيء من طلبات غريبة لم يعرها ماركس اهتماما جديا بادئ الأمر، بل وبشكل أولي فكر بإبعادها عن تفكيره في الوقت الحاضر على الأقل. فالخيار الأول من مريديه يقترح عليه دراسة مقدمة ابن خلدون. ليس ابن خلدون بغريب عليه، وقد قرأ له بعض الترجمات وحفظ أسمه كاملاً، عبد الرحمن ابن محمد ابن خلدون أبو زيد، ورغم توصل هذا لبعض التحليلات والاستنتاجات المنطقية، ولكنه لم ينل إعجابه،

بسبب ما طرحه من أفكار طوباوية في الكثير من بحوثه وفلسفته. فرغم كونه عد فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً، وكذلك مؤرخاً وشاعراً وله دراسات كثيرة وبالذات في علم الاجتماع، و نشوء الدول ومن ثم انهيارها، فهو يرى فيه شخصية متذبذبة وصولية انتهازية نفعية غير مبدئية على الإطلاق، وكان يبحث عن الوجاهة قبل أي شيء آخر، ويستجدي في هذا الأمراء والملوك، ويضع نفسه تحت إمرتهم لنيل المنافع والعطايا، وهذا ما دلت عليه سيرته التاريخية وعلاقاته بهؤلاء الحكام وصراعاتهم ومؤامراتهم في المغرب العربي والأندلس، وأيضاً علاقته مع أعتى طاغية في زمانه وهو تيمورلنك الذي اكتسح العالم الشرقي وبلاد العثمانيين بحد السيف وأقترب أبشع الجرائم بحق الكثير من البلدان التي غزاها وقتل وسبى أهلها. كان ابن خلدون هذا، رجلاً دون مبادئ وقيم، لذا أشك فيما توصل إليه، ولا أرى أنه قادر على تقديم شيء، ممكن الانتفاع منه، إن أردت دراسة المجتمع العراقي. تلك اللحظة فكر ماركس برمي طلب أصدقائه هذا جانباً، ثم بعدها وبقناعة تامة أهمله كلياً. ثم راح يتمعن بطلبهم الثاني وحاول معرفة الغاية من ذلك الطلب الخاص بالبحث في دراسات الدكتور علي الوردي عن المجتمع، ويقال إنه عالم اجتماع عرض الكثير من الحقائق المذهلة والمؤسسية عن المجتمع العراقي. راوده شعور بأن دراسة كتب الدكتور علي الوردي، مثلما يطلبها منه مريدوه العراقيون، لن تكون بذات جدوى لملامسة الحدث اليومي، وتحليل الواقع العراقي في الراهن من الوقت، فالزمن تغيرَ وتغيرت معه الكثير من الوقائع والتقاليد والطبائع، في

أجواء الرأسمالية المتوحشة التي تغلغت في حياة الكثير من شعوب الأرض. الموضوع بوقائعها وطبيعتها العامة، لها مقاربات وتداخلات ومتلازمات ومتضادات، لذا يتطلب الغوص في أبعاد مكنوناتها بروية وأناة، دون المجازفة والعجالة والتسطيح. لا بل أن بعض الإشكالات تتقاطع حتما وفكر علي الوردي ومنهجيته بالتحليل. هكذا خطر في بال ماركس وهو يقلب الرسالة، ثم دسها في جيب بنطاله. ورغم طلب مريديه، وعدم اطلاعه على تحليلات ورؤى المكنى بالدكتور علي الوردي، فإنه لم يترك الأمر يشغل باله طويلا، لذا اتصل هاتفيا بزميله فردريك أنجلز الذي يعيش في الطرف البعيد من مدينة لندن، وطلب منه معلومات كاملة عن العراقي الدكتور علي الوردي، فزوده فردريك بمعلومات موجزة، حول مجموعة أسماء لشخصيات بحثية عراقية تشترك جميعها باسم علي، وهذا الاسم شائع في العالم العربي، وربما تختلط على الآخرين طبيعة تلك الشخصيات ووظائفها، لذا اكتفى كارل ماركس بانتقاء شخصيتين منها، يبدو إنهما باحثان اجتماعيان قبل أي شيء آخر، واكتفى بسيرتيهما الموجزة وأهمل الباقيين. بعد أن تيقن من أن حيرته في الأمر ليست أكثر من حيرة صديقه فردريك في هذا المضمار، وقرر أن يجهد مستقبلاً للتعرف على شخصية علي الوردي بتفاصيل أخرى، من خلال مريديه حين يصل بغداد. وربما سوف يسمح له الوقت للقاء به والتعرف عليه، إن كان على قيد الحياة، تلك ستكون فرصة مناسبة للحصول على المعلومة حول الحراك الاجتماعي والصراع الطبقي، ومن ثم كتابة بحثه عن المجتمع العراقي

لاحقاً.

الرسالة التي وصلته كانت واضحة وشاملة، لم تهمل حتى الأشياء والمستحقات الصغيرة، وهذا ما جعله يغبط مريديه، دقتهم ومنهجيتهم في الإعداد والترتيب لرحلته القادمة إلى بغداد. وحسب هواه وطبيعته المتفتحة والمؤمنة بقيمة الإنسان وفطرته الطبيعية الطيبة، فقد ابعد عن ذهنه مطالبتهم بأجور رحلته وقت وصوله هناك، واكتفى بالرضا عن تعهدهم بدفع جميع مستحقات الرحلة حين وصوله إلى بغداد أو عند مغادرته.

لثلاثة أيام شغل ماركس تفكير عميق وهو يللمل حاجياته. وضع جهاز الكمبيوتر في حقيبته الجلدية الصغيرة مع جواز السفر وبعض أوراق يحتاجها، وأعد حقيبة السفر الكبيرة، وضع فيها ملابس تكفي لفترة عشرة أيام.

عشرة أيام كافية جداً، سوف لن يضيع فيها وقته، هكذا حدث نفسه. من الطبيعي إن مشايحيه قد استعدوا لزيارته استعداداً جيداً، فرسالتهم تشي بذلك، وهم سوف يقدمون له من الاستبيانات والبيانات والإحصائيات والوقائع، ما يغني عن جهد كبير، عليه أن يبذله في محاولات التحليل والاستنتاج لواقع الحدث العراقي. هذا ما خطر في باله، وهو يضع بعناية وخفة ربطات العنق المنتقاة من قبل رفيقته لورا، جوار بدلته الكحلية وقمصانه الصيفية الخمسة بألوانها المختلفة. دس تحتها ملابس داخلية ومنشفة وساعة منضدية، اعتاد على مرافقتها في مختلف سفراته وتجواله خارج إقامته وسط العاصمة البريطانية

الصاخبة، بعد أن أتخذ لندن، مجبراً دون تردد، مقراً لسكنائه، بعيداً عن أجواء الكراهية التي واجهها في بلده ألمانيا. لم يهمل أو ينسى وضع قنينة العطر التي أهديت له قبل أسبوع مضى، عند احتفالهم بعيد ميلاده الذي يحفظه الكثير من الرفاق ويهمله هو عن عمد، فهو لا يحب الاحتفالات الصاخبة التي تشتت الذهن وتربكه. وضع جوار قنينة العطر قنينة المطهر البلاستيكية ودسهما تحت الملابس. ربما لن يجد في العراق ما ينفع لتطهير الأكف. فهذه واحدة من المصائب المستحدثة للرأسمالية المتوحشة، هكذا فكر في الأمر. مطارات العالم بدأت تأخذ الاحتراز الشديد والحذر والتحوط، وتمنع ركاب الطائرات، وبحجة الحذر والخوف من الإرهاب، أن يصطحبوا معهم حين ركوبهم الطائرة قناني العطر أو أي علبة سوائل أخرى أو حتى أدوات حلاقة وملاعق وسكاكين وقداحات، بدعوى أن ذلك احتراز يمنع احتمال تعرض الركاب أو الطائرة لعمليات خطف أو تهديد بالتفجير. هكذا هي الرأسمالية الخائفة المرتجفة بعد أن حققت أعلى مراحلها الامبريالية، باتت اليوم ترتجف من وليدها المشوه القاتل، الذي ولدته سفاحا بعد اغتصاب خيرات الشعوب.

على أية حال حقيقة السفر كبيرة وتتسع للكثير. لن أحمل معي في الطائرة سوى جهاز الكومبيوتر وحقيبة اليد واكتفي بأخذ كتابين مهمين من الجائز أن أجد فيهما ما ينفع أو ينشط في ذهني بعض الأفكار والاستدلالات، هذا ما دار في خلده، وهو يقوم بترتيب حاجياته في جوف الحقيقة الكبيرة.

الكتاب الأول الذي فكر بحمله، كان بعنوان المتخيلات الاجتماعية الحديثة لشارلز تايلر⁽¹⁾، فهو وبمحتوى راقٍ جداً وذكي، يتحدث عن تشكيل الهوية الوطنية، ومنابع الذات والحداثة والعولمة والدين، عبر فكرة المتخيل الاجتماعي. هذا سوف أنتفع منه في استنباط الطرق لمعرفة الكيفية التي يتخيل فيها شعب ما، الحال الذي هو عليه. ربما الشعب العراقي يقارب معرفة وجوده الاجتماعي، أن تطابق ذلك مع الوقائع والحراك اليومي والعام للعراقيين. أيضا سوف أحمل معي كتاب المجتمع الشبكي The network Society لدارن بارني⁽²⁾ الذي يتحدث فيه عن اقتصاد المعرفة والعولمة، وحال الدولة القومية والثقافة والجماعة، ومعنى العمالة والبطالة في العصر الرقمي. تلك جميعا سمات مشتركة لجميع شعوب العالم. هكذا حدثته نفسه تلك الساعة، وهو يقلب مجموعة الكتب فوق المنضدة، التي تتوسط الغرفة ذات الأثاث المزدحم والمرصوف دون عناية.

بقناعة نافذة تيقن أن دارن بارني وشالز تايلر يتوصلان في آن واحد وبخطوط مشتركة، رغم تباينهما في الاتجاه، إلى اكتشاف تلك السمات التي تبلورت كفكر متجدد يفرض نفسه لتحليل المسيرة التاريخية للرأسمالية ونتائجها المتبلور في

⁽¹⁾ تشارلز مارغريف تيلور فيلسوف كندي أحد الفلاسفة المعاصرين في مجال السياسة والفلسفة الأخلاقية وترجمت أعماله للعديد من اللغات، ويشغل في مجالات: فلسفة التحليل، الظاهريات، التأويليات، الفلسفة الأخلاقية، الإنسيات، الاجتماعيات، الفلسفة السياسية والتاريخ.

⁽²⁾ أكاديمي وباحث كندي، وأستاذ تكنولوجيا المعلومات في جامعات سايمون فريزر وتورنتو وماكماستر في كندا.

العولمة المتوحشة، التي قلبت موازين وأعراف الحياة العامة، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية، وفي المقدمة منها السمات والهياكل الثقافية، وباتت الكثير من شعوب العالم تترك مصائرهما للمجهول، وتفقد سماتها العادية والمألوفة، لصالح تشكيلات متوحشة، تدفع بها وتحيطها بالخوف والاضطرابات. فالأسواق المفتوحة وهيمنة الشركات الكبرى، وعمالة الفقراء والنساء المستلبات والأطفال المشردون، والتفاوت الطبقي والتهديد اليومي للرعاية الاجتماعية، وتخريب البيئة والتلوث وهيمنة ثقافة الابتزاز والربح والتسطيح الفكري، كل ذلك نتاج تلك القذارة الرأسمالية. ليس هناك أدنى شك بأن كتاب دارن بارني سوف يمتعني جدا بمحتواه.

وهو يحاور نفسه راح ماركس يضغط ويفرك بإلحاح إبهام يده اليسرى، وتلك عادة، يمارسها حين يضغط عليه التفكير وتدور في رأسه الرؤى والحسابات المتسارعة، اكتسبها جراء القلق والتوتر الدائمين اللذين عاشهما طيلة حياته، وبالذات خلال الزحام والربكة المتولدة في النفس أثناء البحث والتحليل وتكثيف الأفكار، حول وحدة صراع المتناقضات وقانون نفي النفي، وأيضا العمل المعرفي المضني في محاولة مقاربة وتحليل تحول الكم إلى كيف، والبحث في المسيرة التاريخية والتطور الحتمي للبشرية، وفق المنطق الجدلي وبالأدوات الثورية، وذلك هو أس النظرية الشيوعية العلمية، التي وضعها مع صديقه الوفي فردريك انجلز. راح ماركس في صمت طويل ينظر لأرضية الغرفة ساهما يحدث نفسه عن طبيعة العولمة المتوحشة التي أستعرضها وفصلها دارن في كتابه

وكيف انه يقاربه بالفكرة وفي الكثير من الاستنتاجات والمخارج.

وضع حقيبة السفر جوار السرير وتركها مفتوحة، فهناك احتمالات كثيرة واردة. ربما أمر السفر يتطلب منه وضع حاجات أخرى، سوف يكون في حاجة إليها خلال العشرة أيام التي عليه أن يقضيها في العراق. فكثيرا ما كانت تحدث له في سفراته بعض المفارقات، حين يكتشف في وقت متأخر، أنه قد نسي وضع فرشاة الأسنان أو مقص الحلاقة أو قلمه الأثير.

لحد هذه اللحظة لم يفكر بأخذ هدايا لمريديه ومشايغيه في العراق، وقد أبعد عن ذهنه مثل هذا الأمر، فهو لا يعرف عنهم شيئا محددا، لا عن طبيعتهم وطباعهم، و لم يشاهدهم أو يلتقي بهم، وهو بالمطلق لا يملك أي تصور عن أحجامهم وأشكالهم وأذواقهم ورغباتهم، سوى حديث عابر لبعض الأصدقاء في لندن تناولوا بشكل مبسط توصيف المظهر الخارجي للعراقي، وبعض طباعه العامة، وكان ذلك الوصف غير مجدٍ على الإطلاق، وليس محبباً بل كان منفراً ومزعجاً. ولذا لن يجازف حتى بشراء قناني عطر من النوع الرخيص لتقديمها هدايا لمستقبله في مطار بغداد الدولي، وهو وفي حقيقة الأمر غير ميال لتبادل الهدايا، ولا حتى لتلك البروتوكولات والمجاملات، التي يجدها غير مجدية في بعض الأحيان، وربما منافقة. ويعتقد أنها تكريس لتقاليد برجوازية ليس إلا.

قضى يومه في البحث عبر جهاز الكمبيوتر، بين مواقع كثيرة منها الموسوعة الحرة ويكيبيديا، وغوغل، لعله يجد فيها

ما ينفعه ويساعده خلال رحلته أو جولاته في مدن العراق. وجد الكثير من المعلومات المشوشة والمربكة، لا بل كانت هناك معلومات متضاربة ومتضادة، لا يمكن للمرء معها إمساك الحقيقة. فالغريب فقدان الكثير من المواضيع المتعلقة بالعراق لأي نوع من الإحصاء والتدوين، وإن وجد فهو مبتور وبعضه مشوش ومربك. أصيب بالدهشة والحيرة وهو يطلب بعض المعلومات عن بغداد كمدينة. ففي خارطة لموقع غوغل وجد أن اسم المطار يظهر في بعض الأماكن باسم مطار صدام، ثم يظهر في موقع آخر باسم مطار بغداد الدولي. وقد اضطر أن يجدد البحث لمرات عديدة في محاولة لمعرفة عدد المطارات الدولية في العاصمة العراقية، فلم يجد غير هذا المطار، ومطار آخر أهمل منذ زمن بعيد وكان باسم مطار المثني. ولكن حيرته تحولت إلى إرباك شديد، حين أراد معرفة بعض معلومات عن أحياء مدينة بغداد ومحلاتها، فظهر له أحد أحيائها الكبيرة مرة باسم مدينة صدام، وأخرى باسم مدينة الصدر، وفي خارطة ثانية كان اسم ذات الحي، مدينة الثورة، وكان قد نال في عهود سابقة تسمية الرافدين. أصابته الحيرة وهو يقلب الصفحات بحثاً عن ثبات هوية، لمدينة لا تستقر أسماء أحيائها على حال، فكيف هو حال المدينة نفسها. تساءل عن سبب ودوافع تلك التغيرات، أيّني هذا أنه أمام مزاج متقلب أو مشاعر وعواطف مرتبكة، مصابة بعصاب وهلوسة اجتماعية سياسية، أم أنها ظاهرة، ناتجة عن عوامل قسر وترويع، بسبب تنافس وصراع داخل أحياء تلك القصبات والمدن. أم هناك ظروف قاهرة خفية، تضطّهرهم للتمويه ومن

ثم اختيار أسماء مختلفة لمكان جغرافي واحد. أم تراه حالة من تماهي الخائف مع جلاده. ومع استمراره في البحث والتقصي، وجد أن هذه التغييرات والتحويلات ليست مقتصرة على مدينة بغداد، وإنما تطال الكثير من أحياء ومدن العراق. لم يكن ذلك ليؤثر على قراره، لذا حسم الأمر وتهيأ للسفر نحو بغداد.

في البحث عن عباس بن فرناس

حطت الطائرة فوق مدرج مطار بغداد الدولي. كانت الساعة تشير إلى الثانية ظهراً من يوم جاف في شهر تموز. خارج نافذة الطائرة القريبة منه، بدت ساحة مكشوفة يتقاذف فيها الهواء بقايا أكياس بلاستيكية وأوراق صحف. ملامح بناية المطار غير واضحة بسبب الغبار الكثيف، الذي ينم عن طقس عاصف ملبد بالتراب. كان يوماً عادياً من أيام قیظ العراق اللافح.

قبل أن يخمد هدير محركات الطائرة، تصاعدت ضجة بين الركاب، كان وقعها عليه كبيراً: الله مصلي على محمد وآل محمد. سمع هدير الجملة يتصاعد ويتردد في أحشاء الطائرة بنغمات متعددة، كررها بعض الركاب ثلاث مرات، مع مط نهاية الجملة بنغمة خاصة. مقدمة لم يستحسنها ماركس، وبدأت وكأنها تحدّ لما يفكر به، أو هي استفزاز مقصود لشخصه، فهمس سراً وكأنه يحدث نفسه، الدين هو عجز العقل البشري على التعامل مع حوادث لا يمكن فهمها. ولاحظ وهو يلوك حيرته، أن هناك من يرفع عن عمد كفه ويفتح أصبعيه علامة النصر، فتساءل مع نفسه هل يعني لهم هبوط الطائرة انتصاراً، أم هو كان المعني بتلك الإشارة.

فُتح باب الطائرة فاندفع هواء حار داخل جوفها. صاح شخص كان يجلس ليس بعيدا عن مقعد ماركس.

- واوو... ما هذا الدفوف يا الهي، هاي شمس الوطن وحرارته إلي تنطي النشاط والحيوية للروح.

تبسم له ماركس كأنما يشاطره الرأي، وشعر ببعض الاطمئنان حين تلاقت عيناها، فالوطنية عنده تتبدى في كل ما يفعله، أو يظهره المرء. وقف أغلب الركاب في الممر، وراحت الأيادي تتسابق مسرعة في محاولة سحب الحقائق من الرفوف. تقدم البعض مسرعاً نحو مقدمة الطائرة.

فجأة سمع صوت المضيفة يرتفع ويطلب من الجميع العودة إلى مقاعدهم والبقاء فيها لحين ورود معلومات أخرى. بدأ البعض يتململ ويثرثر بصوت مكتوم، وآخرون يشتمون ويصرخون ويتذمرون من الحر. أستمروا الحال لما يقارب النصف ساعة، دون أن يبرر طاقم الطائرة للركاب بقاءهم وعدم مغادرتهم الطائرة. أصبح الوضع لا يطاق مع بكاء الأطفال، وصراخ البعض، وهذيان العجائز، وشتائم الشباب وسبابهم لسلطة رئيس الوزراء ووزير النقل والبرلمان، لا بل كانت كمية الشتائم تنال وتطال جميع من هو مشارك في السلطة.

كان ماركس يدير رأسه في جميع الاتجاهات، يراقب حركة الركاب ويستمتع لأحاديثهم وصراخهم، ويدقق في نوع الشتائم

وطبيعتها، في محاولة منه أن يلم بالحدث بشكل دقيق. كان يود أن يجد علاقة لرئيس الوزراء ووزير المواصلات وأعضاء البرلمان، بالحالة التي وضع فيها ركاب الطائرة. كان صبوراً دقيقاً في بحثه عن سبب تلك الهستيرية، التي انتابت البعض من الركاب، فسأل الراكب الذي يجلس جواره عن الدوافع لمجمل تلك الشتائم، التي صبت فوق رأس الحكومة فلم يجد جواباً شافياً، وإنما ازداد الوضع غموضاً، مع جملة أطلقها ذلك الراكب، وكانت من ثلاث كلمات، لم يجد ماركس معها بدا من الصمت وهز الرأس علامة جهل مفرط، ولكنه ردها مع نفسه بعسر، ووجد فيها ما يرفع من مستوى ارتبائه، فتمتم وهو يمسد لحيته الكثة.

- عمي حكومة فاگسه.. ما معنى فاگسه؟

عشرون دقيقة أخرى مضت وسط الضجيج وارتفاع درجة الحرارة، والروائح العطنة التي نزت عن بعض أجساد الركاب المتعركة. أعلنت المضيفة عن انفراج الأزمة والسماح بالمغادرة، فاندفع الركاب، وكأنهم سجناء أطلق سراحهم تواء، فراحوا يتدافعون للوصول إلى باب الطائرة، بمصاحبة ضجيج وشتائم لم تهدأ أو تستكين. كان الطيار والمضيفات يودعون الركاب بابتسامات مغتصبة وتقطبية وجه ظاهرة. وسمعهم ماركس حين اقترابه، يلوكون من وراء أسنانهم، وبصوت خافت جملة غريبة، ود لو يسألهم عن معنى الكلمات التي جاءت فيها.

- دفعت مردي بعصا كردي..روحة بلا رجعه.

مضت بهم سيارة الباص نحو بوابة المطار، وعرف الركاب من سائقها بأن حجزهم كل ذلك الوقت، كان سببه مصادفة وصولهم مع وجود وفد حكومي، ينوي السفر بمهمة سرية ومستعجلة خارج العراق. ولأجله أفرغت قاعات المغادرة والوصول، ومنع وجود أي مسافر، في ساعة مغادرة الوفد. بعد معرفة السبب ضج الباص بهستيريا الشتائم والصراخ والتذمر، وكان أشدها قسوة صوت عفطة طويلة، جعلت عيون الجميع تتلفت دهشة بحثا عن مصدرها.

سلم كارل ماركس جواز سفره إلى الموظف الجالس داخل الكابينة، فطالع الرجل ماركس بشيء من الفضول، وكانت ثمة ابتسامة شاحبة تظهر فوق شفتيه، ثم طلب من ماركس النظر في الكاميرا الصغيرة التي وضعت في الجانب الأيسر من الكابينة، وهي التي تلتقط صورة العين للدلالة والكشف. بعد ذلك سأل الرجل كارل ماركس عن اسمه الكامل، ثم راح مرة أخرى يتملاه بتمعن وفضول ظاهرين، ثم قال:

- سبق أن أجيت إلى بغداد، مو هيچ أخي.. أليس كذلك؟

- كلا يا سيدي، إنها المرة الأولى.

- مستحيل، أنا شايفك سابقا، شعرك ولحياتك مو غريبة علي.

يمته چانت آخر زيارة إلك لبغداد.

- مثلما أخبرتك، هذه زيارتي الأولى إلى العراق.

- لا تتشاقه ويايه، أنت من أي بلد؟

- أنا ألماني الجنسية.

بعد أن شعر بالإرباك والحيرة سحب الموظف جهاز الهاتف ونادى على شخص بكلمة سيدي.

- هنا رجال ألماني الجنسية جاي من انكلترا. يگول إن زيارته هذه هي الأولى للعراق. وأنا اشك بهذا، فگبل هل مرة أني شايفه لمرات عديدة، وهو يدخل عن طريق المطار بهاي اللحية والشعر المكفش، وحتى يحجي عربي، وأسمه گبل تكرر گدامي سيدي، أعتقد الأمر بي شك ويحتاج التحقق من شخصه.

سحبته من ساعده بشيء من الغلظة يد ثقيلة شديدة السمرة مثل وجه صاحبها بثيابه العسكرية المرقطة، بعد أن قال بحزم، تفضل معي إلى غرفة المقدم. تقدم العسكري برفقة كارل ماركس، نحو باب غرفة موارد قليلا، يخرج من خلاله دخان سجائر كثيف، يحمله هواء بارد رطب. كان الضابط يحمل فوق كتفيه صورة نسر ونجمة، ويجلس متشنجاً متوفزاً متوترأً، وراء منضدة عريضة، تحتل الجهة اليمنى من الغرفة، وثمة لوحة معلقة خلفه على الجدار، كتب عليها بخط عريض (قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا)، تبسم ماركس وهو يقرأ الخط بلونه الذهبي فوق رقعة القماش الحمراء، داخل برواز خشبي أسود اللون، ودندن مع نفسه بصوت مكتوم، قد يوجد العقل لدى الإنسان، ولكن ليس دائماً بشكل عقلائي.

أمام وجوار المنضدة سبعة كراسي بمساند غلفت بقماش فاقع الألوان، يشغلها سبعة من العساكر ببزاتهم المرقطة، ودون رتب عسكرية ظاهرة، وثمة تلفزيون معلق فوق جدار الغرفة المواجه لمنضدة الضابط. الجميع ومعهم الضابط، كان

مشدوداً نحو شاشة التلفزيون، حيث تعرض لعبة كرة قدم، عرف ماركس أنها تجري بين فريق برشلونه وخصمه اللدود ريال مدريد. لم يكن ماركس يهوى كرة القدم بقدر هوايته للكتب والفلسفة، ودائماً ما كانت رياضته المفضلة هي المشي، وربما منعه عن تلك اللعبة مرض النزلة الشعبية، الذي عانى منه كثيراً. راح بفضول يتفرس محتويات الغرفة، ومجموعة العساكر الذين يحتلون الكراسي السبعة، وكذلك الضابط ومحتويات منضدته. كان العساكر بين فترة وأخرى يضجون بالصراخ والضحك. كانوا يتفاعلون بعفوية، ويغيبون عما يحيطهم، مع دحرجة الكرة بين أقدام اللاعبين. تقدم الجندي و بعد التحية قدم نفسه للضابط، وقال بصوت عال، إنه جلب الشخص المطلوب. لم يرفع الضابط عينيه عن شاشة التلفزيون، وأشار لماركس بصوت مسموع، أن يجلس عند زاوية الغرفة البعيدة، فوق السرير الذي رصف هناك. كان غطاء الفراش مبعثراً، وكأن أحدهم قد استيقظ من النوم تواء، وترك فراشه في حالة إهمال شديد. جلس ماركس عند طرف السرير، وراح ينظر نحو الضابط لعله يتجاوب مع وجوده ويلتفت ليحدثه. كان الضابط منفعلاً ومتشجعاً، وهو يراقب أحداث المباراة، وعند لحظة إهدار هدف لفريق ريال مدريد، ضرب بكفه الثقيلة فوق المنضدة، وأطلق سيلاً من شتائم وكفر صريح، لم يسبق لماركس أن سمع مثله حين كان داخل الطائرة، ولا حتى من الشباب العراقي في الأحياء الخلفية لمدينة لندن.

- أستاذنا العزيز، هناك من ينتظرني خارج المطار، وعليّ

أخذ حقيبتني أيضا. ما المشكلة التي تعترض مغادرتي؟

هكذا ناشد ماركس الضابط وهو يقترب منه.

- إرجع مكانك، ما بقه شي على المباراة غير القليل، أگعد أنته ضيفنا، وراح تنحل مشكلتك بسهولة، أگعد ولا تعب نفسك بالتفكير، بالمناسبة منو تتوقع يفوز في هذه المباراة؟

عاد ماركس جوار السرير، وترك الضابط دون أن يجيب سؤاله. وبدوره عاد الضابط يشارك أصدقاءه متابعة المباراة دون إنتظار الحصول على جواب من ماركس. إستمر الوقت يسير بتناقل، والجميع لاه مع المباراة. وأخيرا فاز ريال مدريد، ومع فوزه تهلل وجه الضابط وراح في موجة من فرح غامر وصراخ وتصفيق، ثم لوح بيديه في الفضاء وراح يهتف. علي وياك علي.. علي وياك علي.. علي وياك علي.. ثم صرخ بفرح ونشوة:

- خرخشو.. عيوني خرخشو، شنو حسبالكم رونالدو فلس فلسين، هذا حلال المشاكل أخو خيته.

بدوره اخرج أحد العساكر رزمة من نقود، وضعها فوق المنضدة أمام الضابط، وكان وجهه يكتسي بعلامات حزن مكين.

أدار الضابط وجهه نحو ماركس قائلا.

- گصتک حلوه علينا أستاذ ماركس، تدري لو خسران الريال اليوم، چان مشكلتك نلاصت وأتأجل حلها الباجر، أي سولف أستاذ شنو مشكلتك؟.

- لحد الآن لا أعرف السبب، وأي مشكلة تعترض دخولي العراق.

- گبل إنته زرت العراق؟.

- كلا هذه هي المرة الأولى.

- بس ضابط التفتيش يگول أنو سبق وشافك تدخل العراق، وهو يعرفك جيدا.

- أنه واهم.

- بس إنته تتكلم عربي.

- نعم قبل سنوات تعلمت ذلك في الجزائر.

- أها إنته لعد فار الدنيا فر..بس الضابط أحمد يگول هو شايك هنا سابقا.

- ربما أن الضابط شاهد صوري في بعض الأماكن، أو قرأ لي بعض الكتب. فانا صاحب كتاب رأس المال، ونظريتي عن مستقبل العالم معروفة، يتداولها الملايين من البشر، والطبقة العاملة في العالم أجمع، ترفع صوري وتتداول كتبي.

- الله عليك، فدوه، ما تگول شنو نظريتك باختصار أستاذنا الفاضل، تگدر تنورنا رجاء؟

قال جملته رافقتها حركة خفيفة من الرأس واليد، توحى بنوع من الاستخفاف. ولكون ماركس لم يواجهه أو يتعرف على مثل هذه الحركات، في جميع لقاءاته السابقة، ولا حتى في جداله مع أعدائه، لذا لم تكن حركة رأس الضابط العراقي،

وطريقة طرحه السؤال، وابتسامته المتخابثة الصفراء، ما كانت تعني لماركس حالة من السخرية أو شيئاً من الهُزاء.

- أنا كارل ماركس قدمت نظرية في النظام الاقتصادي العالمي، ومستقبله الاشتراكي وحتمية انهيار الرأسمالية وانتصار الشيوعية، ولدي تحليلات فلسفية في وحدة صراع الأضداد وقانون نفي النفي.

- عمي.. لتخوفنا بهذه الانهيارات والصراعات، هسه إحنه بيا حال، وأنته دخلتته بالفلسفة، وقانون ما أدري شنو ما شنو، گول من البداية وفضها أنته شيوعي؟.

- لا..

- بس شلون أنت تگول مآلف كل هذي الكتب ومو شيوعي؟
- لم نصل بعد لمثل هذه المرحلة لندعي بأننا شيوعيون... نحن ممهدون.

- يمعود تره إحنه ما عدنه خلك لهيچي سواف. هسه گول.. شنو تريد؟.

- لا أريد سوى الحصول على جوازي والذهاب إلى بغداد فهناك من ينتظرنني.

- عمي تفضل، إعدرنا من التقصير.

ثم نادى على الجندي الواقف وراء الباب، وطلب منه أخذ ماركس معه لإكمال معاملة دخوله العراق. ثم أردف قائلاً:

- هسه عرفت شنو سالفه ضابط التفتيش أحمد.. هذا يعرفك

كلش زين، لأن هو شيوعي، ويريد يغطي على نفسه.. خوش
والله خوش.. أني أعرف سابقا أكو بنصنه شيوعي ملحد، وهسه
جاي يبيع كلاوات بروسنه..يجي يوم أطلعه من راسه.

عاد ماركس إلى ذات الكابينة ووقف ينتظر. وبعد أن أتم
ختم الجواز نظر الضابط أحمد بوجه كارل ماركس وهو يدفع
له بجواز السفر، وبصوت جهوري مصطنع وابتسامة عريضة
ترسم فوق محياه قال جملته.

- تفضل رفيق.

كلمة رفيق دفعت ملامح الدهشة والاستغراب لتظهر
بوضوح في تقطيبه وجه ماركس.

- وأخيرا.. ها أنت تخاطبني بكلمة رفيق..

- نعم أيها الرفيق العزيز كارل ماركس.

- إذن كنت تعرفني.. ولذا عاملت رفيقك بهذا الشكل السيئ،
فما الذي تفعله مع الآخرين من غير الرفاق.

- رفيقي.. نحب نتلاطف وياك... وكلشي إله وكته
واستحقاقه.. تراه إحنه نحبك ولهذا عفيتك من الرسوم
والمستحقات أو ورقة التلقيح، وما أخذنه منك غير الدخوليه.

شكر كارل ماركس الضابط واتجه نحو باب الصالة
المفضي لساحة انتظار السيارات.

قبل أن يصل الباب الخارجي، شعر بيد قوية تسحب الحقيبة
الثقيلة من يده وتضعها فوق عربة صغيرة خاصة بنقل

الحقائب.

- ماذا تفعل.. الحقيبة لها عجلات واستطيع أن أسحبها.. إنها ليست ثقيلة.

- مجهي جاني دو.. رفيك.

- أذن أنت أيضا رفيق.

- يس رفيك. **

- من أي بلد أنت What country are you from؟

- بانغال سي From Bangladesh رفيك.

أستسلم ماركس لإرادة الحمال البنغالي الأسمر الصغير وترك له الحقيبة، وقبل الوصول إلى مراب السيارات، تقدم نحو ماركس رجل ترتسم على وجهه ملامح ابتسامة عريضة. كان أنيق المظهر، وكأنه ذاهب إلى حفل ساهر، يرتدي سترة كحلية وقميص ابيض بخطوط صفراء خفيفة. يبدو على ملامحه الجد وكأنه ما كان يود إضاعة الوقت، لذا وجه كلامه نحو ماركس بترديد سريع للكلمات. كان من الصعب على ماركس فهم تركيبها كجمل، ولا بأي لغة كان يتحدث، ولذا بادر بالقول.

- تمهل بالكلام سيدي.. لكي أفهم ما تريد قوله.

- نعم أستاذ.. أهلا بك في العراق.. تريد تروح لمكان بالعاصمة بغداد؟

- نعم أريد الوصول إلى فرناس..

- قصدك عباس بن فرناس؟
- نعم هو بالضبط.. هناك ينتظرنى بعض الأصدقاء.
- فجأة قفز الحمال البانغلاديشي أمام كارل ماركس وصاح في وجهه.
- رفيك.. هزاك تريله واگفه تروه لساحة عباس راح أوديك عليها.
- بسرعة وخفة امتدت يد الرجل صاحب السترة الكحلية لتدفع الحمال إلى الخلف.
- لك هاي شلون صايره الدنيا،حتى الحماميل گامو يخططون ويقررون.. حيوان.. إنته ليش تتدخل.
- ثم وجه كلامه إلى ماركس.
- جناب الأخ يريد بالبهبهان لو تكسي.
- وما البهبهان هذا؟.
- استادنا العزيز هاذي نوع من أنواع السيارات الكبيرة شويه مو سهل تحصل بيها مكان.
- ومن الأسرع فيهما؟
- طبعي التكسي.. البهبهان لا زم يقبط سبع نفرات، وتنتظر فتره طويله.. والتكسي هم سريع وهم إنته الوحيدك.
- جيد نأخذ تكسي. لفرناس بن عباس.
- أستاذ.. حبيبي.. عباس بن فرناس.

- أوكي.. عباس بن فرناس.. قالها ماركس مبتسماً.

تقدم الرجل نحو مجموعة سيارات أجرة واقفة في ممر طويل، وكان الحمال البنغالي يدفع عربته بتثاقل، وخلفه كارل ماركس يحمل حقيبته اليدوية ويجول بنظره أرجاء المكان، وكأنه يبحث عن شيء ما. رفع الحمال الحقيبة ووضعها في الصندوق الخلفي للسيارة، وتسمر واقفاً أمام ماركس، ثم مد يده فاركا سبابتها بإبهامها، دالة على رغبة الحصول على أجره. لم يتأخر ماركس في فهم الإشارة، فسحب أوراقاً نقدية من جيب سترته وأخرج من بينها ورقة بقيمة عشرين دولاراً. بسرعة خاطفة تلقفها البنغالي وصاح.

- ثانكيو رفيك.

- هاي شنو سويت أستاذ؟. هاي أنطيته هواية.. انتم الأجانب راح تخربون الحماميل مالت المطار بهاي سوافكم... خمس دولارات كلش كافي وراح يأخذها وهو ما مصدگ.. أستاذ رحمه لوالديك بعد لتسويه. قال السائق جملته بنوع من الجد والحدة.

- بروتاري يستحق أكثر. قالها ماركس مبتسماً.

- برباري مو برباري.. تره لعب عليك هذا الاملح البنغلاديشي.

قالها السائق وذهب ليجلس خلف مقود السيارة.

جلس ماركس في مقدمة السيارة جوار السائق، وراح ينظر نحو الحمال البنغالي الذي أمسك بحقيبة احد المسافرين، من

الذين يرومون الوصول إلى سيارات النقل. كان الحمال البنغالي ينازع المسافر بجهد كبير، لأجل الاستحواذ على الحقيبة، في الوقت الذي يتشبث المسافر ممسكا بها بقوة. هز ماركس رأسه وزم شفتيه وقال:

- الفقر لا يصنع ثورة وإنما وعي الفقر هو الذي يصنع الثورة.

- نعم، أستاذ شنو تفضلت.. تراه ما فتهمت شنو كلت؟

- أقول.. وأنا أرى صراع هذا الحمال المسكين من أجل الاستحواذ على لقمة عيشه، حتى وأن وجه له تعنيف. تذكرت بلاده بنغلادش لذا أقول.. الفقر لا يصنع ثورة، وإنما وعي الفقر هو الذي يصنع الثورة.. لو كان هذا الوعي يحدث في بلاده لتغير الشيء الكثير هناك، ولما قدم هذا الطفل إلى العراق للعمل.

- دخيلك ودخيل الله أستاذ.. تراه الفقر ما يتحمل ثورة، ولا الثورة تتحمل فقر.. وإذا دخلت وحده بالأخرى، راح تصير لخمّة شخينه مثل ما يگولون ربعنه المسيحيين. خلينه بحالنه يرحم والديك. خبز حار خبز بارد، كله رزق من رب العالمين، وشنو يجي من الباري عز وجل نرضى بيه.

- أوكي سيدي، ربما تمتلك شيئاً من الصحة فيما تحدثت فيه.

لم تتحرك السيارة سوى بضعة أمتار حين إلتفت السائق نحو كارل ماركس مخاطباً بصوت خفيض ولغة توددية ناعمة.

- تسمحلي أستاذ اصعد هذا الرجل ويانه.. هذا واحد من

أقاربي، حتى ليصير عتب عند العمام.

- أوكي.. فقط أسأل من وماذا تعني كلمة العمام؟.

- يعني أهلنا.. أقاربنا، العشيرة.

- آها.. أوكي الآن أفهمت.. تقصد من أفراد القبيلة.

- لا عمي هذا أبن العشيرة.

- وما الفرق؟

- عمي أنتم الأجانب ما عدكم عشائر.. إحنه اليوم الما عنده عشيرة ما يسواله كطف جگاره.

- أوكي شنو كطف جگاره؟ ثم ما الفرق إن كان أبن العشيرة أو أبن القبيلة؟

- خوش، سألتني.. ولو أنا مستعجل بس أجابك.. كطف جگاره يعني ما يسوه فلس. و مجموعة عشائر يكونون قبيلة واحدة، يعني القبيلة هيه الأمايه إلي تلم العشائر، وهذا الرجال من حبال المضيف.

- هذا كان موجود عندنا أيضا مثل باقي شعوب العالم.. وتقريبا بدأ يضمحل ويختفي في نهاية القرن السابع عشر، ولكن أنتم الآن في القرن الواحد والعشرين، ومن الضروري أن تتخطوا هذه المراحل...

- عمي شدتحي، حته لو بالقرن الخامس والأربعين.. إحنه بنفس الطاس ونفس الحمام، كلشي مركب عليه تركيب.

- وما هو الطاس وما هو الحمام.

- بعدين أفهمك أغاتي.. مو راح الرزق يطير، وحبال المضيف تنگطع وراح يا خذه غيري.

فتح السائق باب السيارة وذهب نحو الرصيف المجاور، وراح في حديث مع الشخص الواقف هناك، الذي كان يرتدي ثوبا أبيضاً ناصعاً، وسترة بلون رمادي براق، ويحمل بيده اليسرى حقيبة صغيرة، وجواره حقيبة كبيرة. رفعها السائق ووضعها في الصندوق الخلفي، وتقدم الراكب وصعد في المقعد الخلفي من السيارة.

لم ينشغل كارل ماركس بالزمن الذي استغرقته الرحلة، من المطار حتى عباس بن فرناس، كونه كان منشغلاً بتتبع طبيعة البناءات والأرض المحيطة بالشارع، والحديث الذي دار مع السائق والراكب الآخر. كانت السيارة تلهب الأرض، وكارل ماركس يجول بنظره في الفضاء الممتد أمامه، متتبعا بدقة مناظر البناءات والأرض الجرداء المحيطة بالشارع. كان حريصا على مراقبة جميع ما يحيط به، محاولا استيعاب ما يدور حوله، وبين فينة وأخرى يمسح عن جبينه قطرات العرق التي شعر بها تجري بكثافة بين شعر رأسه الكثيف لتسيل نحو جبهته ثم رقبتة، وبعضها تسرب ليرطب لحيته، ثم شعر بها تهبط نحو صدره. كان الجو الحار رطباً خانقاً، أضطر معه الطلب من السائق تشغيل جهاز التبريد، فاعتذر الآخر وعلل الأمر بعطل الجهاز، ولذا أضطر كارل ماركس لفتح نافذة السيارة لعل الهواء يساعد بعض الشيء في التخفيف من شدة الجو الخانق. ورغم انشغاله بالحر والعرق والتفكير بالقادم من

الساعات والأيام، فقد لاحظ أن الراكب الجالس في المقعد الخلفي دفع ببضع نقود وضعها بيد السائق، التي امتدت إلى الخلف وأطبقت على النقود، ثم سحبتها ودستها في جيب السترة. صمت ماركس وراح يفكر بمعالم الطريق الخالية من أي ملمح يوحي بالخضرة، أو أية مظاهر تشد المرء لبلد يتحدث الناس بحسد عن غناه. فالبيوت كالحبة الألوان، متباعدة وبعض أشجار مبعثرة هنا وهناك، والأرض جرداء مصفرة توحى بيباس أزلي.

- كلشي ما تغير.. صار لي أربع سنوات بره وهسه رجعت.. نفس الشيء ما تغير. هذا نفس الشارع بطساته وحفره والبيوت نفسها وحتى الناس.

كان صوت الراكب الجالس في الخلف وهو يتحدث، يبدو وكأنه يخرج عن جهاز مذياع. فأجابه السائق بلغة واثقة.

- عمي الله يخليك.. إذا كلها سلايه ونهابه وعلاسه ونصابه شلون تريد الأمور تتغير.

- أعرف، أعرف عيوني، أمريكا جابتهم قصطني حتى يخبون البلد.

- هم رجعه لقوانة أمريكا وجابتهم، وإجوي على ظهر الدبابة.. أمريكا شعلها... شوف ابن عمي المثل يگول، المايسوگه مرضعه سوگ العصا ما ينفعه... إذا البشر ما يخاف من الله وما يحب بلده، لا تترجه منه شي.

- بس أخويه تره أمريكا خربت النفوس بالفلوس.

- والله أبن عمي من يوم أبن صبحة والنفوس خربانه.

- إي هسه شنو دخل الرجال بهذا اللي صار و يصير.

- عمي كلشي صار وكلشي يصير إجه من وره رأسه.

توقف الحديث واران بعض الصمت بينهما. كان السائق ينظر في المرأة الأمامية نحو الراكب الجالس في الخلف وكأنه يلومه عما تحدث به، والراكب بدوره يوجه نظراته نحو ذات المرأة لذات الغاية ولكن بحذر، وكأنهما يتحدثان بعيونهما. ألفت كارل ماركس نحو الخلف وطالع وجه الراكب، ثم استدار وتملى وجه السائق، وكأن هناك جملة أو ملاحظة في خاطره تود الخروج ولكنه يكبحها.

- ها أستاذ.. يظهر كلامنا ما عجبك.. إنته هم تحب أمريكا مثلي وتكره صدام.

- إذا كان نقاشكم يتعلق بالحب والكره لهذا وذاك، فلن يتمكن المرء من الحصول على نتائج مقنعة ومفيدة، فالأمور لا تفسر وفق ما نحب ونكره.. فالتاريخ مادة تصنعها الشعوب بقوة إرادتها.

أطلق السائق ضحكة قصيرة ثم وجه كلامه إلى ماركس.

- بالمناسبة، أستاذنا العزيز. ما تعرفنا بجنابكم.

- أنا أسمي كارل هاينريش ماركس.. ودائما يختصر أسمي بماركس.. وأنا من ألمانيا...

- والنعم أستاذ.. بس كون على ثقة وروحه للحجي، أسمك أبد

مو غريب عليه.

وفجأة وبنوع من الثقة والجدية قال الراكب الجالس في المقعد الخلفي.

- أي والله الاسم مو غريب.. وبولايتنا هناك قصة طويلة عن نفس الاسم، يحجون بينها بعض الاختيارية..

- نعم أسمى معروف.. لماذا توقفتم عن النقاش؟

- استاد هذي السوالف وغيرها يوميه نشرب ونأكل وياها.. وما قدمت ولا أخرت.. وما يتلاگه أثنين عراقيين، إذا ما خشو بهذي المشاكل...وبعدنه على ذاك الحال وما تغير بينا ولا بحياتنا أي شيء.

- فيما حدث عندكم يصح فيه تحليل زميلي وصاحبي فردريك أنجلز..حين قال : يطاح بالأقلية الحاكمة ويحل محلها في السيطرة على قوة الدولة أقلية أخرى،تعيد ترتيب مؤسسات الدولة بما يتلاءم ومصالحها.

فجأة صاح السائق بصوت جهوري شادا على مقود السيارة بكلتا يديه.

- أنه ابن جوده..بعد شيببي وشيب أبوي.. عرفتة من الأول.

- ماذا عرفت؟

- أقصد أبوي عرفها ليگدام.

صاح الراكب الآخر بشيء من الاستهزاء

- وماذا عرف الوالد الكريم؟

- عرفني أثول بهيچ مواقف، كلشي ما افتهم. في يوم وچان عمري اطنعش سنه، سويت وكاحه.. أخذني الوالد طيب الله ثراه للغرفة، وهلسني بالحزام هلس. وبالأخير گالي، إنته لو تطلع دلال وچماله قمرجي، لو بياع نفط، لو سايق تكسي.. وبغير هذني الوظائف حظك يطيح وتعيش طول عمرک اغبر.. تدري ليش.. لأن إنته دجه دبنگ دماغ سز، بس شاطر بالكلاوات والوكاحه، ثاني يوم گتله يابه عود ليش دلال وألعب قمار. گال لأن الدلال شغلته يغش ويقشمر الناس بلسان حلو ذرب ويصورلهم اليريد ايبيعه بس هو الموجود وماكو غيره، وعلمود هاذي الله يبتليه ويخلي يحب القمار والنسوان، ويذب فلوسه عليها، وسألته ليش بياع نفط، گال، لأن إنته تعرف بالحرمنه زين، وراح ما تترس التنكة إلي تبيعها للناس بالنفط.. زين وسايق ليش؟ گالي بعدين تحس بيها وتعرفه.. وأني اختاريت أصير سايق. وهسه أحس أني داخ ما مفتهم منك كلشي أستاذنا، وما اعرف شنو گال صاحبك فريد أنجز.

- فردريك أنجلز..

- كله يك حساب أستاذنا.

- تدري استاد، وربك الكريم.. حتى أسم صاحبك مو غريب.. هاي شلون صدفه اليوم.. رجعتنه الأيام عبد الكريم قاسم.. ولو أسم ذاك الشخص هم ماركس، بس هو متوفي على عهد نبي الله دقناووز..

هكذا راح الراكب الآخر يتحدث وكأن صوته الغليظ المكتوم يخرج عن سماعة مذياع قريب.

- أستاذنا العزيز.. چانت محلتننا كلها تحجي باسم ذاك
ماركس، ويسمون المحلة مالتنه موسكو الزغيره، وصور هذا
اليشبهك موجوده على هوايه كتب يقرأها الناس، بعدين أفتر
الزمان وأجو البعثيين، هوايا ناس گلبو عكرف لوي، وصارو
بعثيه و حرس قومي.. وراح وكت وأجه وكت صارو قوميه من
جماعة عبد السلام وجمال، ورجعو البعثيه وهم گلبت الناس
وصارت وياهم. وهسه ما شاء الله كله گامت تضرب ركعة
والگصة سودة. حشاك أستاذ، چان هذاك الله یرحمه.. إلي يشبه
أسمك، اهوايه سوالنا قلبالوغ ومشاكل ویه الحكومة.. تصور
أبن خالي لیهسه ما ینعرف مصیره، شنو بالله لزموه شایل
مناشير مال شوعیه.

ولجت السيارة التي تقلهم داخل ساحة متربة مكشوفة محاطة
بسياج من حديد مشبك. تقف داخلها بغير ترتيب العديد من
السيارات، بعضها بلون اصفر مميز وكأنها تابعة لشركة نقل
بعينها، والباقيات يبدو أنها سيارات خاصة. تقدمت السيارة
لتدخل في ساحة أمامية معبدة بالأسمنت، تقف فيها بضع
سيارات حديثة. ثم توقف السائق جوار باب مطعم، بعيد بعض
الشيء عن تجمع السيارات، وترجل ليساعد الرجل صاحب
الثوب الأبيض بأخذ حقيبته ثم جاء وقال لماركس:-

- أستاذ هنا المكان.. هذا هو موقع عباس بن فرناس.

غادر كارل ماركس مقعده وجال بنظره المكان ثم سأل
السائق.

- وأين فرناس الذي يؤشر به.

- استادنا العزيز بعد ما تخرج باتجاه بغداد راح تشوف تمثال كبير لرجال عنده جناحين.. هذا هو عباس بن فرناس.. طباقات مال ذاك الوگت، الله خبله خبال قوي.. وبليله سوده فد يوم حلم، و چان يسويله جناحات وراد يطير مثل العصفير.. طاح من فوگ الجبل وتكسرت عظامه، كانت تجربة لها دالة على عظمة فكر العراقيين.. دائما طائرين وشلع، وبعدين ينچبحون على وجههم وتطير كل الأحلام.. بس تگول يجوزون من أحلامهم، مستحيل، لا من ثالث المستحيلات، وهذا حالنا من ذاك اليوم الحد اليوم، نطير ونوگع ونطير وننچبح، وعلى هلرنه طحينچ ناعم.

همس مارکس مع نفسه، رغم أني لم أدرك جميع ما تحدث عنه هذا الرجل، ولكن وفي حقيقة الأمر، فإن أفكار الإنسان هي انبثاق لحالته المادية، من المستحيل تماما تجاوز قوانين الطبيعة. ما يمكن أن يتغير في الظروف التاريخية ليس سوى شكل هذه القوانين.

- يحفظكم الله أغاتي، تره ورانا شغل، لعب إيدك وخلي نتوکل على الله ونرجع للشغل ويمكن نحصل رزق أحسن.

- ما المبلغ الذي تطلبه؟.

- إنته ضيفنا أستاذنا العزيز، وألف أهلا بیک بعراق الحضارات، مثل ما أتفقنه، ميت دولار وهادي أقل شي لخاطرك، لأن الظاهر أنت طيب ابن أطياب، ولو ما وظيفتي بالمطار چان وصلتک لنص بغداد.

سحب السائق الحقيبة من صندوق السيارة الخلفي، وصرخ بصوت عال على احد الحمالين. تقدم الحمال وكان شبيهها بالحمال البنغالي الذي يعمل في المطار. حين قبض السائق المائة دولار من كارل ماركس وجه حديثه للحمال بصيغة أمره :

- مو تستغل الأستاذ.. ها دير بالك.. ما تأخذ منه أكثر من خمسة دولارات.. زين.. تره أسمط أبو أبوك.. هذا ضيفنا..
- أوكي.. رفيك... شويه.. شويه

لقاء تاريخي في الزمن العصيب

لم يكمل كارل ماركس حديثه مع سائق التاكسي حين سمع ضجة وأصواتاً قادمة من الباب الأمامي لساحة وقوف السيارات عند مجمع عباس بن فرناس. سبعة أشخاص بأناقة تامة رغم الحر القاتل، أحدهم يرفع راية حمراء والآخرين راحوا بموجة من تصفيق يترافق وهتاف مدوي متكرر.

- هله بيك هله وبجيتك هله... هله بيك هله وبجيتك هله... هله بيك هله ويشيخ المرجله..

راح ماركس يتلفت يمينا ويساراً وشعر بشيء من الارتباك، بعد أن تيقن أن الأشخاص السبعة يتوجهون وأنظارهم شاخصة نحوه. لم يستطع فعل شيء سوى الوقوف والدهشة ترتسم على وجهه. وأخيراً اجبر نفسه على الابتسام، حين وجدهم يلتفون حوله ويهتفون بذات النغمة المكررة، ثم قفز أحدهم وطوق عنق كارل ماركس وراح يقبل وجنتيه وهو يردد

- عيوني فدوه اروحك.. ماركس ماكو غيرك... أنت تدلينه على الطريق.. هله بيك هله.. هله بيك هله يميل المكحلة.

بيد قوية تمكن احدهم من سحب الرجل وفك اسر رقبة ماركس منه، صارخا بوجه الجميع.

- رفاق.. رجاءً مركزية...أخوان بدون خروقات... خلونه حسب ما متفق عليه.. لا عناق وبوس دون موافقات مسبقة..

الالتزام حرفياً بما اتفقنا عليه.. رفاق رجاء.. تذكروا رفيقنا
ماركس متعب.

بنظرات متوسلة من عينيّن ذابلتين شكر كارل ماركس
الرفيق صاحب البذلة الداكنة بلونها الأرجواني الضارب
للسواد. ثم بادره بالسؤال بعد أن أوحى مظهره الأنيق لماركس
بأنه مسؤول المجموعة.

- هل الرفيق مسؤول المجموعة التي أرسلت لي طلب
المجيء إلى العراق ؟

- نعم رفيقنا الغالي نحن من أرسل بطلبك. وأناي مو
المسؤول الأول.. ولكني باسم الجميع أرحب ببك في أرض
الرافدين.. أرض التاريخ المجيد والعنفوان، البلد الذي ظهرت
فيه أول حروف الأبجدية، ومنه انطلقت العلوم والتكنولوجيا،
حيث صُنعت العجلة لتتنقل العالم من مرحلة إلى مرحلة، وكانت
تلك أولى الخطوات لظهور الطبقة العاملة، أنت في بلد المجد
الحضاري التليد.. أهلا بك أيها الرفيق العزيز في بلد التحديات
الكبرى أرض العمال والفلاحين والكادحين والانجليستيا صناع
الفجر الأحمر.. حللت أهلا ووطأت سهلا.

اقترب أحدهم من رفيق آخر وهمس وهو يخفي بيده ابتسامة
ماكرة.

- إسمع الرفيق سعدي.. من هسه بده يغرد... بعدنه ما
تعرفنه على الرجال گام الرفيق يحجي جنجلوتيات.. اليوم
شراح يخلصها..

أجابه الآخر هامسا.

- يعمود دعوفه... قابل هاي أول مره تسمعه من رفيق انجليستيا.

لم يكمل حديثهما حين بادر أحد الرفاق بأخذ كف كارل ماركس وراح معها في موجة ترحاب، اضطر ماركس لسحب كفه بقوة، وعلائم الضجر بادية عليه، فقد شعر بقوة الشد التي تسحبه دون رحمه. راح ماركس يجول بنظراته في وجوه الرفاق ثم وجه حديثه دون تركيز على شخص محدد.

- يمكننا إكمال الحديث في مقر حزبكم، أعتقد أن هذا أفضل من الوقوف هنا.

تلاقت نظرات الرفاق، وظهر وكأنهم في حيرة وارتباك من السؤال الذي لم يكن متوقعا. أحدهم بادر وهو يمسح العرق من فوق رقبته بمنديل أحمر طرز على أحد أطرافه رسم المنجل والمطرقة.

- رفيق ما عدنا مقر ثابت.

- ولكني عرفت أنكم تملكون مقرا ثابتا.

- رفيق مو إحنه ألي عرفت عنهم.

- ولكن هذا ما أخبرت به من رفاق لي في لندن قبل مجيئي.

- يمكن خبروك عن غيرنه.

- إذن هناك غيركم؟

- نعم وهناك خلافات واختلافات أيولوجيه بيننا وإحنه ما

نريد نلتقي وياهم.

- حسنا ومتى سنذهب من هنا وإلى أين نتوجه؟

- رفيق ماركس إحنه ننتظر رفيق جبار، وهو المسؤول عن كل شيء، بعدها نروح للفندق.

- وأين رفيق جبار؟

- رفيق جبار يتأخرشويه وهو هسه بالطريق.

التف الرفاق حول كارل ماركس، أحدهم يرحب به والآخر يوجه له استفساراً عن لندن وكيف هي المعيشة هناك. أحدهم سأل عن طريقة الهجرة إلى هناك، وآخر عن عدد أفراد عائلته، وآخر سأل عن صحة الأنباء التي تحدثت عن مرض الرفيق فردريك أنكليز، وعن مشاريعهم المشتركة، آخر سأل عن طبيعة الاختلاف بين النظام الاقتصادي الانكليزي والألماني، فأجابه ماركس بأن الوقت لا يتسع الآن لجواب مثل هذا السؤال. بصوت خافت خجول، بادره أحد الرفاق وهو يفرك راحتي يديه ببعضهما، بسؤال ظريف عن عدد عشيقاته، وهل يفضل واحدة منهن دون الأخريات. زم ماركس شفتيه ثم هز رأسه وأبتسم وهو ينظر لهذا الرفيق الصفيق. توجهت أنظار الرفاق نحو رفيقهم، وبدأت كلمات التقريع والاستهجان توجه إليه من قبلهم، وكان بعضها جارحاً، فابتعد الرفيق عن الجمع وهو يمسح قطرات العرق التي غطت وجهه، دون أن يترك لراحتي يديه متسعا من وقت.

هبت سحابة تراب صاحبت قدوم سيارة سوداء ضخمة نوع

لكرس ياباني حديثة، توقفت بمحاذاة تجمع الرفاق، فاستدار الجميع وبوجوه تفيض بشاشة، وراحوا يحيون صاحب السيارة بحرارة.

- هلو رفيق جبار.. هلو بيك.. هلو ورده.. هلو حبوبي.. رفيقنا كارل ماركس متشوق لشوفتك.

فتح باب السيارة ليظهر جوارها رجل أنيق ببدله ضاربة للسواد وربطة عنق زرقاء غامقة وقميص بصبغة سمائية اللون. كانت نظراته تتسقط الرفيق ماركس الذي وقف خلف الجميع. كانت ابتسامة رفيق جبار عريضة ترتسم فوق وجهه الحنطي المائل للحمرة، وتظهر أسناناً ناصعة البياض. ودون النظر أو الحديث مع أحد من رفاقه، مد يده لمصافحة الرفيق ماركس. كانت أنظار الرفاق تنظر بشيء من الاعتزاز والفخر، لهذا اللقاء التاريخي في هذا الزمن الصعب والعصيب. أدار رفيق جبار رأسه نحو الرفاق وقال:

- أوكي رفاق شيلو جنط الرفيق ماركس وخلوها بحوض السيارة.

بعد هذا سحب الرفيق جبار الرفيق ماركس من يده وفتح باب السيارة وطلب منه الصعود جواره في مقعد السيارة الأمامي، ثم انطلق مسرعاً بعد أن نبه الرفاق إلى ضرورة اللقاء مساءً في الفندق.

بدأ اللغط يتصاعد بين الرفاق وكأنه شجار، بعد أن ذهب الرفيق جبار منفرداً مع كارل ماركس، ولم يكلف نفسه حتى

الالتفات نحوهم أو السماح للبعض بمرافقته وماركس. وكان
سامر أكثر الرفاق تدمراً وبدأت كلماته الغاضبة المتقطعة
السريعة تأخذ منحى شتائم بحق الرفيق جبار.

- إي هسه أبين المهلوس.. أبين المداس.. إحنه مو رفاق، هذا
دائماً يبقه ما عنده أصول، لكن هو منين يجيب الأصول أبين
الركاع، عمت عين الوكت إي والله، عمت عين الوكت.

- إي ليش، شلك بهذا الحجي رفيق، مو هو رفيقنا ومسؤول
حزبنا، ودائماً عنده وگفات ويانه لو نسينه. هسه صار كخه
وغلط.. يمكن راد يريح رفيقنا ماركس ويفتهم منه منفردا
بعض الأشياء الرفاقية. وهمين ميصير هيچ خرق بشتايم.

- ليش إحنه مو كلنا رفاق.. ليش دائماً يميز نفسه؟

- هسه دخلها سكته مزين مرات....؟

- گول ليش سكتت..؟

- مرات غده وعشه و يلفيك بالفندق.

- أهو.. بدت رحمة الله.. أحسن اسكت وأنجب من هذي
الدهرة.

- صدگ بالمناسبة، رفيق مناف شنو گلت من هتفنه لوصول
الرفيق كارل ماركس.. هله بيك هله يميل المكحلة.. شنو هاي
سالفة ميل المكحلة؟

- والله أني سامع هذا من بيبيتي.. چانت تهوس الجدي لمن
يجي من البستان بالمسا. وچان أبويه يخرب ضحك من يسمع

الهوسة.. فسألته يوما.. بويه شنو يعني ميل المكحلة.. جان يگول أنته شايف المكحلة مال بيبيتك، مو بيه راس مثل القبع وبي نبوله، فأجيبه بنعم. فقال لي هذا هو الميل، والمكحلة بدون النبوله أي الميل، ما تسوه زبانه.. وإذا الميل ما يدخل بالمكحلة.. العيون ما تصير وساع وتشوف الدنيا زين.. بس المدوخني، أنو بعد ما شرحلي هذا الموضوع، راح بموجة هستيرية من الضحك.. هسه أني فكرت أنو بدون ماركس، إحنه ما نكدر نشوف وضعنه زين.

- إي رفيق ما كتل حبوبتك وموتها، تره مو السبب كبر العمر، لا، كتله ميل المكحلة.

ضج الرفاق بالضحك، وهم يتوجهون لأخذ سيارة أجرة للحاق برفيق جبار في الفندق. بينما وقف الرفيق مناف فاغر فاه بدهشه.

وصل الرفيق جبار إلى الفندق وأوصى العمال الاهتمام بالضيف، والاعتناء بغرفته، ونبههم إلى تحضير حاجات الرفيق، لأخذ حمام ثم التهيؤ للعشاء في مطعم الفندق.

حين قدم الرفاق إلى الفندق كان الرفيق جبار وكارل ماركس يجلسان حول طاولة منفردة يتناولان الطعام في صالة مطعم الفندق.

سلم الرفاق وجلسوا عند طاولة قريبة وراحوا في حوار جدي باديء الأمر، ثم بدأ الهزل والضحك، وكانوا يتوقعون أن يدعو لهم الرفيق جبار بشيء يأكلوه ولكنه بادرهم بالقول.

- بعدكم متعشيتو؟.
- ردوا سريعا وبصوت واحد.
- لا رفيق.
- ليش ما تروحون تاكلولكم شي بالمطعم البصف الفندق.
- فبادره الرفيق سامر بالكلام
- رفيق جبار أگدر أبات بالفندق اليوم؟
- ليش بعدك متزاعل مع أم عشتار؟
- إي والله رفيق.
- أوكي شوف الاستعلامات وخبرني.
- خرج الجميع واحدا إثر الآخر وهم يطالعون ماركس المنشغل بالطعام.
- هاي شبي الرفيق جبار أشو صاير بخيل؟
- يمعودين شنو يوميه... البارحة تغدينه عنده.
- إنته ورفيق عباس وسعدي وسامر مو إحنه.
- وذاك اليوم وقبله؟
- إي هسه إنته صاير قبع مال حلوگ.. شنو نحجي أتذكرنا بالماضي..

حين أتم الرفيق جبار وكارل ماركس عشاءهم وتناولوا كأس شراب، سأل الرفيق جبار كارل ماركس عن استعداداه للغد، فهو أي الرفيق جبار سوف يجمع بعض الرفاق والأصدقاء

هنا، في باحة الفندق، للتعرف عليه وسماع بعض الآراء. وافق
ماركس على مقترح الرفيق جبار واستأذن للذهاب إلى غرفته
لشعوره ببعض التعب، وحاجته لأخذ قسط من الراحة. شكره
الرفيق جبار ورافقه حتى باب الغرفة، ثم هبط إلى الصالة
وأصل بالرفيق سعدي، وأبلغه بضرورة الحضور للتهيو ليوم
غد، وإبلاغ جميع الرفاق والأصدقاء بالموعد لمقابلة الرفيق
كارل ماركس والتحدث معه.

سوء فهم أم خلاف مبيت

كانت درجة الحرارة التي أعلن عنها في أخبار الصباح قد بلغت 49 درجة، ولكن مثل هذا الإعلان يبتعد كثيراً عن واقع الحال. هذا ما شعر به كارل ماركس وهو يقف في شرفة الغرفة. فرغم وقوفه في الظل، فقد اضطر للدخول مسرعاً لشدة الحرارة التي يدفع بها الهواء فتلفح وجهه، وقرر البقاء في الغرفة تحت هواء المروحة السقفية، أو التمتع بالحمام رغم سخونة الماء، ولكن ترطيب الجسد يبعث في النفس شيئاً من الراحة.

طُرق الباب، فرفع ماركس جسده عن السرير بتثاقل، فقد كان في طريقه نحو إغفاءة بسيطة، جراء القبط الذي يلف المدينة ويبعث على الخدر والنعاس. ذهب وفتح الباب ليجد الرفيق جبار واقفا يطلب منه القدوم لحضور الاجتماع المعد للقائه في صالة الفندق. ارتدى كارل ماركس قميصاً أصفر بنصف كم مرقط بنقط صغيرة أرجوانية خفيفة وربطة عنق شذرية اللون وبنطال عريض قطني حليبي اللون. هبط السلم باتجاه القاعة، وهناك وجد حشداً من الناس يربو عددهم على أكثر من الثلاثين شخصاً.

جلس الرفيق كارل ماركس خلف طاولة أعدت له في زاوية من زوايا بهو الفندق، واصطففت أمامه مجموعة رجال كانت تجلس معهم امرأة واحدة لا غير. جلسوا على كراسي غير

متشابهة، رصفت أمام الطاولة التي يجلس خلفها كارل
ماركس.

بعد ضجة ولغط كثيرين أشار الرفيق جبار للجميع بالهدوء
والانتباه لحديث الرفيق ماركس. بدت ملامح الانشراح على
وجه ماركس وتوردت وجنتاه، وارتسمت ابتسامة خفيفة فوق
محياه، وتنهد وهو يسحب كرسيه ليقترّب جيداً من حافة
المنضدة، التي وضع فوقها بعض الأوراق في ملف بلاستيكي
داكن الحمرة.

بادر الرفيق ماركس، فحيا الجميع بحرارة، وشكرهم على
الحضور وتكبدهم مصاعب الطريق، بعد أن استيقظت بغداد
منذ الصباح الباكر على أصوات انفجارات عديدة هزت
العاصمة، قطعت إثرها الطرق وبالذات شوارع جانب الرصافة
الذي يقع الفندق عند أحد أطرافه. بادر الرفيق ماركس بالقول:

- رفاقي وأصدقائي الأعزاء تحية رفاقية.. اسمحوا لي في
البداية أن أشكر الرفاق الشيوعيين العراقيين على دعوتهم
وضيافتهم الكريمة، راجياً أن نستطيع خوض غمار تجربة
معرفية، نستطيع بها التعرف على مشاكل العراق، وبرامج
الرفاق وطرحهم للحلول المناسبة للخروج من الأزمات

رفاقي الأعزاء، يجب وفي المقدمة أن ندرك قبل أي شيء
آخر، وبشكل ناجز، إن ما سوف أطرحه عليكم لا علاقة له
بالماركسية الكلاسيكية، حيث كنت والرفيق فردريك انجلز
عهد ذاك، نرى أن التاريخ مجال مكشوف أمامنا بالكامل،
ومهيأ أن نتناوله بما نرغب أو نعتقد، وكنا نتصور امتلاكنا

القدرة على استحواذ الماضي والحاضر ومن ثم المستقبل. وحددنا خطوط التطور حصراً بالصراع الطبقي، وتفسير هذا الصراع وصياغة شروطه وتفكيكها، يقع على عاتق الطبقة العاملة دون غيرها.

رفاقي الطيبون، صحيح أن الكثير مما حدث في العالم من تغيرات كان ثمرة تأثير الماركسية الكلاسيكية، وبالذات جانب التحليل العلمي للمسيرة الإنسانية. واستمرت البشرية تنظر للماركسية الكلاسيكية، على أنها منهج للتحليل، ورؤية فلسفية للتاريخ والمادة، وفي الوقت ذاته حركة سياسية تحررية. وكان يحدونا، أنا والرفيق فردريك، من خلال بحثنا المتجرد والمتأمل والمفعم بالأمل، أن تعم مفاهيمنا العالم وبالذات الثورية منها، وأن تنهار قوى الرأسمالية أمام بياننا الشيوعي، وتكون استنباطاتنا وتحليلاتنا الفلسفية الفكرية والمادية، منهجا لثورة عارمة للطبقة العاملة، التي سوف تتوحد قواها العالمية وتجعل مهمة التغيير سهلة المنال.

ولكن أيها الرفاق. وبعد تاريخ طويل، وبناء متهافت لاشتراكيات متنوعة وأطروحات دخيلة ألصقت بماركسيتنا وبما طرحناه، واختيرت تعاميم وأطر ومناهج لتفسير ما قدمناه، واستعملت نظريتنا بإفراط منفلت، وبدت الغشاوة تحيط بأصل الفكرة وجوهرها. وكان هناك أيضاً، وهذا مهم، ويجب أن يتوضح لجميع من يؤمن بالطرق العملية والمناهج السلمية في الوصول إلى ما يصبو الجميع إليه. فقد ظهرت أبحاث كانت قد خرجت من رحاب الماركسية، أو الأخرى جرت

وطوعت الماركسية نحو حقول حضارية متنوعة، خلطت نظريتنا بالحاجات الآنية للشعوب، وبالذات الخصوصيات الوطنية وقضايا قبل وبعد حروب التحرير ثم الاستقلال، واقتصاديات التنمية وعلم السياسة الحديث، والعلاقات الدولية، ولذا تغيرت أساليب النضال وتنوعت طرق تفكيك المراحل في التاريخ البشري، الساعي لصناعة الحضارة والمعرفة واليقين بأهمية السلم والرفاه الاجتماعي. وعند هذه التغيرات، وقبل كل شيء، أود أن أعرج معكم على مفصل مهم، أحدث قفزة كبيرة غيرت طبيعة ووجهة الاشتراكية ومبتغاها، هذا الخرق الكبير الذي أدار العجلة دورة كاملة، غيرت الكثير من المفاهيم والمعارف عن دكتاتورية البروليتاريا، والعلاقة مع الطبقة البرجوازية ورأس المال، وطبيعة الصراع الطبقي، وكيفية وضرورة ومراحل تصعيده، والتي كنا نرى من الواجب استمرارها، بتطوير وتغذية واستعمار جذوة ذلك النضال. الخرق الذي أتحدث عنه اليوم، كان بداية لزعة قناعات الكثيرين، للحفاظ على حقول الماركسية. لا بل إن اطر فلسفية ونظرية، في السياق العام لحياة الشعوب، قد انهارت معها متاريس وسدود. هذا الخرق أو لنسمه على حقيقته بالصدمة أو التفكيك، وسمي لاحقا بالصلح التاريخي، حين عقد هذا الصلح بين نقابات العمال وأصحاب رؤوس الأموال، وكان هذا الصلح كافيا، لدفعنا جميعا لإعادة التفحص من جديد في أسس النظرية، وأن نقف عندها، ونوسمها بكونها كانت في تاريخ محدد، تشكل وعي البناء النظري الفلسفي للعالم، ولبت الكثير من الطموح لتفسير علمي للمادة والتاريخ، ولكن اليوم فأن

الكثير من الحاجات الإنسانية، من المحال أن تقف عند تخوم النظرية الماركسية الكلاسيكية، بقدر ما باتت تستطيع الابتعاد عنها.

تلك اللحظة التفت رفيق قيس نحو الرفيق سامر، الذي يجلس جواره في الصف الثاني من مجموعة المقاعد، ومال بجسده الضخم ليقرب فمه من أذنه وهمس بعصبية.

- لك داد رفيق سامر.. دتسمع هذا شديكول.

كان سامر يعبث بجهاز الهاتف النقال وكأنه يكتب رسالة، فأجاب هامساً.

- لا والله رفيق الجمل الأخيرة ما انتبهت عليه... داد هاي الفختاية خبلتني.. ملختني تملخ.. من ساعة رحنا لساحة عباس بن فرناس لمقابلة ماركس ولحد هسة اتذر رسائل وما تلحگ.

- شترید؟

- هاي مو شافتني قبل چم يوم أسوق بسيارة الرفيق جبار تخبلت، حسبالها السيارة مالتی.. تلح تعال نتزوج، ألحگ تره أجو عليه خطابه.. بنت المشعول متدري أني يومية أنام بدون عشه، وگوه أدبر كروه حته أروح للكلية، وچماله متزوج وحده غضب مال الله.

- يعني إنته ما سمعت شگال الرفيق كارل ماركس.

- مو كل السوالف... يابه مو أكثرهن سامعيهن من غيره وقارينه بكتبه.. قابل عنده شي جديد.

- عيني رفيق أنتم متأكدين أنو هذا هو كارل ماركس نفسه.
- هاي شنو رفيق بدت رحمة الله، هاي شببك مكبسل؟!
سؤال غريب متشوف الكفشه مالتة والحية.. هو ماركس بدمه
ولحمة.

- زين أنته أنتبهت شغال؟

- مو گتلك مو كلشي سمعته... دحجي شنو شغال؟

- لك داد شي ما معقول.. إتخلى عن الماركسية الكلاسيكية
وطعن بيها.

وكانه لدغ من عقرب، صاح الرفيق سامر بأعلى صوته،
وكان يضغط بقوة على مقابض الكرسي.

- لا.. ما ممكن.. مو بكيفه.

سكت كارل ماركس وتطلع ناحية الصوت، وراى صمت
عميق على القاعة. كانت أصوات سيارات إسعاف تأتي من
بعيد وهي تخترق الشوارع بسرعتها الجنونية. التفت بعض
الرفاق صوب الرفيق سامر، وبادره الرفيق جبار بالسؤال.

- هاي شببك سامر شنو خلاك تصرخ بهشكل؟

فجأة وقف الرفيق سامر وقد شحب وجهه، وأخذت شفاته
ترتعثان، ويداه تدوران في الهواء، وهو يوجه كلامه نحو
كارل ماركس.

- الرفيق العزيز كارل ماركس، أعتقد أن عليك وفي هذا
الأمر، أن تقف عند حدودك وتعتذر، الماركسية الكلاسيكية هي

منهجنا وطريق حياتنا، وليس من حقا أن تنتكر لها وتتجاوز عليها... لن نسمح لك بذلك.

ضجت القاعة باللغط والهذر، وكأن الرفاق كانوا على موعد مع خلاف مبيت، يظهر أنه لن ينتهي بسلام، فقد أنشطر الجمع بين مؤيد ومستنكر، ولم يستطع الرفيق جبار السيطرة على الموقف، لذا طلب من الرفيق كارل ماركس الذهاب إلى غرفته عسى أن يستطيع هو وضع حل لهذا الإشكال الذي أثاره الرفيق سامر. لم يرغب ماركس بالمغادرة وبادر بالحديث رغم اختلاط صوته بالضجيج الذي يقوم به بعض الرفاق.

- رفاقي الأعزاء، رفاقي الأعزاء.. أعتقد أن هناك اجتزاء أو سوء فهم حدث عند الرفيق، في الغاية أو التوصيف والمدخل الذي أردت أن أبدا فيه لقاءنا. وكان الأفضل الانتظار لما بعد أكمال حديثي ثم البدء بطرح الأسئلة والنقاش.

- يانقاش رفيق، إنته خليت طريق مفتوح حتى نتوافق مع ما صرحت بيه.. رفيق هاي رده وتحريف واحنه ما مستعدين نسمع مثل هذا.

كان حديث سامر حاسماً وكانت الكلمات تخرج من فمه وكأنها أحجار تتساقط فوق رؤوس الحضور، لذا بدء الضجيج والأصوات تتعالى، ثم أخذ البعض بالتسرب من الجلسة والذهاب للخروج من القاعة.

- ما الذي تعرفه عن الماركسية أيها الرفيق العزيز؟

بادر ماركس بتوجيه السؤال إلى سامر، وكانت عيناه قد

ظهر عليهما الاحتقان وأخذت أصابعه تنقر بحدة فوق المنضدة.
كان سامر قد استدار بقامته الفارعة ورأسه العكش جانبا،
وراح في نقاش حاد مع رفيقه الآخر الجالس على الكرسي
المجاور، ولكنه تنبه لصوت كارل ماركس، فألتفت إليه وطلب
منه إعادة السؤال، فهب الرفيق جبار من مكانه وصرخ بأعلى
صوته.

- رفيق سامر أنت تريد إثارة المشاكل مو غير شي، ولو
جنت مهتم للأمر چان انتبهت لسؤال الرفيق ماركس.

- أنه تره منتبه رفيق، بس بنفس الوقت رفيق عيسى وجه
لي نقد غير مبرر، وردت أشرحه وأوضحله بعض ما خفي
عليه. رفيق كارل ممكن تعيد سؤالك.

أعاد كارل ماركس طرح سؤاله عن ما يفهمه سامر في
الماركسية.

- رفيق.. منذ الصغر وأنا أقره الكتب الماركسية، كتابك نقد
مذهب هيغل في الدولة إلى بؤس الفلسفة والبيان الشيوعي
ورأس المال والعمل المأجور حتى العائلة المقدسة وغيرها من
الكتب. وچنه دائما نحاول من خلالها تماثل وضعنا في العراق
وقدرة ما طرحته والرفيق أنجلز على تحليل الواقع العراقي
بمختلف تجلياته.

- وهل وجدت في كل تلك الكتب ما يوصلك إلى نتائج
حاسمة؟.

- بعض الشي، ومو كلشي..

- حسنا وهل استمعت لحديثي اليوم وفهمت الغاية منه؟.
- الحقيقة رفيق ما جئت أستمع للحديث، لأن جئت مشغول بأمر عائلي على الهاتف، الرفيق قيس شرحلي كل شيء.
- نهض رفيق جبار من مكانه وصرخ بوجه الرفيق سامر بصوت جهوري واضح.
- رفيق سامر هذا حجي لو اتخربط، مشغول، وما سمعت، ورفيق قيس شرحلي.. شنو أحنه زعاطيط.. شنو هذا التخربط.
- رفيق لتغلط.. تره أتحمלתك صار سنتين.. أشو هوايه شايف نفسك.. تره أنا عمري ما أعترف بتسلسل حزبي وما يهمني أنته منو، وما تگدر تفرض عليه أوامرك، وهذا رفيقكم الجايبي من الغرب.. تره مو كارل ماركس.. هذا تحريفي، وغالب عكرف لوي على الماركسية، وراح نراويه إحنه مو غيرنه شنو الماركسية.
- وبعصبية رد عليه رفيق جبار وكان يؤشر له بسبابة يده وكأنه يوجه تقریعا لأحد تلامذته.
- بعد ما إلك مكان بهذا الفندق بعد هذا اليوم، وما تگدر تبات بعد إهنا، حتى لو طلگتک أم عشتار بالثلاث. شنو إنته رب مشاكل ولغاوي.
- خرج سامر مسرعا من القاعة والتحق به كل من الرفيق قيس والرفيقة ساهرة والرفيق شاکر والرفيق غني، وعند خروجهم كانوا جميعا يوجهون نظرات حادة نحو الرفيق كارل ماركس والرفيق جبار.

لم يدع الرفيق جبار هذا الأمر يمر دون أن يبادر لتهدة الأجراء، فطلب من الرفاق الباقين، الانتقال إلى قاعة الطعام لتناول الشاي و العصائر، ثم وجه كلامه إلى كارل ماركس الذي كان بدوره يقلب الأوراق التي أمامه محاولاً أن يبعد عن ذهنه هذه اللحظات التي مرت وتمر بتثاقل، دون أن يستطيع حل الإشكال، بنقاش مثمر يخرج الموضوع بما يتوافق مع منهجه في نقد الحالة والكشف عن المستجدات في الفلسفة أو الاقتصاد السياسي، وظروف ومستجدات الصراع الطبقي وحتى التغيرات في العلوم والمادة. لحظتها سمع الرفيق جبار يوجه له الكلام وابتسامة شاحبة تعطي شفتيه.

- رفيق ماركس لا تهتم فالمراقبة السياسية دائماً ما تواجهها جميع الأحزاب والتنظيمات، وهي واحدة من المعوقات، لا بل المؤذيات في العمل. غدا سوف نسافر إلى مدينة الناصرية، فهناك لدينا رفاق رائعين، وقد نسقت معهم حول هذه الزيارة قبل قدومك إلينا.

ليلة الفرع الكبير

طيلة الليل لم تغمض لماركس عين، بقي مسهدا يفكر بنظرات الغضب والتهديد التي توعد به سامر. ما كان يعنيه قوله، راح نراويه أحنه مو غيرنه شنو الماركسية.

كان مجمل ما حدث يلح في خاطر كارل ماركس، وفكر لو أنه استطاع تصحيح الأمر مع الرفيق سامر، من خلال وسيلة تقنعه باستمرار الحوار، لما حصل ذلك الانشقاق أو سوء الفهم. وأيضا كان للرفيق جبار دورٌ غير مفيد على الإطلاق، لا بل كان مفرطاً بالعجالة، وهو يقرع سامر ويوجه له اللوم. فكر أن ثمة مواقف، ممكن أن يكون التهاور فيها الحل الأمثل لحسمها أو جسر الخلاف.

أراد الاستحمام لأجل كسب بعض راحة، فربما ينعشه الماء ويهدأ خاطره بعض الشيء، بعد أن شعر بأن الليل تجاوز منتصفه. ولكن حنفية الماء كانت تصدر صفيرا خافتا، دون أن يخرج عنها ماء. بحث في الغرفة عن مصادر للضوء، علبة ثقاب، أو شمعة أو قداحة، فلم يجد لهذه الأشياء أثرا، فالظلام كان دامسا، ولذا كان يتلمس الأشياء والجدران في مشيته.

هبط السلم، يلاصق جداره، محاذرا السقوط. كان يضع أقدامه فوق درجات السلم واحدة إثر أخرى بحذر وبطء. يتلمس أرض السلم ثم يضغط، كل ذلك بسبب الظلام الذي غطى

غرف الفندق وممراته. بعد عدد غير قليل من درجات ودورات السلم، وجد نفسه أمام منضدة الاستعلامات. كان يصدر من خلفها صوت شخير قوي. طرق بأصابعه طرقاً خفيفاً فوق سطح الصندوق الخشبي، فتوقف الشخير للحظة ثم عاود مرة أخرى، فعاود ماركس بدوره النقر بأصابعه، فتوقف الشخير لبضع ثوان ثم تصاعد مرة أخرى. استهوت اللعبة كارل ماركس، فكررها لعدة مرات، بعد أن شعر بقدرتها على إبعاد الضجر والكآبة التي تملأ قلبه، ولعلها لعبة تضرع عنده بعضاً من الشعور الكاسح بالوحدة، الذي لم يفارقه منذ مساء البارحة، وجعل النوم يجافيه. طق طق طق ثم يتوقف الشخير.. طق طق وهكذا استمر يمارس لعبته مع الشخير، دون أن يرى مصدره. ضحك مع نفسه وفكر لو أنه صاح على صاحب الصوت وأنهى اللعبة، عله يجد لديه حلاً للظلمة أو انقطاع الماء، وربما جلس معه يتبادلان الحديث. بعد مضي ما يقارب العشر دقائق، هوى ماركس بقبضة يده وبكل ما أوتي من قوة فوق منضدة الاستعلامات. عند تلك اللحظة هب أحد ما من خلف الصندوق وهو يصرخ :

- الله وأكبر.. الله أكبر.. بويه لحگولي أنكتلت.. بويه شمخي بويه جويسم ألحگولي... الله واكبر.. لخاطر الحسين شترید اخذ بس لا تكتلني.. ارواح فدوة لاترميني.. لا ترمي عليك أبو الحسنين.. تره صاحب جهال فدوه لا ترمي. ألحگولي يبالله عليكم راح أموت.. بويه شمخيبيي.

تشنج جسد ماركس، وأخذ يتشبث بزاوية منضدة

الاستعلامات. فجأة خرجت من الممر الخلفي، حزمة أنوار لمصابيح كاشفة، وجهت أنوارها نحو المنضدة. أضيء المكان، بعد أن جاء ضوء ساطع لمصباح يدوي كبير، من الباب الداخلي المجاور لطاولة الاستقبال، فكشف عن المكان بجميع محتوياته. كانت هناك منضدة الاستعلامات، يقف كارل ماركس جوارها، بلحيته وشعره المنفوش، وكان يمسك بقوة أحد طرفيها، وينظر نحو الأرض القريبة من قدميه. جوار المنضدة، تمدد جسد رجل في الستينات من عمره، يرتدي دشداشة بيضاء كالحة، وكوفية مرقطة تلفت حول رقبته، ينسحب بجسده الضامر الطويل على الأرض، ضاغطاً بيديه على رأسه ويصدر عنه شخير مسموع.

- يمعود أبو شمخي كلشي ماكو.. هذا خطر رفيقنا جبار..
أبو شمخي هذا مو حرامي.. أبو شمخي گول غيرها خويه...
ما تصحه.. ياوسفه.. إي والله يا وسفه على الزلم.. أبو شمخي.
لم يحرك أبو شمخي ساكنا وبقي مسمرأ ممدداً، دون أن تنم عنه حركة أو يصدر عنه صوت سوى شخير خفيف.

- يمعودين دخیل الله شویه ماي.. صاح أحدهم

تناول الرجل الجالس جوار أبو شمخي قنينة الماء، وسكب بعضاً منها بيده، ثم مسح به وجه أبو شمخي، كرر العملية عدة مرات فوق الرأس وعند الرقبة وعلى الوجه، فلم تنم عن أبو شمخي حركة تعطي الانطباع بصحته، أستمروا الوضع لأكثر من ربع ساعة، دون حركة من أبو شمخي، عندها قرر الرجل المسعف، وطلب بصوت عالٍ من الموجودين، استدعاء سيارة

إسعاف لنقل أبو شمخي إلى المستشفى.

- يعمود تره أولا منع تجول، بعدين كلمن يگلك سايق
إسعاف يطلع بهيچ وگت گله جذاب.
- إي هسه أنحاول.

- شتحاول... أكو سايق إسعاف شارب نبط بهذا الليل..
الجيش لو الشرطة من خوفهم راح يشبعونه كتل.. وليفش أكو
واحد بشعبة الإسعاف راح يسمعلك لو يرد عليك... خوش
عليك إسعاف..

- خوش لعد خابرو رفيق جبار..

- إي خوش فكره.

- إي والله ما يحلها غير رفيق جبار.

كان كارل ماركس مسمرا مكانه، يرقب الوضع ويشعر بقوة
هائلة لتأنيب الضمير تكتسح كيانه، فربما تسبب بموت هذا
الرجل في هذه الليلة المنحوسة، وهذا ما لا يغتفر عنده. وراح
يزجر نفسه ويؤنبها، كيف سمح لنفسه بهذا الفعل الهازل، لم
يكن الوضع يحتمل مثل هذا المزاح الثقيل مع رجل كبير السن.
كان يطالع الوجوه التي يعترى بعضها الاصفرار ويغطي
عيونها النعاس، وهي تجد نفسها مجبرة تنتظر نتائج الحدث.
كان البعض منهم لا يبعد عينيّه عن ماركس، وكأنهم يوجهون
له نظرات لوم وتقريع، شعر ماركس معها بقوة ضغط تكتسح
كيانه وتدفعه للغثيان.

- ألو رفيق جبار.. أسف رفيق أسف گعدتك من النوم..

رفيق عدنه مشكله.. رفيق ما تتحمل للصبح.. رفيق والله أبو شمخي.. رفيق ما يتحمل للصبح...الخاطر الله رفيق.. بغيوبه مدى يصحه... شلون إذا مات... إي مو توگع براس خطارك أبو لحية وكفشة، إذا مات أبو شمخي.. رفيق.. يمعود رفيق..

- سده للتلفون.. يگول نيموه بغرفة من غرف الفندق للصبح وبعدهه خابرو إسعاف.

تقدم ماركس من جسد أبو شمخي وأخذ يده اليسرى وراح يفرك الكف المتيبسة ثم مسد بشيء من قوة على جبين أبو شمخي وصدغيه، ووضع قطرات خفيفة من الماء فوق شفتيه، فندت عنه تنهيدة قوية ثم شجرة ثم حسرة بعدها فتح عينيه وأغلقهما ثم فتحهما ثم صاح بصوت خافت متقطع

- بويه شمخي، بويه جويسم وينكم..

عندها ضجت القاعة بالتكبير وردد الجميع بصوت واحد..

علي وياك علي... علي وياك علي.. علي وياك علي.. ثم صاح أحدهم بصوت جهوري شق به عنان سماء القاعة :

ها خوتي ها

النجم يفگد نشعته لو يغيب سهيل

ولو غاب الگمر موحش يصير الليل

وفگد الزين أبو شمخي مو هين يهد الحيل

ها وفگدك... ها وفگدك

حز بينا.. وهاي الماتتسوه

وأخذ الجمع بترديد (وهاي المانتسوة وفگدك حز بينا وهاي المانتسوة) والدوران والردح قرب جسد أبو شمخي الممدد، وكانت أنوار المصابيح اليدوية تلتمع وتومض في سقف القاعة، مع هرولة ودوران الرجال. حاول كارل ماركس إسناد جسد أبو شمخي في محاولة لمساعدته على النهوض من رقده، فدفع أبو شمخي يد كارل ماركس، ونهض دون مساعدته، وكان ينظر لماركس شزرا، فتأثر ماركس كثيرا من هذا الإعراض والغضب، فقدم اعتذاره لأبي شمخي وأمسك يده شاداً عليها. ولكن أبو شمخي كان في حالة من الكدر والبغض، لا يحتمل معها النظر في وجه ماركس أو تقبل اعتذاره، لذا سحب يده بحدة ظاهرة زادت من شعور ماركس بالذنب.

طالع ماركس جوقة الرجال وهم في مرحهم وضحكهم، وكأنهم يعوضون عن زمن طويل من حزن يلف أجسادهم وأرواحهم، والساعة الآن تضيؤها المصابيح اليدوية فتجد الوجوه المتعبة فرصتها، لسرقة فرح طفولي لم يكن ليخطر على بال، فرح بعد خوف وحزن ينبثق من وسط الظلمة، هكذا هي ساعات يومهم، تمضي بين جنونين وكل شيء لا يقبل أن يكون طبيعياً.

هدأ الرجال وتفرقوا، وعاد أبو شمخي إلى مكانه خلف منضدة الاستعلامات، ولم يعد يظهر من جسده سوى رأسه المدور الصغير المتلفع بكوفيته، وكان قد وضع أمامه شمعة صغيرة بدأ ضوءها المرتج ينير وجهه الأسمر، وتظهر على جبينه تقطيبه عبوسه. حاول كارل ماركس التقرب من المنضدة

واستدراج أبو شمخي للحديث، لتسبح له فرصة تجديد اعتذاره، ولكن لم تكن محاولته لتجدي نفعا مع أبو شمخي، فاستدار ماركس وذهب نحو قاعة الانتظار، حيث انتبذ ركنا قصيا، وراح يحدق في الظلام الذي لف الشارع خلف زجاج النافذة المغبر.

* * *

- رفيق.. رفيق ماركس.. هاي شنو أشو رايح بسابع نومه..
وليش مو بغرفتك.

أستيقظ كارل ماركس على صوت رفيق جبار وهددة يده. فتح عينيه وجال بهما المكان، وتذكر ليلة البارحة المشؤومة فتوقف عند وجه أبو شمخي، الذي كان يمسح سطح منضدة الاستعلامات بقطعة قماش دون أن يرفع عينيه. جلس الرفيق جبار جوار ماركس، وراحا بحديث يبدو هازلاً. كان ماركس يشرح لجبار بشيء من الأريحية الظاهرة ما حدث ليلة البارحة، لذا كان الرفيق جبار يطلق بين فينة وأخرى ضحكة مجلجلة تجبر أبو شمخي على النظر نحوهم وعلامات الغضب بادية عليه، ثم يعود لقطعة القماش يضغط عليها بقوة ويمررها بعصبية فوق سطح المنضدة الخشبي، ومع تكرار ضحكات الرفيق جبار لم يعد أبو شمخي يحتمل الأمر فقال بصوت قوي وواضح.

- إبنني جبار وروحه الأبيك.. لوما انتو توگف بعيني ذيج الساعة، چان أنه خاش بخطيته، وراصه بوحدو حاره رص بين

عيونه، وحده مو أكثر من أم الثلاثين.

- أفه عليك أبو شمخي.. غير تنكلب عليه الدنيا، الأحزاب الشيوعية وتفرعاتها ومنظمات المجتمع المدني ونقابات العمال، الأمميات بجميع فروعها، حتى تنظيمات حرب العصابات في بوركينا فاسو وسوك الشيوخ وخليج عدن وملاوي وكمبوديا والنمور الحمر والصفرة والصقر الجارح والهواء البارح.

- رفيق جبار هم دخلته بزواغير ما أدري شني ما شني.. خلف الله عليك.. چان البارحة أتيتمو العيال على أيد صاحبك، وأنت هسه تضحك وياه هذا الكافر أبو كفشه.

الخروج نحو الجنوب

أستغرق طريق الخروج من العاصمة بغداد ما يقارب الساعة والنصف، لشدة الزحام في الشوارع، وإغلاق بعضها، إثر انفجارات دوت أصواتها وترافقت مع أذان الفجر. الهواء مترب خارج السيارة، ومدى الرؤية جراء الغبار، لا يتجاوز العشرة أمتار. جهاز التكييف في سيارة اللازكس، يبعث بصمت هواء منعشاً، وثمة رائحة عطر نسائي تنساب مع الهواء البارد، لتبعث في النفس شيئاً من البهجة والراحة. راح الرفيق جبار يعبث بمفتاح المذياع دون التوقف عند محطة بعينها. أنتبه كارل ماركس لهذا الأمر فبادر بالسؤال.

- هل هناك أخبار مهمة تبحث عنها؟

- نعم رفيق.. كل شي بالعراق مهم، كل يوم أكو مئات الأخبار الجديدة، أكثرها يبعث الأسى والحزن، وبعض آخر بيه اشويه أمل.. ولكن الخوف والألم هما سيدا الموقف.

اقتربت فتاة صغيرة رثة الثياب متسخة الوجه، من زجاج النافذة القريبة من كارل ماركس، ولوحت له بعلبة مناديل ورقية. كان وجهها الطفولي الكسير وأصابعها الصغيرة المتسخة، يرسلان له إشارة استعطاف وتوسل، طالبة منه فتح

زجاج النافذة لابتياح بضاعتها، ألحت بذلك، وكانت تسير مع حركة سير السيارة البطيء. نظر ماركس إلى وجهها الطفولي، فأعتمر قلبه الألم، وراح يعبث بجيب بنطاله محاولاً أخراج النقود. حاول فتح النافذة، ولكنه وجد الرفيق جبار يميل بجسده ويمسك بيده راجياً منه عدم فتح النافذة.

- رفيق من تفتح النافذة راح يدخل الغبار، ويترس حوض السيارة، ويتلف لنا الجو والمقاعد.. هذي وغيرها الآلاف، راح تشوفهم بكل مكان، وإذا ردت تشتري بضاعتهم، فتحتاج إلى خزينة دولة لتسد أثمانها. دعها لي ولا تشغل بالك بها.

- ولكن هذه طفلة، والفقر يدفعها للمجازفة بحياتها بين عجلات السيارات، وكان على أهلها الاعتناء بها، وعليها أن تكون في المدرسة الآن.

- أعرف وهناك مثلها الآلاف.. صرنا بفضل السياسين إلي يحكمونا ثالث بلد في العالم بنسب الفقر والفقراء.. رفيق خليفه من ذلك الآن.. هل تعرف إلى أين نتوجه.

- أخبرتني البارحة بأننا سوف نساfer إلى مدينة الناصرية.

- أولاً عندي أقارب بمدينة النجف، نزورهم ونتناول الغداء عدهم، ثم نكمل طريقنا لمدينة الناصرية. بالمناسبة يعجبك تزور الزقورة وأثار سومر، ومقام النبي إبراهيم.

- أود ذلك ولكن دع هذه ومقام إبراهيم لفرصة أخرى.

راحت السيارة تلهب الأرض، متجهة صوب مدينة النجف، ومنظر بساتين النخيل على جانبي الشارع، يبدو الطريق معها

مثل غابة لا نهاية لها، ولكن منظر غابات النخيل لن يستمر طويلاً، فتظهر أراضٍ قاحلة جرداء مهملة، وأنهر وسواق جافة، وهياكل بيوت خربة، وأكوخ طينية تجاور بنايات لمؤسسات، تبدو من هيكلها، أنها سبق وكانت شركات أو مصانع أو دوائر حكومية.

كلما اقتربت السيارة من المدن، كانت الشوارع خارجها مكتظة بالبشر السائرة على الأقدام. بشر كثير يحملون رايات وأعلاماً ملونة، بعضها طبعت عليه صور لشخصيات. الناس كانوا، صغاراً وكباراً، يغذون السير، البعض منهم حفاة، والنساء تتلفع بعباءاتها السوداء، وأقدامها تلهب الأرض. الجميع يسرع في المسير، وسط هذا الفضاء المغبر، ودرجات الحرارة غير المعقولة. تساءل كارل ماركس عن هذه الحشود، وهي تسير تحت لهب الشمس الحارقة، وإلى أي غاية يتوجهون. كان ينظر إلى جهتي الشارع بالتناوب ويود الحصول على إجابة، تقمع فضوله الذي تصاعد مع منظر الناس وكثرتهم.

- رفيق جبار ما هؤلاء الناس وإلى أين هم ذاهبون؟.

- هذه يارفيقي العزيز، شعيرة من شعائر الطائفة الشيعية.. أنت لديك معلومة عن الطائفة الشيعية أليس كذلك؟

- نعم.. نعم.

- هؤلاء يذهبون مشياً على الأقدام، للوصول إلى مدينة كربلاء، حيث قبر الحسين ابن علي، الذي قتل في واقعة سميت

بواقعة الطف، والحسين أحد الأئمة من أبناء بنت نبيهم محمد، وهذي الحشود تتوجه مشيا على الأقدام نحو قبره تبركاً، وبنفس الوكت اعتقاداً، بواجب الوصول إليه ونصرته، وأيضاً يظنون، أنهم يفعلون هذا تكفيراً عن مشاعر ذنب يحملونها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل، وبالذات الفقراء منهم، أما أغنيائهم ومشايخهم، فهم أسياد الموقف، وهم المنتفع الأول من كل تلك المشاعر والشعائر، ويوظفونها لكسب الأرباح المادية والمعنوية.

- هذا ما قلناه في الكثير من مجالات بحوثنا وكتابتنا، وما يفعله المنتفعون من الدين بتخدير البشر بنصوصه لتطويعهم وإفقارهم..

- رفيق ماركس أعتقد أنك والعزيز فردريك أنجلز بحاجة لأكثر من سنة، تجون تعيشون بالمدن المقدسة، إذا كان في العراق أو إيران وهمين بالسعودية وبلدان الإسلام الأخرى، لتخرجاً بحصيلة غنية عن الشاطي باطي الذي يملخ هذه الشعوب.

- رفيق ما هذا الشاطي باطي.. أفصح لي عنه!.

- الشاطي باطي رفيق لن ينفع معه حديث ساعة، ونحن في طريق سفر.. الشاطي باطي.. رفيق هو سبب كلشي وكلاشي صار ويصير بينه.. طراغيع مال الله وأعباده.

- رفيق جبار ليس الوقت وقت مزاح، أو أحجيات وحزورات وتوريات.. حدثني أولاً عن الشاطي باطي ثم بعدها، هذه كلمة طراغيع ماذا تعني أيضاً.. عزيزي جبار ربما

تكون هذه معلومة جديدة، أستطيع تضمينها كتابي الذي سوف يصدر عن الهوية القومية للدين.

تلك اللحظة ظهرت في الأفق القريب نقطة سيطرة عسكرية، فخفض جبار السرعة وقال لماركس إن عليّة أن لا يحدث أحدا من العساكر في نقطة التفتيش، وترك الأمر له، وهو من يتكفل بكل شيء، فوافق الرفيق كارل ماركس، دون تمحيص أو اعتراض أو حتى الاستفسار عن الأسباب.

- رفيق ماركس عدك ورقة نقود بعشرين دولار؟ أنا ما عدي بس نقود عراقية.

- نعم رفيق جبار يوجد عندي.

- رفيق خلي بيدك ورقة العشرين دولار، وحاول أن تطويها وتعرضها وأنت قلبها بين أصابعك، على أن تبين قيمتها جيدا.

- ولماذا أفعل هذا؟

- هسه مو وگت أسئلة، وعليك أن تسوي ما أقوله، حته نتجاوز هذي السيطرة وأسئلتهم واستفساراتهم، حتى لا يوكفونه لساعات بحجة وجودك ويأيه كأجنبي، وسبب سفرك باتجاه الجنوب، وما الغرض منه، وإلى أي منطقة، ومن تعرف هناك، ومتى تعود، ولديهم هناك جوگه من الأسئلة لا طائل لها، وفي النهاية سوف يقبلون بما نمحه لهم، ويفرجون عنا، أما المحاولة التي أطلبها منك، فأنها تختصر كل ذلك.. أعرفت ذلك رفيقي العزيز.

- كلا.. سوف أحاول معرفته لاحقا، وعليك بعد عبورنا

شرح ما تفضلت به الآن.

- أوكي رفيق.. سوف تتعرف على ذلك دون شرح مني.

توقفت السيارة جوار نقطة التفتيش، تقدم رجل ببزة عسكرية
مجعدة، طويل القامة حاسر الرأس، يحمل فوق كتفه بندقية
مزدوجة. جاور السيارة عن قرب، ثم سار أمامها حتى نهايتها.
كان يمسك بيده اليمنى جهاز الكشف الأسود، بمجسه النحاسي
المدبب، ثم عاد وتوقف جوار نافذة الرفيق جبار.

- وين رايعين؟

- للنجف.

- عدكم ممنوعات؟.

- هاي شنو.. أحنه شكول ممنوعات الله يحفظك.

- سلاح لو قناني عطر.

- قناني عطر نعم بس سلاح لا.. محتاجه بوجودكم الله
يحفظكم.

جلبت حركة يد ماركس مع ورقة النقود انتباه العسكري،
فقرب جسده من النافذة، وأدخل جزء من رأسه، ليمعن النظر
جيذا، بما كان ماركس يضعه بين أصابعه.

- الأخ من الكاكية يضربون درباشه؟.

- لا هذا صديق من السادة آل مسيعيده، يومهم كله مخلصينه
بالصلاة والصوم.

- أها خوش وهاي شنو بيده؟
- هاي ورقة دولارات.
- أي أعرفها بس چم دولار؟
- عشرين دولار وبس هاي عنده، وطول الطريق يلعب بيه..مصدگ.
- أخاف مزورة؟
- بعدنه ما وصلنه للنجف حتى نزوره بالحضرة.
- ههها ههها.. كون أگدر أشوفه..خاف مزورة.
- مد جبار يده وسحب ورقة العشرين دولار من بين أصابع كارل ماركس ودسها بيد العسكري، الذي بدوره أسرع وأخفاها في جيب بنطاله قائلاً.
- عمي عساها أبختكم، وأبو الحسنين يأخذ حوبتي وحبوبة جهالي منكم، إذا طلعت مزورة.
- عزيزي أخذ رقم سيارتي، ومن تطلع الورقة مزورة تگدر أندور علينا، وشترید سوي بينه.
- الله وياكم طريق النجف على اليسره.. مودعين.
- اقتربت السيارة من مدخل مدينة النجف الشمالي، وتوقفت قرب حاجز سيطرة عسكرية كبير. فتشت السيارة بذات الجهاز الكشف الذي يشبه المسدس بمجسه المدبب، الذي بدأ يهتز مثل ذنب كلب. اقترب الجندي من النافذة، وطلب أوراق جبار والرفيق ماركس الثبوتية. شعر جبار بالخرج فأوراق ماركس

سوف تسبب لهما استفساراً وحواراً طويلاً وإشكالا لن يحل بسهولة، وخذ وهات لوقت طويل مع هؤلاء، وهذه السيطرة لا ينفع مع رجالها أي نوع من النقود، فهناك مفتش عام، يقف ليس بعيدا، يرقب ما يحدث بين الركاب وجنوده، وهناك كاميرات تراقب محيط ووسط السيطرة، وأيضا هناك دوريات تتعقبهم، فبوابة النجف تعني الكثير للحكومة المركزية، وأيضا لحكومتها المحلية، واختراقها يعني كارثة إنسانية بكل ما تعنيه الكلمة، وقطعاً للأرزاق وأضراراً بالغة بالسياحة والمناسبات الدينية، وهذا يسبب انخفاض عوائد وواردات مجلس المحافظة، وفوق كل هذا وذاك استخفافاً، بقدرة الحكومة على ضبط الأمن حتى في مناطق نفوذها.

- نقيب أبو زينب موجود؟

- إي موجود.. شنو تريد منه؟

- گرایبی اريد أسلم عليه..

- إي أطيني هوياتكم هسه، وبعدين أصيحاك نقيب أبو زينب.

- هسه قابل إحنه متهمين لو هاربين.. مو دا أگلك أبو زينب گرایبی. راح أطبك على صفحة وأنزل أحجي وياه.

- خوش عمي.. اذا أبو زينب گرایبك.. چا بويه أنه راح أندهر.. أتفضل أطبگ على صفحة وطفی.

أوقف جبار سيارته جانبا وترجل منها، تاركا الرفيق ماركس جالسا فيها، يرقب بعينين قلقتين ما يدور حوله. عاد

الرفيق جبار ومعه نقيب الشرطة أبو زينب، وكان الأخير أنيقاً ببذلة منشاة، حاسر الرأس وعلى كتفيه نجوم بيضاء مطرزة. كان مسرعاً نحو السيارة، فتح بابها وراح في ترحاب حار للرفيق ماركس.

- أهلاً بالرفيق العزيز.. أهلاً بكاشف مستقبل البشرية، أهلاً برب البنيوية والعقلانية والمادية والتاريخانية، يا أبو البروليتاريا الثورية وهاديتها لغدها الأفضل.

أصبح وجه كارل ماركس قرمزيّاً، وهو يستمع لهذا المديح غير المتوقع من أحد عساكر الشرطة العراقية وبرتبة نقيب. فتبادل والرفيق جبار النظرات، شعر عندها جبار بالحرّج الذي أصاب ماركس، فبادر وحسم الموضوع بتدخل لبق.

- رفيقنا العزيز ماركس، أقدم لك رفيقنا الطيب أبو زينب، سبق أن كان محباً للشيوعية على عهد الدكتاتورية، وكان برتبة عريف بالشرطة، أعتقل ثم طرد من وظيفته بتهمة الشيوعية، وبعد سقوط الفاشية البعثية، أعيد إلى الشرطة بعد الدمج وبرتبة ملازم ثان، واليوم هو نقيب، ويحسب على جماعتنا، وهو ثوري، تستطيع أن تضعه على يمينك عند الشدائد، مثلما يقول المثل، إي نغول عليه ثوري من الطراز الخاص.

أبتسم الرفيق كارل ماركس ابتسامة عريضة ومد يده نحو أبو زينب مصافحاً وقائلاً.

- أهلاً وسهلاً بالرفيق العزيز أبو زينب.

تهلل وجهه نقيب أبو زينب فرحاً وصرخ وهو يقفز جوار

نافذة الرفيق ماركس.

- الله أكبر اليوم أصبحت شيوعياً حقيقياً.. اليوم جابتنى أمي من جديد، أني صافحت أبو الشيوعية، أعترف هو بوجودي وإنسانيتي، بمصافحته شال عني جميع تهمة المغرضين والحاquدين. رفيق جبار ما أنسالك هذا الجميل، ما طول أني عايش، بارك الله وجدي أبو الحسنين هذه الساعة. الگاکم أبيت عمي أبو زامل بحي الزهراء اليوم العصر مو هيچ، لوما بعد ساعة عندي دورية تفتيش، چان أجيت وياكم أتبارك برفيقنا ماركس.

- رفيق أبو زينب تراه أحنه مراح نتأخر بالنجف، بس نزور عمي أبو زامل ونتغده عنده، ونشلع للناصرية ما أريد أوصل ليغاد بالليل.

- وسفه رفيق جبار مراح نلتقي بالرفيق.. مو خوش حسبه.
- بالرجعه راح أمر عليكم، وتسويلنه گعده مضبوطة، تراه عمك ماركس خلي على يمينك، دن ما ينترس عبه.

- يمعود بس تعالو.. بس تعالوا.. وفرحو روعي العذبتني تريدكم.. بس تعالو... لو أجيتو كل عزيز بعمرى أطشنه فدى لعيونكم... بس تعالوا.

كان أبو زينب فرحاً مثل طفل، لم يصدق بعد أنه التقى ماركس وصافح يده، فأصابته نشوة غريبة أفرغها حين راح يقبل الرفيق جبار ويضمه إلى صدره. ثم فتح له باب السيارة وقبله قبلة أخيره..

- رفيق جبار الله عليك تراه أنتظركم.

- أوعدك رفيق أبو زينب.

ارتفعت السيارة نحو الشارع الإسفلتي، بعد أن كانت مركونة عند الجانب الترابي، واستدار بها الرفيق جبار نحو الطريق الخارجي، متوجهاً نحو وسط المدينة، ثم حي الزهراء، حيث بيت العم أبو زامل. قال الرفيق جبار لرفيقه ماركس، بأنه سوف يخبر العم أبو زامل بأنك موفد من الأمم المتحدة كعالم أثار، وبدورك، عليك أن لا تطيل أو تعمق الحديث، حين يحاول أبو زامل إثارة أي نقاش معك، فأبو زامل من النوع الفضولي، وسوف يمطرك بأسئلة لا نهاية لها، وأن عرف من أي بلد قدمت، فسوف يستعرض قدراته ومعارفه عن العلاقة مع الانكليز والألمان، منذ مجيء فيصل الأول كملك على العراق حتى يومنا هذا.

استقبلهم العم أبو زامل والدهشة ظاهرة على قسماات وجهه المجعد. كان رجلاً ممشوق القوام، وجهه ميال إلى الحمرة رغم علائم الشيخوخة، ويبدو الوقار ظاهراً عليه. يرتدي العقال والكوفية المرقطة. يلتف على خصره حزام جلدي عريض يضغط على طرفي الزبون الحني البراق.

- هله عمي جبار شلون الأهل، شني هل غيبة، وعدتنه على العيد الفات أشو ماجيت؟

- والله عمي مشاغل، بس كون عله ثقة، أني ما ناسي موعدني، وأفكر دائماً أجي أشوفكم، واليوم أني چنت متوجه

للناصرية بشغل ضروري، بس لكيتة فرصة وگلت خلي
أشوف عمي أبو زامل.

- يا أهلا وسهلا ومرحبا ببيك وبصديقك. أم زامل خلي البنات
يفرشن بغرفة الخطار، اليوم جبار ابن أخويه ييات يمنه، أوياه
خطار.

- عمي والله أنه جيت بس أشوفكم وأروح.. مكلف بشغله
مهمة بالناصرية، ولأزم أوصله هذا الرجال، قبل ما يصير
المسا.

- هاي صايره دايره؟!!

- والعباس لوما شغلتي چان بتت يمكم، وصاحبى هذا لازم
يكون بالناصرية اليوم قبل باچر.

أقترب العم أبو زامل من الرفيق جبار وبصوت هامس
حدثه.

- أگلك بويه هذا منيلك.. أشو مو شكول عراقى، يصير من
غير ديرتنه؟

- لا عمى هذا مو عراقى، ويدگش بالحچى أدگش، وشويه
يفتهم بالعربى ويتكلم بس انكليزى.

- چا اشعه بالناصرية؟.

- مكلف من الأمم المتحدة يروح يشوف الآثار.

- ليش ما يگدر يروح باچر.. شنو متوازي يريد يلحك على
الملك أورنمو من يطلع من گبره؟

- عمي هذوله عندهم الشغل يعني شغل، مو بشكله تمسات.
- إي والله عمي صحيح، چا مو أنه جربتهم من أشتغلت
وياهم بشركة النفط.. أم زامل صبينه الغده الزلم ما ناويه تبقة
هواي.

جلس الجميع القرفصاء على سجادة غطت أرض الغرفة،
أبو زامل وثلاثة من أبنائه وجبار. لم يملك الرفيق ماركس
القدرة على تقليد جلستهم، فأثنى قدما ووضع الأخرى تحت
عجيزته. كانت أنظار أبناء أبو زامل تتجه نحو ماركس،
وراحوا يتبادلون الإشارات عن هيئته. أحدهم يغمض عينيه
ويسدل يده عند فكه مشيرا إلى لحية ماركس، والآخر يشير
بيديه لتهدل الشعر، ولم تهدأ تلك الحركات والإشارات لحين
صرخ بهم أبو زامل.

- شنو سالفتمكم.. شواذي..خوب مو شواذي.. ما تگعدون
راحة وتترقنبون مثل الزلم.

لم يأكل الرفيق ماركس غير الشيء اليسير جدا، وكان يجد
صعوبة حتى في ذلك. كان أبو زامل يدفع لماركس بقطع
صغيرة من السمك، ويضعها في صحن الطعام الذي أمامه.
كان ماركس يركز نظره نحو يد أبو زامل، وهي تعبت بجسد
السمكة وباقي صحن الطعام، ليقوم بتوزيع ما يريد على
الجميع، ثم يأخذ بمص أصابع كفه بصوت مسموع. أحس
ماركس بثقل يعتصر صدره، وشيء من الغثيان ووجع حاد في

معدته. شيء من رغبة تندفع من أسفل معدته إلى أعلى ثم ترتد، شعر برغبة في التقيؤ، فطلب من جبار أن يدلّه على المرافق الصحية، فأرشده جبار عليها. واجهته هناك مسألة عصية على الحل، فتوقف قرب الباب ناظراً إلى الفتحة التي تتوسط مستطيلاً مقعراً قليلاً. لم يفقه الرفيق ماركس كيف يمارس المرء الاستفراغ في مثل هذا الوضع، فشعر بفورة من شيء حامضي تصاعد نحو حنجرتّه، عندها دفع ماركس رأسه نحو الأمام، وأفرغ معدته من كل ما تناوله منذ الصباح حتى اللحظة.

الناصرية الوجهة الجديدة

حديث الطريق بين الرفيقين، وهما يتوجهان إلى محافظة الناصرية، تناول وضع مدينة النجف وقبابها الذهبية والسياحة فيها. وابتعد ماركس عن التطرق لما كان عليه حاله، أثناء وجبة الغداء في بيت أبو زامل. بدوره استطاب الرفيق جبار الحديث، فراح يستعرض براعته في شرح، ما يعرفه من معلومات عن مدينة النجف، تأريخها وحواريها وأزقتها وسكانها وقبائلها، ثم عرج، وبحديث مسهب، يستعرض حكاية الحكام الفعليين للمدينة اليوم، وكيف تدر السياحة الدينية مبالغ مهولة على خزينة المحافظة، وأيضا هناك أموال الزكاة وغيرها، لكن المدينة بقيت، حالها حال باقي المدن الدينية في العراق، دون عناية واهتمام. ينتشر الجوع فيها، وتغمر أزقتها النفايات، وخراب البنى التحتية والعشوائيات ظاهرة عامة، وانعدام الخدمات الصحية وغيرها، وقادة الحكم فيها يمعنون في الاستحواذ على الأموال، ويشعلون الصراع السياسي والشخصي بينهم، للتمويه على ما يقترفونه من سرقات. ثم وبنوع من الفخر تحدث الرفيق جبار عن الإمام علي بن أبي طالب، مسميا إياه أب الفقراء والاشتراكي الأول، معدداً مناقبه ومستعرضا بعض أقواله. كان الرفيق ماركس صامتا ساكنا ساهما، وكأنه في حومة من تجلي تاركا للرفيق جبار ما يلذ له

من حديث، وبدوره أخذ جبار يتنقل من موضوع لآخر، لحين اقترابهم من المدينة التي ظهرت معالمها عن بعد.

- راح نوصل مدينة الناصرية. أني طولت بحديثي، وربما ولد ذلك بعض الضجر لديك؟

- لا قطعاً، كان حديثنا شيقاً. سوف أحتفظ من خلاله ببعض الملاحظات أقدمها، لك وعليك أن تجيبني عنها لاحقاً.

- جيد رفيقي العزيز.

خفض الرفيق جبار سرعة السيارة وأخرج هاتفه الجوال وضغط على بعض أرقام، ثم جاء الصوت من بعيد.

- نعم رفيق جبار.. هله وميت هله... هاي إنته وين...؟

- أني ورفيق ماركس قريباً راح نوصل الناصرية.. أعتقد ما يحتاج تجي ويه الرفاق حتى تتلگونه.

- بكيفك رفيق.. السيطرة راح يطلبون منك كفيل من المدينة.

- هاي شنو.. شغله جديده.. ليش شنو الناصرية صارت أقليم؟

- هاي بلاتيق مجلس المحافظة.. يگولون يخافون على أمن المدينة.

- على أي حال راح أدبرها وإذا ما دبرت، اتصل ببيك تجي تتكفلنه.. بالمناسبة حجزت قاعة للقاء باچر؟

- رفيق لا يهمك كلشي جاهز.. فدوه لگلبك، سلملي على

- رفيقنا كارل ماركس، وگلہ الشباب على لهفة للقائكم.
- صار رفيق.. وهوہ هم یسلم.. أوكي حبيبي أبو الشباب إلى اللقاء.
- اقتربت السيارة من نقطة التفتيش، فأشار العسكري بيده وطلب من رفيق جبار التوقف، ثم اقترب من نافذة السيارة، وسأل من أي مكان قدمتم فأجابه الرفيق الجبار من بغداد.
- شعدكم جابين للناصرية؟.
- زيارة لگرايينه.
- عدكم تصریح بالزيارة.. يعني أهنأك أكو واحد يكفلکم حتہ اتدخلون المدينة؟.
- شنو احنه نحتاج لمثل هذه الكفالة.. احنه عراقيين.
- أعرف خالي انتم عراقيين..
- قال ذاك وهو يركز نظره على الرفيق ماركس، الذي بادله النظرات وابتسامة مودة ترتسم على محياه.
- أي وهسة ما راح نروح؟
- لا خالي ما تگدرون إذا مو كفيل..
- كفيلنه الله ورسوله..
- خالي لتلح..ومو وکت شقه.. أطبگ على صفحة وانزل من السيارة.

- ليش؟

- سمعت شني كتلك.. لتخليني أسوي غير شي.

- شنو تسوي.

- استغفر الله.. بويه ما تطيني هويتك.

مد الرفيق جبار يده وسحب محفظته من جوار كابح السيارة اليدوي، وبحث داخلها ثم اخرج هوية سلمها إلى العسكري، الذي ما أن طالعها حتى وقف بالاستعداد وتسمر مكانه، وكأنه مس بتيار كهربائي. تبيست يده، وبالكاد وبارتعاشة ظاهرة أعاد الهوية وهو يتطلع إلى وجه الرفيق جبار قائلاً.

- العفو سيدي.. العفو.. ما چان قصدي.. تعرف التعليمات سيدي.. أنه أقوم بواجبي سيدي.

- ما صار شي إبنی.. زين تسوي.. الواجب أهم من كلشي.

- تفضل سيدي الله وياكم.. محروسين سيدي.

أعاد الرفيق جبار الهوية إلى مكانها في المحفظة، وودع العسكري بابتسامة رضا وتمنى له مساءً طيباً. كان العسكري يقف متخسباً جوار السيارة، وفجأة تفوه بصوت متهدج متوسل، موجهها كلامه للرفيق جبار، فضغط الرفيق جبار على كابح السيارة وراح يستمع لحديث العسكري.

- سيدي رحمة لوالديك..

- گول إبنی شتريد..؟

- سيدي أروحك فدوه.. لو تگدر تساعدني.. سيدي أني

مظلوم وأمي مظلومة، وما ادري شنو أسوي.. سيدي انه ما أريد أكلك ماكو راتب صار شهرين.. بس انه من أهل الحلة، وصارلي سنتين ونص هنا بالناصرية، وأمي تعيش وحدها، ويردون يشيلونها من بيتته، يگولون هيه ساكنة بالعشوائية.. سيدي الله يجعلك بكل خطوه سلامة انتة تگدر تساعدني، أني ما معترض، وأگدر أبقه هنا طول عمري، بس أمي سيدي.. دخيلك.

- انطيني أسمك ورتبتك والفوج والفرقة التابع الها، ونشوف شنگدر انسوي، ها ولتنسه تنطيني عنوان بيتكم بالحلة.

سحب الرفيق جبار دفتر ملاحظات صغير وقلم من صندوق السيارة الداخلي، وطلب من العسكري المعلومات وراح يدونها في دفتره. تعذر على العسكري تقديم عنوان دارهم، كون المنطقة غير مدرجة في سجلات بلدية مدينة الحلة كمنطقة سكن، ولكنه قدم للرفيق جبار وصفاً عن المنطقة، وسماها ببستان الحلو. كان الرفيق جبار يهز رأسه مبدياً اهتماماً ظاهراً بتلقي المعلومة.

- إن شاء الله من أرجع أشوف شنو أگدر أفيدك.. ادلل أبني... بس حافظ على واجبك وخليك متيقظ.

تحركت السيارة بهدوء متجهة صوب الشارع الخارجي المفضي إلى مدينة الناصرية.

- الله وياكم سيدي محروس بأبو الفضل العباس سيدي.

كانت عينا الرفيق ماركس طيلة الوقت تدوران في

محجريهما، وعلامات الدهشة والتساؤل باديتان على وجهه. لذا لم يترك الأمر يمر دون أن يبادر بالاستفسار عن الذي حدث.

- ما الذي حدث وجعل العسكري بتلك الهيئة من الارتباك وهو يطالع هويتك، ثم يطلب منك مساعدته.

- لا تشغل بالك رفيقي العزيز فلكل مقام حديث، ولسوق مريدي جاذبية لا تضاهيها جاذبية الأرض.

- رفيق جبار منذ اليوم الأول وأنت تتحدث معي بالألغاز.. أفصح عن ما تقوله وتفعله أرجوك.. ألسنت شيوعياً ثورياً؟

- نعم رفيق لن تجدني غير شيوعي من الطراز الأول.

- ومع هذا تستخدم معي الألغاز والأحاجي.. مرة شاطي باطي والآن سوق مريدي.. من تراني، لأكتشف ماذا عنيت بقولك سوق مريدي؟.

- ما ضام عليك شي ومراح أضم.. رفيقي العزيز.. سوق مريدي هو سوق شعبي يقع في إحدى مناطق بغداد الفقيرة، وفيه تجري عمليات تزوير واسعة لمختلف الوثائق الرسمية الحكومية وغير الحكومية، والهوية التي قدمتها إلى العسكري كنت قد عملتها في سوق مريدي.

- أسمح لي بمعاينتها؟

- نعم رفيق.

اخرج الرفيق جبار الهوية من المحفظة وسلمها إلى كارل ماركس الذي أطلق زفيراً قوياً متقطعاً وهو يقرأ محتوى الهوية

- هذا يعني أنك برتبة عقيد في ديوان رئاسة الجمهورية..
هل هذا صحيح؟

- رفيق مثلما كنتك هاي هوية مزورة.

- وكيف تسمح بذلك وأنت الشيوعي، مثلما تدعي.

- رفيقي العزيز في العراق اليوم ماكو فرق أبين هذا وذاك.. إن لم نأخذ هذي الطرق فسوف تأكلنا حتى الجريدية، وليس القطط السمان فقط.. ولكل حال مخرج، وإن لم نفعل هذا فلن ندخل مدينة الناصرية وغيرها.

- ولكنك خدعت الرجل ووعدته زوراً.

- كلا رفيقي العزيز.. ما جذبت عليه. لدي الكثير من الأصدقاء في جميع الوزارات العراقية، يمكن بواسطتهم حل مشكلة هذا العسكري المسكين.

غرق الرفيق كارل ماركس بصمت تام وراح يطالع الأفق دون تركيز أو اهتمام بما يظهر أمامه، شعر بأن هناك ما هو غامض في هذه الرحلة، وهؤلاء الذين قابلهم وتحدث معهم، باتوا يوحون له بغير ما يظهرون. شعر بغرابة المواقف والأحداث التي تكررت منذ أول لقاء في مطار بغداد، ومن ثم اجتماع الفندق، وخروج سامر وتهديداته، وتعابير وحركات الرفيق جبار، كل هذا يشي بالشك والريبة. وتساءل مع نفسه إن كان يستطيع إكمال الشوط بمثل ما يريد وما خطط له، ومن ثم يعود إلى لندن بحصيلة من النتائج المفيدة. وما النفع الذي يستطيع تقديمه لهؤلاء الأوباش؟. ضحك في سريره وهو

يطلق عليهم تسمية الأوباش، أعتقد أنهم لا يستحقون مثل هذه التسمية، فالأوضاع فرضت عليهم أحكامها فرضاً، وهم لا يملكون القوة لتغييرها، بل يحاولون تطويع ذواتهم وتدجين أنفسهم داخلها، هكذا ورد في خاطره. فجبار يتعامل أحياناً مع الآخرين برقة وروح رفاقية عالية، ويحنو عليهم ويقدم لهم المساعدة، وفي ذات الوقت نراه يتعالى، مانحاً نفسه مكانة عليا، ومقوماً ذاته على الآخرين، ويلعب معهم دور المتسلط أو المعلم مع تلامذته.. يبدو أنني أمام نموذج لسلوك محير، لمستته أول الأمر في المطار، مثلما تكرر عند بعض رفاق جبار، فالجميع يستخدم ألفاظاً مبهمة وسلوكاً يوحي بالغرابة، ويفتعلون القوة رغم مشاعر الخوف وعدم الثقة.

- تفضل رفيق هسه وصلنا.

توقفت السيارة أمام دار طلي بابها الخشبي بلون أزرق فاقع. والجدار الخارجي للبيت تساقط عنه الكثير من غطاءه الأسمنتي، فظهرت بعض أحجاره الكالحة اللون، جراء الرطوبة والأملاح، وبدا منظره وكأنه مرقعاً بخرائط لجزر صغيرة، تنتشر فوقه بعبثية. جوار الباب وقف رجل أسمر البشرة، بوجه حليق مليح يرتدي بيجامة رصاصية اللون بخطوط طولية خضراء، يلوح بيده وترتسم على وجهه ابتسامة عريضة.

- هله ومية هله بالرفاق.. هله والله.. زارتنه البركة.. صدگ بويه چذب.. مارکس ابیناتنه.. أو يوم المبارک علینہ وعلی الناصرية.. لا بويه موبس علی الناصرية.. علی العراق کله..

هل ومية هله.

ثم سحب ماركس وأخذه بالأحضان، وراح يقبله في موجة من القبل السريعة المصحوبة بصوت يشبه الفرقة، ويردد.. هله وميت هله.. هله بالزين النشمي. لم يفعل الرفيق ماركس شيئاً، بل عاف جسده للأيدي الثقيلة، التي كانت تلتف حوله وتعتصره بقوة.

استطاع الرفيق جبار بشيء من الجهد، سحب الرفيق ماركس من أحضان الرفيق أبو نداء وأبعده بضع خطوات.

- رفيق ماركس.. الرفيق أبو نداء من رفاقنا القدماء، ونحن نعتز بوقفاته الثورية مع الجماهير المسحوقة، وكان منذ فترة طويلة نواة لتجمعنا في هذه المدينة الباسلة.

- أهلاً وسهلاً بك رفيقنا أبو نداء.. نداء، ياله من اسم جميل.

- أهلاً وسهلاً بالرفيق ماركس..

- نعم رفيق ماركس اسم نداء يجلب الخير، ويبعد الضرر عن الناس. ولعب بينه شاطي باطي بيوم النداء بالكويت.⁽¹⁾

هكذا تكلم الرفيق جبار معقّباً.

- ها رفيق جبار بدت رحمة الله.. إي هذاك يوم وهذا يوم... تره چنه مجبورين.

- صحيح أبختي وحظي صحيح.. مجبورين.

- إي هسه دفوتو جوه حتى تستراحون.. وبعدين شغل

⁽¹⁾ يوم النداء هو الاسم الذي أطلقه صدام على يوم غزوه للكويت.

بساميرك رفيق جبار.

كانت نظرات الرفيق ماركس تنتقل بين شفاه الرفيقين، في محاولة لفهم الحوار الدائر بينهما، وفي الوقت ذاته كان يفكر بكلمتي شاطي باطي، التي تكررت أمامه مرة أخرى، ولم يجد لها تفسيراً. يا ترى لم يستعملهما الرفيق جبار بهذا الشكل المفرط، وماذا تعني عنده. كان هذا السؤال الأول، الذي بادر بطرحه الرفيق كارل ماركس على الرفيق جبار، وهم يجلسون عند طاولة الطعام، التي أعدت لهم في بيت الرفيق أبو نداء.

- رفيق ماركس.. خل نتعشى أولاً وبعدها أشرحك شنو الشاطي باطي.

- رفيق جبار.. لن أتناول ملعقة طعام واحدة إن لم أجد هناك جواباً شافياً عن الشاطي بالطي.

- كن على ثقة رفيقي العزيز أنه معنى مجازي، لا يستحق منك كل هذا التفكير والتطير والضجر.

- حتى ولو.. عليك الآن الإفصاح عنه، إن أردت مني مشاركتكم الطعام.

- أيباه.. الرفيق ماركس غير عنودي.. وصعب جداً.. مثل كتبه.. مو سهل واحد يفتهمه، أقره بيها ليل ونهار وأريد أدبر حالي وياهه وما أگدر.. تجييني منا وتوديني منا.. أيباه شگد صعب رفيق ماركس حتى بالأكل.

قال ذلك الرفيق أبو نداء، ثم أطلق ضحكة خجولة وهو يطالع وجه ماركس الذي راح بدوره يحدق بالرفيق جبار،

وتقطيبه ظاهرة ترتسم فوق جبينه.

- رفيقي العزيز.. لا بأس سوف أشرح لك الأمر..أولا الشاطي باطي وليس الشالطي بالطي.

- ليس لذلك أهمية، المهم ما يعنيه؟

- الشاطي باطي هو تعبير عن خلط في الأمور، وترميز عن فعل الإيذاء. أي أن الوقائع السيئة والأحداث الخطرة والجرائم الكبرى والآثام والخدع ونذائر الشؤم والمصائب والحروب والموت المجاني والقحط والجوع والأمراض والعوز وانعدام الخدمات، كلها اجتمعت على العراق وشعبه بسبب وآخر، وفعلت فعلها المؤذي، ونحن نختصر كل هذا الإيذاء، في تأويل مجازي هازل للمحنة، لنقول لعب بنا الدهر والدنيا شاطي باطي.

- رفيق جبار فدوه أروحك، تكدّر تعيده مره لخ بشكل بطيء، تره شويه صعبه عليه.. ما افتهمت شنو گلت..

هكذا بادر الرفيق أبو نداء بالاستفسار والطلب.

- هاي شنو رفيق أبو نداء دا تخجلنه يم الرفيق ماركس.

صمت ماركس وتناول الملعقة وراح يعبث بصحن الرز الذي وضع أمامه.

يا للتهويل الموحش، الذي سطره الرفيق جبار. إنه يدعم قناعاته، بدوافع الخوف والضيق والميول غير الواعية، بحوادث تقترن بمسببات، ولها نتائج يمكن أو من غير الممكن ردعها، وهي ليست مستحيلات، ولكنها تبقى حاضرة، وللإنسان

إمكانية السيطرة عليها، عبر قدراته على التغيير. ليس هناك من أمر جبري في هذا الكون، ويبقى الخيار الإنساني في المقدمة، وهو من يبتكر الكثير من الطرق، التي تقف في وجه جميع تلك المصائب، وعلى الأقل التقليل من حدتها أو الحد من أهوالها. ولكن الملاحظ وحتى في حادثة ليلة البارحة الظلماء، أن هذا المجتمع يعيش على قاعدة القدرية والاستسلام أو الرضا عن الواقع، وبما تجود به المصائب، دون مبادرة لردعها.

- ماذا رفيق ماركس.. أراك بغير شهية للطعام؟

- يجوز عشاننا ما يعجبه، لو ما متعود ياكل تمن ومرگه بالعشا.. رفيق تره إحنه على گد حالنه.

- كلا أيها الرفاق الأعزاء.. لا عليكم فلنبداً بالأكل.. شكرا لك رفيق أبو نداء.

هناك حيث العشوائيات

كانت الليلة مقلقة بل ثقيلة ومتعبة جداً، أبعدت النوم عن عيني ماركس. فالرطوبة في الغرفة مرتفعة، شعر معها بضيق تنفس، وثقل كبير يرقد فوق صدره العليل أصلاً. كان للحشرات القارصة وصرصرة الصراصير حضوراً طاغياً، هذه الحشرة الغريبة في طباعها وحياتها، ذكرته بمدرسة ترير العليا، التي كان يديرها صديق أبيه هوغو فيتنباخ، حيث تعرف هناك على الطالبة ماجدولين الظريفة، كانت تسبقه بعام دراسي، وكانت شغوفة بالبحث عن الصراصير، في جميع زاوية من زوايا المدرسة والأقسام الداخلية، لتضعها في زجاجات بأغطية مثقبة، وتقدم لها الطعام المناسب، وتجلس ليلاً تنتصت أصواتها. كانت تشعر بالزهو والغبطة، حين تأخذ بوصف النغمة الليلية التي تصدرها تلك الحشرة. وتأخذها نشوة لذة وافتخار، وتنفرج أساريرها بفرح غامر، وكأنها تريد إقناع الآخرين بانتمائها الكلي والمطلق لعائلة الصراصير. ثم تقوم بتقديم المعلومة برضا وقناعة تامة، عن قدرة تلك الحشرات العيش دون طعام لمدة شهر كامل. وحسب دراستها لحياة هذه الحشرة، تقول إن الصرصور، يستطيع أن يتوقف عن التنفس لمدة 45 دقيقة دون تأثير على حياته، كذلك يستطيع العيش دون

رأس لمدة أسبوع. كان البعض يهزأ من تلك المعلومات، والآخر لا تهمة الموضوع من أساسها، فالحديث يتعلق بحشرة ليست بذات قيمة، أو كريهة ومقززة له. ولكنه بعيداً عن كل هذا اللغط، كان يتقبل طروحات صديقه على علاتها ليضيفها لمعلوماته، رغم ما يساوره من شك أحياناً. ومع هذا كان يثق بماجدولين جداً، كونها طالبة جادة ومتقدمة في الدروس. حين انتقل إلى جامعة بون وهو في السابعة عشرة، نسي صوت الصراصير، ومعها ابتعدت ماجدولين واقفاصها الزجاجية عن تفكيره، ولكنه وجد الحشرة هذه حاضرة الآن، بشكل مفرع وقريب. يسمع أصواتها، وكأنها صافرات إنذار أو نواقيس تطرق رأسه، لا بل شعر وكأنها تسكن بين طيات الفراش أو تدب وتنط بين طيات ملابسه.

شهد ماركس يتنقل من موضوعة لأخرى. ومن خلال استحضار أحداث الماضي، وكذلك التفكير بما ستؤول عليه الأوضاع في لقاء الغد، حاول إبعاد ذلك الطنين وإهمال ما يتعرض له من لسع الحشرات، وضغط رطوبة الهواء على صدره. لم تغمض له عين، وعجز عن التوطن داخل هذه الغرفة الساخنة الرطبة، وبدأ الإرهاق يأخذ منه وطراً ليس بالقليل، ففتح ضلفة النافذة المطلة على الزقاق. كان الظلام تاماً في الخارج. القمر اختفى كلياً، وكأن السماء أفرغت من نجومها تماماً، فبدأ الزقاق في عتمة مفرعة. تذكر ماركس حادثة الفندق ليل البارحة وصراخ أبو شمخي، فضحك بسرّه، ولكنه وجه لنفسه مرة أخرى بعض اللوم على ما حدث. شيء من نسيم بارد تسلل بخفة عبر الشباك، جعل ماركس يشعر

ببعض راحة، فجلب كرسيًا وجلس جوار النافذة، بعد قليل أحس بالخدر يدب بجسده والنعاس يطرق جفونه.

عند العاشرة صباحاً، وبشيء من العجالة تناولوا الفطور، وخرجوا من الدار بصحبة أبو نداء، الذي أخبر الرفيق جبار عن مكان اللقاء، فتوجهوا بالسيارة نحو وسط المدينة، ثم انصرفوا إلى الشمال حيث حي الطناظلة. ضحك الرفيق جبار وهو يستمع لهذه الكلمة، وسأل الرفيق أبو نداء عن هذه التسمية الغريبة.

- رفيقي.. لأن هذي الأرض أصلاً چانت مقبرة مهملة، وأجو الناس وبنو بيوتهم فوگاہا، والناس بسبب واقعهم البائس وقسوة حياتهم اضطروا للبناء و السكن هناك، ومن خوفهم واعتقاد البعض منهم برؤية أشباح تتجول ليلاً بين البيوت، لذلك سموه حي الطناظلة..

- يالها من مفارقة غريبة.

- يا غرابة رفيقي.. تصدك عدنه هناك حي لاخ بمدينتنا يسمونه حي الزراب، أي الغائط ويعني فضلات الإنسان حاشاكم.⁽¹⁾

- لا.. لا بربك.. ما اصدك.

- من أنخلص اللقاء أخذك ونروح أهنأك.

- بس رفيق إنته كتلي راح تحجز قاعة للاجتماع.

⁽¹⁾ حي الطناظلة وحي الزراب مناطق سكن عشوائية حقيقة أنشأها الفقراء قرب مدينة الناصرية.

- رفيق الوضع بقاعة وبنص الولاية مو أمان، يروح يضربونه بقنبله صوتيه مثل ما سوووه بحفلة حسين نعمه.

- أها هيچ.. خوش.. زين سويت رفيق.

كان ماركس صامتاً لا يصدق ما يسمع من حديث. تذكر الإحصائيات والقوائم والمعلومات التي استقاها من بعض الأصدقاء في لندن، وكذلك التي قدمها له الرفيق جبار، عن واردات العراق المالية وتشكيلات الإدارات الحكومية وأوضاع الطبقة العاملة، وحاجات البلد من الخدمات. فتساءل مع نفسه، وهو يشاهد وضع البيوت المتداعي، والأزقة المتربة المليئة بالحفر والنفائات داخل العشوائيات، فتساءل أين تذهب تلك الواردات الهائلة وعلى وفق أية شاكلة يتم أنفاقها.

توقفت السيارة جوار بيت يبدو حاله أفضل بكثير من باقي البيوت المجاورة له، وطلب أبو نداء أن يترجل الجميع لاستطلاع مكان لقاء الرفاق بالرفيق ماركس. دفع الرفيق أبو نداء الباب ودخل دون استئذان، فسمع صوتاً نسائياً صادراً عن الداخل.

- ها يمه أبو نداء.. تفضلوا هله بيكم.. تراه عبيس بعد شواي ويجي.. هوه وصاني بيكم من قبل يوم.. وأنه جمعت شكو كراسي عد الجيران وصفطتهن بغرفة الخطار.. هله بيكم خاله ومرحبه.

- تسلمين أم جواد والله يوفقج، ويوم نوگفلج بعرس حبيبينه أخونا عبيس.

- يايمه.. هذاك اليوم چا مو يصير يوم عيد، وأسوي عرس وناني. أحنه أبخت جدك.. كون الزهرة أم الحسين، تهديه لعبيس ويثگل.. چا صارت فرحتي مثل يوم شوفتي لأبو جواد.
- ها أم جواد حنيتي ليوم عرسج..

- لا يمه هذا يوم وراح وبعد ما يرد.. بس شسوي أريد أفرح بوليدي الزغير.. أشو عبيس يطارد مثل الحصان، وماكو نثية تلجمه.

- وسفه ولله وسفه.. تره من ينلجم وتربطه المره.. بعد متشوفين من خيره.

- بس كون أشوفه سعيد، هم ميخالف. يمه أريد أفرح بفروخه.

- گولي إن شاء الله..خاله أم جواد بدون زحمة سويلنه چايات، وأحنه راح نطب ونگعد بغرفة الخطار.

- تدللون يا بعد طوايف خالتك.. هذا بيتكم يمه.

دخل الثلاثة غرفة الضيوف من بابها المطل على الممر الخارجي. أخذ ماركس ينظر لما حوله، حيث وضع بشكل عابث عدد كبير من مقاعد متعددة الألوان والأشكال، وبعضها متهالك يبعث على الأسى. فوق الجدار المواجه للنافذة العريضة، علقت صورة كبيرة ملونة لشخص يرتدي غطاء رأس أخضر، وتغطي جسده الضخم عباءة بنية اللون، ويجلس القرفصاء على الأرض، ويضع سيفه المشطور وسط حضنه، وجواره قبعث ثلاثة أسود ضخمة مستسلمة لقوة إرادته

وسطوته الظاهرة.

جلبت انتباه الرفيق ماركس تلك الطلة البهية والعيون الذكية الجميلة الواسعة لصاحب الصورة، فراح ينظر فيهما بتمعن. وقال في سره، لقد أجاد الرسام في إيصال تأثير الصورة على المشاهد. تلك اللحظة طلب الرفيق جبار من الرفيق ماركس الجلوس قرب باب الغرفة، وراح والرفيق أبو نداء يعيد ترتيب المقاعد، وهو يدندن بأغنية خطرت على باله الآن. طالع الرفيق جبار ساعته، ثم سحب كرسيًا وجلس جوار الرفيق ماركس. دخلت أم جواد وببيدها طبق نحاسي فوقه ثلاثة أقذاح شاي.

- ما هذا؟ قال كارل ماركس بدهشة.

- هذا شاي.

- عجيب وبهذا اللون الفاحم؟

- الجماعة هنا يحبون تناوله بهذا الشكل، أيضاً هناك مصيبة، فالشاي توزعه الحكومة مع الحصة التموينية الشهرية، وهو مغشوش أي مخلوط بالخشب المحروق.

- واو! ما هذا الفعل القذر؟

- لو حدثتك عما تمنحه الحكومة، وتوزعه شهرياً على الناس لجزعت أكثر..

في تلك الأثناء سمع طرق على الباب الخارجي، فذهبت أم جواد لتري الطارق.. سمع ترحاب المرأة بالضيوف، فدخل ثلاثة أشخاص، كان أحدهم يرتدي ثوبا فضفاضاً ويضع على

رأسه كوفية وعقال، والأخران يرتديان البنطال وقميصا بنصف كم.. استقبلهم الرفيق أبو نداء عند باب الغرفة، وتبادل معهم القبل، ثم دخل الجميع وتوجهوا مباشرة نحو الرفيق ماركس وحيوه بحرارة، ثم جلسوا قربيه يتهايمسون ويتبادلون الابتسامات. توالى قدوم الرفاق، حيث جاء خمسة منهم، ثم تبعهم خمسة آخرون، ولحقهم بعد ذلك سبعة.

فجأة دخل الرفيق عبيس. دفع الباب الخارجي بقوة وهو يصرخ بصوت عال، تصاحبه ضحكة مجلجلة.

- أم جواد.. يمه.. فدوه أروح لهذيج الكصايب الحلوة، والرصة والخدود الحمر.. وين الغده يمه.. راح أخرب من الجوع.

- يمه عبيس ربك إلتمو..

- أفه.. عيوني رفاق أعتذر، حسبالي بعدكم ما جايين..

تقدم عبيس وصافح ماركس بحرارة، وقبله من وجنتيه بقبلتين صوتيتين سريعتين، ثم اتجه نحو رفيق جبار وضمه بقوة إلى صدره، وراح يقبله بقوة وشوق ويقول.

- هذيج الليلة ولا تنسي رفيق جبار.. طعمها بالحلگ ليهسه.. چانت ليلة ليلاء مثل ما يگول رفيق شكر.. عاشت الناصرية حرة ديمقراطية، تحت نير الظلم والاستعباد..

ثم أطلق ضحكة قوية، ضج معها الجميع بالضحك، الذي استمر لوقت غير قليل، كان فيه ماركس يطالع الوجوه بدهشة ظاهرة وبغيض مكتوم.

- رفيق لا تتعجب، فالجميع يعرف نكات وقفشات رفيق عبيس.. في كل مرة وبعد أن يتناول الكثير من الكحول، يأخذ بالهتاف الذي اعتاد عليه.. عاشت الناصرية حرة ديمقراطية، تحت نير الظلم والاستعباد، والذي يصرخ به، بعد أن يشعر بدبيب الكحول يسري بجسده بقوة، ثم بعدها يغفو عند أقرب كرسي.

هز ماركس رأسه وأغتصب ابتسامة خفيفة، أراد بها إظهار اقتناعه بحديث الرفيق جبار.

- هل نبدأ رفيقنا العزيز؟

- أنتم تقرر ذلك لأنكم أصحاب الدعوة.

- حسنا رفاق سوف نبدأ.. أرجو من الجميع الجلوس.

- رفيق جبار ولا يهون رفيق ماركس.. أگدر أكل لگمة طعام زغیرونه وأجیکم بعدین.. تره میت من الجوع..

- أوكي رفيق عبيس.. بس لا تتأخر.

- أوكي ورحمة الله وبركاته.. عیونی.. طلقه.

* * *

وضع الرفيق جبار أمامه منضدة صغيرة، وجلس والرفيق كارل ماركس خلفها، وجلس باقي الرفاق قبالتهم فوق المقاعد، التي رصفت على طول الغرفة.

- تحية أيها الرفاق الأعزاء، وشكرا لحضوركم الجميل،

يقول الرفيق دريدا⁽¹⁾ إنه ليس هناك ثمة مستقبل بدون ماركس، وإننا سوف نرى تفويضاً شعبياً للاشتراكية في المستقبل. هكذا بدأ الرفيق جبار حديثه، لإدارة الندوة، وتقديم الرفيق ماركس للمجموعة. ثم أضاف.

- الواقع إن هناك وبعد حدوث الأزمة الاقتصادية في العالم الرأسمالي، شعر الناس بأن هناك عودة قوية لماركس والماركسية. أشار دريدا مثلما آخرون، إلى كون تأريخ العالم وحقبه العديدة، ما كانت لتخلو من شبح الشيوعية الذي يتجول داخلها.. ونحن يا رفاقنا، وإثر هذه الأحداث العالمية، التي انعكست بدورها على واقعنا العراقي، طلبنا من رفيقنا كارل هانريش ماركس، الحضور للاطلاع على أوضاع العراق، وبناء تصور معرفي حقيقي، عن الحقبة التي يعيش بها أبناء شعبنا، ثم تقديم ما ينفع من حلول لأزماتنا إن صح التعبير.

- رفيق جبار ممكن سؤال بروح أبوك؟

بصوت خشن وبحة واضحة سأل صاحب الكوفية والعقال.

- بعدين رفيق أبو مزعل.. الأسئلة بعدين.

- لا رفيق چا تريد السالفة تعبر وأنا ما مفهم منها شي.

- خوش رفيق.. تگدر تسأل بعد ما أخلص.

⁽¹⁾ دريدا فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك. تعتبر فلسفة دريدا، ما بعد الحداثة عامة تفكيكا للنماذج المعرفية التي افترضت وجود غائية و افترضت من ثم مصدرا متعاليا للمعرفة، يقرر المعني، الحقيقة، القيم، وبالتالي السلطة.

- إي شني سالفتك.. ليش ما تقبل.. مو أگلك راح تفلت مني
حجاياتك إذا ما أسال؟

- شنو رفيق.. بس أختصر.

- رفيق هيه جلمه گلتها أنته ودوختني بيها..

- شنو هيه؟

- هذا دوريد منو.. من طوايفنا لو هم أجنبي؟

- أها.. تقصد دريدا.. رفيق هذا اسمه جاك دريدا، فيلسوف
فرنسي من مواليد الجزائر، وهو صاحب نظرية التفكيك.

- شني تفكيك.. چا هيه صارت مكايين وبراعي.

ضج الرفاق بالضحك وساد بينهم جو من المرح.

عندها تدخل ماركس، وطلب من الرفيق جبار الحديث،
ليوضح للرفيق السائل من هو جاك دريدا.

- رفاق.. دريدا فيلسوف طرح فكرة الصعوبة في فهم
استراتيجيات النص دون تفكيكه، حيث يكمن في طبيعة الفلسفة
العلمية، وفي متن النص ذاته هذا التناقض، وچاك دريدا أراد
استجلاء هذا الخطاب، لتفكيك استراتيجيات النص، لإثبات
تناقض نموذج النص ذاته.

- رفيق لو خاله على سگف العام أحسن.. بويه بطلت من
السؤال.

- لماذا رفيق ألم تستوعب ذلك؟

التفت الرفيق جبار وهمس بأذن الرفيق ماركس، أن دع الأمر لي، ولا حاجة لك بالرد أو الشرح لحين ما ننتهي.
فجأة دخل الرفيق عبيس مسرعاً دون أن يطرق الباب، ووقف وسط الغرفة بين الرفاق ثم راح يلوح بيده وأخذ بالإنشاد:

غضيناها مشي على النار
واليسحك جمر شيصير بجدامه
غضيناها سهر والنوم طبع الذيب
عين وعين ما تتفرزن أحلامه
وغضيناها ركض متعوب
كلما يهم روحه أيطيح
ما يلحك الجدامه
هو المالكة الزاد اليسد الجوع
گوه أيفوت بصيامه⁽¹⁾

عاشت الشيوعية العالمية.. عاش العراق.. عاش الرفيق ماركس.. فلتحيا وحدة الطبقة العاملة العالمية.
وكانهم كانوا بانتظار رجوع عبيس وإلقاء قصيدته هذه، لذا هبوا هبة رجل واحد من أماكنهم، وكان الجميع منفعلاً يردد

⁽¹⁾ كلمات القصيدة للشاعر لفته الباني.

كلمات الرفيق عبّيس بجد وإخلاص، عاشت.. عاش.. عاشت..
وكان أصواتهم كانت تخرج من الأفئدة، والتصفيق بدأ على
أشده مع لغط وضحك، وانطلقت من خلف الباب لهولة رنانة،
لأم جواد مشاركة منها فرح رفاق أبناها عبّيس.

قفز صاحب الكوفية من مكانه وصدق بأعلى صوته، موجهاً
كلامه للرفيق ماركس :

مطلوبين احنة وجينة نوفي الدين

جيت ومعتني يا كارل أدورك

ومنك انشد الصوبين

يل كلك فهم وعلم

وتسوة ماي العين.

قاطعه الرفيق جبار بحدة، وكان يضغط على أسنانه، وكأنه
يزمجر. وبنبرة صارمة وصوت غاضب قال:

- رفاق يمعودين.. رفاق نستمر لو لا. هذا تراه مو محله..
ميصير؟

- طبعاً رفيق نستمر..

أجابه بعضهم

- رفاق الهدوء مهم لجلستنا.. والرفيق ماركس، يود أن
تكونوا جميعاً بمستوى المسؤولية الرفاقية.

بصوت هامس سأل الرفيق ماركس رفيقه جبار عما يحدث،

ولماذا يفعل الرفاق مثل هذا اللغط والضجيج.

- إنها عادة عراقية متعارف عليها، تحدث في حالات تجمع الناس لغرض الاحتفال أو التشييع أو الفواتح، فهناك من يخرج من بينهم ليلقي بعض الأبيات الشعرية وكلمات التمجيد، قبل أن يتحدث المحاضر أو الخطيب.

ثم قطع حديثه الهامس مع ماركس، وبادر موجهاً كلامه لمجموعة الرفاق، أن عليهم الهدوء. عند تلك اللحظة وقف الرفيق أبو مزعل صاحب العقال والكوفية مرة أخرى ووجه كلامه إلى رفيق جبار.

- وسفه جبار ما چان عهدي بيك هيچ.. تقطع هوستي.. ليش بويه شني إحنه مو بعينك.. شني صاير اليوم قبغ مال احلوگ.. گالولي الرفاق عليك، شايف نفسه شوفه.. من رخصتكم رفاق، أنه طالع وبعد طريقي مو وياكم من هل يوم. الديره والحزب المسؤوله رفيق جبار مالي مكان بيه.

ضجت الغرفة بالأصوات، تنادي عليه للبقاء، ولكن أبو مزعل أبي وخرج وأغلق الباب وراءه بحدّة، دون أن يستمع حتى لصوت الرفيق جبار الذي كان ينادي عليه ويعتذر منه ويترجاه البقاء. هرول عبّيس وراءه محاولاً إرضاءه دون جدوى، فودعه عند الباب الخارجي وعاد إلى الغرفة. حيث وجد الرفيق جبار قد انتقل مع الرفاق إلى حديث جاد.

- رفاق.. فيما يتعلق ببرنامج اللقاءات مع الرفيق ماركس فهو سيكون على شكل جولات في المحافظات، تدور فيها

حوارات ونقاشات، نحاول أن نستخلص منها ما ينفع شيوعيتنا وعراقنا. وأنا هنا لا أريد استخدام تعابير تربك البعض، وتقود إلى فهم قاصر، لما يريد أن يقدمه الرفيق ماركس لنا، واعتقد أن من المناسب لنا جميعاً، أن نخرج عن نمطية المحاضرات، ونبدأ بنموذج جديد ومقنع للمخاطبة، ألا وهو طرح الأسئلة من قبلكم، والرد عليها من قبل الرفيق ماركس. وقد بدأها الرفيق بالجواب على سؤال الرفيق أبو مزعل، ولنبدأ بما يشغل بالكم وندونه ثم يرد عليه رفيقنا كارل ماركس.

- اسمحلي رفيق بسؤال.. بادر أحدهم بالقول

- تفضل رفيق.. ولو بعدنه ما سجلنه أسماء الراغبين بتوجيه الأسئلة.

- رفيق ماركس بروح الوالدة.. متكلي أحنه أنضل هيچ نركض والعشه خباز؟

- رفيق ماركس.. رفيقنا يسأل إلى متى يبقى حالنا على هذه الشاكلة التي رأيتها، فقر وعوز في كل شيء.

هكذا بادر الرفيق جبار لتقريب لغة السؤال للرفيق ماركس، وكان في كل مرة يستخدم هذا الشيء لتسهيل أمر الحوار بين ماركس والآخرين.

- رفيق، عندكم أفكار ومشاريع الطبقة الحاكمة، وهي المهيمنة الآن، ومن يملك القوة المادية، ودائماً تحاول فرض منظومة أفكارها على المجتمع، وتاريخ البشرية منذ الخليقة، هو تاريخ صراع الطبقات، وهناك ظالمون ومظلومون، وهم

في تعارض دائم، ويخوضون حروباً متواصلة، تارة معلنة وطوراً مستترة، ومثل هذه الحرب حتماً سوف تنتهي، إما بتحول ثوري للمجتمع ككل، أو هلاك كلتا الطبقتين المتصارعتين.

- إي رفيق وتاليها مو أنشعل سلفه سلفانا، ونركض ونرجع كري. وأشو هسه ما تشوف غير اللطم والبجي والسبحة السوداء أم المية أواحد، والتفجيرات ذبحتنا ذبح، وجوع وخدمات معدومة.

- الرفيق يقصد أن المجتمع العراقي ناضل كثيراً ولكن في الأخير رجع كل شيء إلى الوراء، وسيطرت عليه مافيات تحكم باسم الدين و امتلاك الحقيقة. رفيق يعني لعبت بينه شاطي باطي مثل ما شرحت لك ذلك سابقاً.

أطلق رفيق جبار ضحكة، وهو يحاول جهده ترجمة الأسئلة وتوضيحها للرفيق ماركس.

أجاب ماركس قائلاً بعد أن أنهى تدوين السؤال في ورقة أمامه.

- رفاق علينا أن ندرك الطابع المؤثر لكل معطيات ووقائع الحاضر، وقدرتها على الوقوف بوجه التغيير وقوى الديمقراطية، وتلك المعطيات بالذات من يسهم في تثبيت بنية المجتمع الكلية ذاتها، وتكفل ديمومة الأوضاع الاقتصادية والسياسية الاجتماعية السيئة، وفي هذا لا ننسى أن الدين، في مثل هذه المجتمعات يعني عجز عقل الإنسان عن التعامل مع

حوادث، لا يمكن فهمها أو يتعذر عليه تحليل كنهها.

- رفيق ولو أنا مو كلشي أفهمته.. بس إحنه شنو نڠدر أنسويه؟

- رفاق، الإنسان بواسطة العمل، وبالعمل وحده يستطيع تغيير ذاته، وكذلك تغيير ما حوله، ولأجل خلق ظروف أفضل لحياته وللمجتمع. وأعتقد أن هذا الشيء هو ما يحتاجه الشعب العراقي بشكل ملح. ورغم أن العمل في النظام الرأسمالي يصبح وسيلة وأداة لاستلاب الذات وقهرها، ويكون نشاطاً مستهلكاً، في ظل شروط إنتاج، يتم فيها شراء قوة العمل، وهنا يكمن الخطر، حين يكون الإنسان العامل، جزء من وسائل الإنتاج، وغير مالك لها، لينقلب إلى مجرد قوة تباع وتشتري.

قفز عبيس من مكانه وبصوت واضح قوي وجه كلامه للرفيق ماركس.

- رفيق ماركس متڠلي هو شنو العمل؟

طالع ماركس وجه عبيس الأسمر المملوح، والذي يشي بمقدار وقوفه تحت أشعة الشمس اللاهبة، وتمعن أيضاً قميصه المزركش، فضحك في سره بسبب صور أشجار الغابة والورود التي تغطي القميص، وكذلك العبارة التي تتوسط الجهة العليا اليمنى منه، وكانت باللغة الانكليزية، والتي طرزت بخط ناعم أخضر، ولكنه واضح للعيان (اغتصبي أيها الملعون).

- رفيق من أين لك هذا القميص الجميل؟

- رفيق من اللنكة.
- وماذا تعني لنگه؟
- يعني من محلات بيع الملابس المستعملة.
- أرجو ألا ترتديه بعد الآن، فهو قميص لا يليق بشيوعي.
- رفيق جماعتي بالسوگ كلهم متخبلين عليه.
- رفيق هذا القميص في أوربا ترتديه بعض الفتيات المراهقات، استهزاءً وتحدياً لتقاليد مجتمعاتهن.
- ليش أحنه مو ثوريين، هم أني أريد أتحدى مجتمعنا، وأكسر خشم تقاليده.
- حسنا ولكن العبارة التي خطت على قميصك، مخجلة في مجتمعك.
- وشنو هاي العبارة.. أشو هيه باللغة الأجنبية.
- نعم وحاملها يدعو الآخرين لاغتصابه.
- شنو.. أنه أخو جواد عفه، گول غيره رفيق... أشو صار شهر من لبسته ومحد گالي بهاي الحسبة.
- مثلما أخبرتك.
- هرول عبيس خارج الغرفة وكأن عقرب لدغته، ثم عاد وهو يرتدي قميصاً ابيضاً وجلس في مقعده، يتلفت نحو وجوه الرفاق التي كانت جميعها تحمل ابتسامات خفية، شعر أن بعض منها كان شامتاً.

- رفيق تكلمت عن العمل.. نستطيع أن نعرف ما هو العمل؟

- رفاقي الطيبون.. العمل هو الأفق وهو الحياة، هو ما يبعث الأشياء ويطلقها من بين الأموات، والشغل فاعلية مرتبطة بماهية الإنسان، وهو مجهود جسدي وبواسطته ينمي الإنسان مواهبه وملكاته وقدراته. وقيمة أية سلعة تظهر في السوق، يعبر عنها بعامل واحد، هو مقدار العمل الإنساني المبذول لإنتاجها، وقيمة السلعة تقاس بمقدار العمل الذي يقتضيه إنتاج السلعة، أي بعدد الساعات التي يستغرقها العمل في إنتاج تلك السلعة، وتقاس هذه القيمة بالزمن الاجتماعي لا بالزمن الحقيقي.

- رفيق يعني أم غانم هم شغلته تنقاس بالزمن الاجتماعي مو بالساعة.

قال أحدهم ذلك فضجت الغرفة بالضحك واللغط، ووجهت للرفيق نظرات وعبارات اللوم والسخرية وترددت جملة، عيب رفيق عيب، هذا مو سؤال، عيب رفيق مع قهقهه عالية.

- رفيق وما نوع العمل الذي تقوم به تلك المرأة؟

تساءل الرفيق ماركس

- أترك هذا رفيقنا العزيز.. الرفيق أراد تلطيف الجو فأطلق أملوحة.. أم غانم تشتغل والعياذ بالله.

وبعد موجة من الضحك طلب الرفاق استراحة قصيرة، جلب عبيس خلالها كليجة وشاي، وتبادل الرفاق أحاديث جانبية كان أغلبها هامساً.

- رفيق أبو سناء، أگول منو یگول هذا هو صدگ کارل مارکس؟ هذوله أب أوربا نغولة یلعبون علیه لعب.. یجوز گالو خلي اندز لهذوله الزواج، واحد نسویله کفشه ولحیه مثل کارل مارکس، وراح یحچیلهم شیرید ما یرید، ویثرم برأسهم بصل، وهمه غشمه، وخیرهم ما یعرف شنو ما شنو المارکسیة - هاي شلک بیها رفيق لعد هذا الحچی إلی حچاه هذا، منو یگدر یحچی غیر مارکس.

- وهو أنته أفهمت منه فد شی.

- ترید الصحیح.. والله ما أفهمت منه غیر جملة لو جملتين.

- ها أني چا أشگول..

- رفاق أعتقد من المناسب العودة لنتحاور مرة أخرى.

كانت هذه جملة الرفیق جبار، التي نبههم بها، ودعاهم لمعاودة الاجتماع، فعاد الرفاق للجلوس في مقاعدهم.

- رفيق خصم الحچی إحنه شنسوي بهذا وضعنا. صحیح سأل رفيقي نفس السؤال قبل قليل.. ولكني أريد الآن وقبل ما أشلع.. أريد جوابا حاسماً یشفي القلب.

أطلق أبو رقية جملته وهو واقف ومتهیئ وكأنه یرید إنهاء الاجتماع والخروج دون انتظار جواب.

- مثلما قلت في ردي الأول.

- أعرف رفيق بس أگول ما ممکن في هذه المرحلة بناء

الاشتراكية بقوة سواعد أبطالنا؟

- دون نضوج الظروف الموضوعية والذاتية، لا يمكن الوصول إلى تلك المرحلة. فالعراق يمر بفترة عصبية، اقتصاده ريعي أحادي الجانب، خزينته تعتمد على مادة واحدة هي النفط، وعنده اقتصاد فلاحى متخلف ومجزأ، والبلد متخلف صناعيا، وهناك فائض كبير في الوظائف الحكومية، وليس هناك طبقة عاملة ناضجة تعي طبيعة وظيفتها التاريخية، وتعمل ككيان اجتماعي سياسي، واع لتمييزه عن الطبقات الأخرى، وهذا هو المهم. وفوق كل هذا وذاك، البلد تديره أحزاب إسلامية طائفية تراهن على تخلف المجتمع لتسويق برامجها، ومن هذا لا يمكن أن تنضج في هذه المرحلة مسالك حقيقية للديمقراطية، أو بناء يقترب من الاشتراكية حتى بنموذجها المبسط.

- رفيق أنته أشو حيل مظلما عليه.. ليش ما يمكن حرق المراحل؟

عند تلك اللحظة وقف الرفيق جبار وصاح

- يمعودين.. يا حرق مراحل يا بطيخ.. والله الجماعة عدهم استعداد يحرگون الأخضر واليابس، لو واحد گالهم شويه وخرو، لو تحرش بمصالحهم.. يصرخون ويگولون جننا لنبقى وخلص، وما ننطیها لو یجي القبيس.. رفيق مارکس صار الحديث خارج نطاق التغطية... دعنا نذهب لنستريح بعض الوقت فينتظرنا سفر طويل لمدينة أخرى.

فض الجمع تجمهرهم، وذهب كل واحد لحال سبيله. وصعد
الرفيق كارل ماركس والرفيق أبو نداء في سيارة الرفيق جبار،
التي انطلقت نحو وسط المدينة حيث بيت أبو نداء.

- رفيق جبار ما تريد تشوف حي الزراب؟

- ليش أكو بعد أكثر من هذا الزراب؟!

هناك حيث زقورة أور

كانت السفرة القصيرة إلى مدينة أور، ممتعة جداً، غيرت المزاج المتعب الضجر الذي انتاب ماركس، عند نهاية اجتماع الظهيرة في بيت عبيس. المدينة الأثرية الممتدة في عمق برية واسعة، تجعل المرء يفكر بذلك الوجود المكين، لتلك الحضارة العميقة، التي قدمت للبشرية انجازات طبعت بصماتها ومازالت في حركة وحياء البشرية، إنها علاقة الإنسان بالإنسان، مثلما علاقته بالطبيعة. تلك الأحجار رغم صممها، فإنها تروي حضارة سادت وتسيّدت، كان صراع الطبقات فيها متصاعداً ومستمراً. كان هناك فئات الناس من المنتجين، وهناك في مواجهتهم ملاك الأرض أو وسائل الإنتاج، كل هؤلاء تشي بوجودهم عظمة هذه الزقورة الرائعة الذاهبة بارتفاعها نحو السماء العليا، لتصنع لربها دينه، وتقدم له قرابينها عند مذبحتها. لقد حول الإنسان الطبيعة، بجلالها وجمالها إلى ربّ حاكم مرهوب، رغم تغزله بها ومناجاته لها.

- رفيقنا ماركس ما الذي أوحى لك زيارتنا لزقورة أور؟

سأله الرفيق جبار عند مدخل بيت أبو نداء، وهم يترجلون من السيارة بعد عودتهم لوسط المدينة.

- كنت في حلم من فنتازيا.. تخيلت سيرة حياة هؤلاء البشر، الذين أبدعوا وأعطوا كل ذاك الإرث المادي والمعنوي، دائماً وأبداً الإنسان يصنع التاريخ بحرفية عالية، يصوغ فصوله

المادية مثلما الروحية، إنه يشيد تأريخه وإنسانيته بحرفية مذهلة. هؤلاء قفزوا فوق منظومة المشاعة البدائية، ولكن العبودية كانت تغطي على روابط البشر وقتذاك. التاريخ البشري واحد تشترك فيه جميع الحضارات، ودائماً كان التطور الارتقائي، سمة لوجودها الفعلي. هناك دوائر حضارية لم تعرف العبودية. ولكن تلك الزقورة في مدينة أور توحى بذلك، مثلما الأهرامات في مصر وحضارة المايا في بيرو، فالبشر هناك في سعيهم الجمالي، استندوا على طابع التطور والتناقض، وأرى في ذلك علاقة بنمط الإنتاج المادي حينها.

- هاي شلون طرگاعة يالله؟! أنه أظل دوم مسطور وأثول، ومثل أطرش بالزفة؟

- هاي شببك أبو راهي، أي هسه مو تونسنه وغنينه بالسيارة، وأكلنه خبز عروگ من أيد أم نداء، شنو صار وياك؟

تساءل الرفيق جبار وهو يسمع جملة التذمر والضيق التي أطلقها الرفيق أبو راهي، الذي رافقهم في زيارة مدينة أور التاريخية، وكفلهم شخصياً عند نقطة التفتيش العسكرية، حين ذهابهم إلى آثار مدينة أور، ومن ثم عودتهم إلى مدينة الناصرية.

- رفيق جبار، الحجي بيناتنه الموضوعه مو يم السفرة ولا يم خبز العروگ، ولا صوت عبيس من چان يغني مشيت ويا للمگير أودعنه.. رفيق أني أنسطرت من جواب رفيقنا ماركس على سؤالك.. إي هسه هاي السوالف منين يجيبه ما أدري؟ الله يساعد مرته وجهاله عليه، إذا شهر أمشي ويا، راح أتسودن.

- رفيق هاي المتعبتك؟ كلشي واضح وما يرادله تفسير..
رفيقنا ماركس يگول الإنسان سوه العمائل، ولعب طوبه بالدنيا،
وخلق ولايات وبنه بيوت، والرفيق متونس وفرحان بلي شافه
هناك.

- هاي هيه رفيق؟ جفته من الأخير.. چا شني روحية،
وفصول مادية والمشاعة البدائية وطابع التطور الارتقائي،
وروح أبوك رفيق جبار، لو مو شويه واگفه، ويگولون سوه
خرق بالرفاقية، وچان ما ملتزم بالتسلسل الحزبي، چان گتلك
والحمزة أبو حزامين، أنته هم مسطور مثلي ومضيع صول
أجعاك.

أطلق الرفيق جبار ضحكة مجلجلة وأحاط جسد الرفيق أبو
راهي بيديه ولف معه بدورات كاملة، وراحا في موجة من
ضحك صاخب. كان ماركس ينظر لهما مبتسما، ويحاول
مبتعدا تجنب ارتطامهم به، والتفت نحو أبو نداء، وكأنه يحثه
على إنهاء هذا الوضع، والسماح لهم بالدخول إلى البيت، بعد
هبوط المساء ومشاعر التعب التي أحس بها، ورغبته في شيء
من الراحة.

كان عبيس يتكئ على حافة الباب يطالع رفيق جبار وأبو
راهي بابتسامة رضية تستحسن مزاحهم تلك اللحظات. حين
فاجأهم قائلا.

- من رخصتكم رفاق نص ساعة وأرجع.

- وين رفيق عبيس وين رايح؟

- أبو نداء.. حبيبي أكو شي جوه إيدك حتى أبقه ما أروح؟
- لا رفيق منين... آخر شي خلص على إيدك بگعدة الجمعة
الفايته.

- چا ليش تگول وين رايح رفيق، شني تريدها گعدة يباسي؟
عليك تحضر المزة، وأنه راح أجيب لبن وطرشي وياي.

- عبوسي حبيبي لا تنسه الخس.

- چا بويه شنو إبيتكم بس الماي؟ وهم راح تعشينه تمن
ومرگه. لو چاي وخبز؟

- لا گلت لأم نداء تسويلنه زوج خضيري.

- رفاق تسمحولي أتبرع بسمجة مشوية.

قال ذلك أبو راهي وهو يخرج بعض النقود من جيبه.

- هاي روحية عالية للمشاركات والمبادرات النضالية
الثورية.. حس متفوق بالتضامن ونكران الذات أرفاقي. مو
بيده مناضل عضوي هيه گوه.. جيب لعب إيدك عشرين ألف
دينار بوجه الرفاق تره متضيع، وعلى الأقل رفيق ماركس
يگول ضگت سمج بالناصرية.

هكذا قال الرفيق عبيس ماداً يده نحو الرفيق أبو راهي ليأخذ
النقود، بعدها استدار وذهب بعيداً. دخل بعدها الرفاق بيت أبو
نداء، وجلسوا في غرفة الضيوف التي بدت معالم الرطوبة
ظاهرة على جدرانها. تتوسطها منضدة صغيرة وثلاثة مقاعد
جلدية وكرسي من الخيزران، وصورة مؤطرة لرجل مسن

يرتدي العقال والكوفية، علقت فوق الجدار المقابل للنافذة، التي تطل على باحة الدار الداخلية. جلس ماركس في الزاوية القريبة من النافذة وجلس الباكون قبالة. لم يمض من الزمن غير أقل من نصف ساعة، حين طرق باب الغرفة وسمع صوت امرأة تنادي على أبي نداء، الذي ذهب وعاد حاملاً صحناً كبيراً من الرز، وضعه فوق المنضدة ثم كرر ذهابه لجلب باقي الطعام، بعدها جلس داعياً ضيوفه البدء بالأكل، عندها طلب الرفيق جبار الانتظار لحين عودة الرفيق عبيس، وسأل إن أمكن الاتصال به هاتفياً لمعرفة وضعه، بعدها أجابهم عبيس بأنه قريب من بيت أبي نداء. لم يستمر انتظارهم غير دقائق معدودات حين طرق عبيس الباب ودخل حاملاً بيده اليمنى حقيبة سوداء كبيرة ويحمل كيس آخر بيده اليسرى. جلس ووضع الحقيبة جانباً، وأشار بإبهام يده نحو الأعلى علامة تحقيق النجاح. ناول الكيس لأبي نداء، منبهاً باحتوائه على سمكة مشوية ورأس خس، بعد ذلك فتح الحقيبة وأخرج كومة ملابس ثم لفافة من قميص غطى بها قنينة ويسكي، ثم أخرج قنينة أخرى، فضج الرفاق بالضحك والمديح للمحصل الوافر والجهود العظيمة والبطولة التي يبديها عبيس دائماً، لأجل توفير السعادة لرفاقه.

- هاي شلون دبرته رفيق عبيس ثنين مو واحد وبوكت الممنوع؟!!

- ليش رفيق مو أني عبيس لو غيره؟ رفيق ماركس خطارنا وتريدني أجيب واحد.. شني بويه تريدنه نتمضمض باستكانات

وأحنه خمسه.

- خوب مو مغشوش.

- هاي سوافك أبو راهي، دائماً عندك قاعدة إثارة الشكوك وصولاً للقناعة والحتميات.. ديكارتي مو بيدك، إنته دضوگه وبعدين قرر.⁽¹⁾

- چا مو قبل شهر حصلت واحد وطلع مغشوش.

- أي نعم.. إنته تتعامل ویه صغار القوم.. أحنه نتعامل ویه رأس الأبى.. تعرف شنو ومنو رأس الأبى.

- لا والله عبيس..منو هذا؟

- سيدنا ومولانا أبو حوراء.

- لا.. ابروح أبوك.. صدگ چذب.. أبو حوراء بنفسه.. مو سيد ابن رسول الله، وچماله خاليه مسؤول جبیر، ويحكم بشرع الله بمنطقة السديناوية.

- بويه التجارة والفلوس تعمي العيون.. يا سيد يا حُميد.. وهسه إنته شعليك، أذا سقيت رويحتك العليلة، من إيد سيد لو من أيد عامي.. بالمره الجايه أجييلك بطل من وزير الحصه التموينية.

كان رفيق ماركس يبدو غير معني بما يدور حوله من حديث، فالتقطيبة بدت فوق جبينه، وكان يسلط نظره على مائدة

⁽¹⁾ الشك الديكارتي منهج للتوصل إلى اليقين، وهي فلسفة أبتدعها الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت وسميت باسمه.

الطعام، ذاهباً بفكره في أزقة لندن وعند عائلته التي شعر اللحظة باشتياق حاد لها، سيطر عليه بالكامل. رفع رأسه حين سمع نداء الرفيق جبار له.

- رفيق ماركس وين سرحت.. لنبدأ بالأكل.. ألا تشعر بالجوع؟

- نعم رفيق، ولكن قبل ذلك أحتاج لكأس يعدل المزاج.

عندها ضج الرفاق بحيوية وحبور بسبب طلب الرفيق ماركس هذا، وراح عبيس في موجة صياح وكلمات سريعة متتالية.

- حيهم بويه حيهم.. حيهم.. ألف رحمه على ابهم.. هذولة العذبوني.. هذولة المرمروني وعلى جسر الهولندي عذبوني.. دائماً البدايات الثورية تخليني أروح بعيد، عاشت أيدك رفيق ماركس.. يابه وروحها العمتي أحله ماركس أنته..ورده وروحها البيبتي ورده أنته.

- رفيق عبيس هاي شنو..أرجو الالتزام..

قالها رفيق جبار وهو يرفع الكأس بصحة الجميع

استمر الحديث وتشعب وكان خليطاً من حديث شخصي وعام، تخللته نكات وغناء حسب الطلب، أداه عبيس بمزاج رائع جداً. كل ذلك بينما الرفيق ماركس كان يسرح بعيداً بين فينة وأخرى، وكان يحاول اغتصاب ابتسامة يجمال بها ندماءه. فهو بعيد عن فهم ما يدور بينهم من أحاديث، لا بل لم يكن حديثهم في حقيقة الأمر ليستحوذ على اهتمامه، فهو يفكر في

ساحات قصية بعيدة جدا عن مكانه هذا. هناك في أوربا ومن ثم آسيا ليعود بعدها ويحاول مقاربة ما يحدث هنا مع تلك العوالم. منذ دخوله العراق لحد هذه اللحظة، وهو يدقق ما شاهده ويشاهده وسمعه وقرأه، وتلك الجلسات التي جمعتها برفاق يطلقون شكواهم وشكوكهم بين جملة وأخرى. ينظر إلى وجوههم التي بان عليها التعب، وظهرت آثار الكدح والهموم عليها. هؤلاء الذين يحاولون دائما أن يوعزوا، كل خلل وخيبات أحاطتهم، لجهات بعيدة عنهم، سلطت عليهم كل تلك العذابات. يرمون مشاكلهم ويبعدونها ليلصقوها بعوامل بعيدة جدا عنهم، نافين أية تهمة توجه لذواتهم، إنه مرض الفصام الذي يقبع داخل الإنسان المضطهد. حيث يسقط مسؤولية التقصير الذاتي على الآخرين، أي التخلص من كل ما هو سيء ومؤذ بمحاولة اتهام الغير به، وإبعاد البحث في الفعل الخاص والسلوكيات الفردية والعدوانية التي تتحكم في أفعاله، لتكون في النهاية مقدمة للقناعة، بوجود حالة عامة من الرضا بما يقع، كونه مقدر ومكتوب. وتلك هي حالة البؤس المستعصية التي تحتاج لتفجير من الداخل وليس غير ذلك.

- رفاق أشعر بالحاجة للنوم.. ممكن تناول كأس أخرى لأذهب بعدها إلى السرير.

هكذا بادر الرفيق ماركس منهيًا تفكيره الذي شط بعيداً عن أجواء الصحبة والرفاقية، وذهب به بعيداً في محاولة لسبر غور الأزمة والأحداث، ولكنه لحد الآن لم ينل جواباً مقنعاً يرضي النفس.

- تستطيع ذلك رفيقنا العزيز.. وربما أحاديث رفاقنا الخاصة وغير الذكية سببت لك بعض الإزعاج.

- كلا أيها الرفيق جبار فأنا أشعر بالتعب بعض الشيء.

- لك ما تريد عزيزنا الرفيق كارل هاينريش ماركس.. بصحتك يا أحلى رفيق.. إن ينصركم الله على أعداء الماركسية من الرأسماليين والبرجوازية الكومبرادورية فلا مانع لدينا.. تصبح على خير يا وردة الورد.

أبتسم ماركس بتثاقل، وارتشف كأسه جرعة واحدة، وذهب خلف أبو نداء متوجهاً إلى غرفة نومه التي سوف يشاطره فيها النوم الرفيق جبار. جلس وحيداً يطالع الجدران مثل ليلة البارحة، فشعر بثقل الهواء وحرارة الغرفة الخانقة. مد جسده الثقيل فوق الفراش، وراح يستمتع لصخب الرفاق وضحكهم العالي، وجدالاتهم التي أقتنع بكونها عقيمة، وليست بذات جدوى، لم يطل به التفكير حين بدأ النوم يتسرب إلى عينيه فراح في سبات عميق.

البصرة وجهتنا القادمة

أستيقظ الرفيق ماركس من نومه على صوت الرفيق جبار وهو ينبهه كون الساعة جاوزت التاسعة صباحاً، وعليهم تناول الفطور، والمغادرة نحو البصرة. دهش الرفيق ماركس من كلام الرفيق جبار، فهو لم يخبره البارحة بنية السفر إلى البصرة.

- رفيق لم تعلمني سلفاً بجهة سفرنا؟
- رفيق مثلما أخبرتك سابقاً، فلنا أنا وأنت، جولات في المدن العراقية للالتقاء برفاق يودون اللقاء بك والتحدث إليك.
- حسناً ليكون ذلك.
- رفيق أبو ستار الورد مناسبة حلوه أروح وياكم للبصرة.
- قالها الرفيق عبّيس باستحياء.
- شراح تسوي هناك.. هم قجق لو ممنوعات.. ليش ما تبطل سوافك الفاينات؟
- لا والله رفيق.. نشترى بضاعة بسعر مناسب.. يعني بزبز رفيق.
- قصدك بسنز تجاره.
- بالضبط رفيق رحمة لهداك الجد المات وماضايك البيبسي.
- وأطلق ضحكة لم تنل استحسان رفيق جبار، فظهرت على محياه معالم غضب.

- رفيق عبيس أعرف حدودك.

- العفو رفيق حبيت ألطف الجو..

- لطف الجو، بس أعرف حدودك إنته رفيق.. وأني منو..
هم رفيق.. مو كاعدين دنلعب دومنه.. صح لو مو صح؟

- والله صح رفيق.. أعتذر منك رفيقي.

كان الجو مغبراً حاراً رطباً، حين استقلوا السيارة وودعهم
الرفيق أبو نداء عند الباب ومعه الرفيق أبو راهي. ثم خرجت
السيدة أم نداء، التي توشحت بعباءتها السوداء وكانت تمسكها
من طرفيها، لتطبق بهما حول صدرها وتحت حنكها، وفي يدها
الأخرى حملت أبريقاً مملوءاً بالماء، سكبته على الأرض، حين
تحركت السيارة بعيداً نحو الشارع الرئيسي، المفضي إلى
الطريق الذهاب نحو مدينة البصرة، وقالت بصوت مسموع
محروسين بسور سليمان ابن داوود رفاق.

داخل السيارة ساد صمت مطبق، لا يسمع خلاله غير صوت
خفيف للمحرك، وكان الهواء بارداً منعشاً داخلها. استرخى
جسد عبيس. ودون مقدمات راح في إغفاءة مكينة، وكأنه في
فراش وثير من ريش نعام. صوت جهاز التسجيل يبتث أغنية
طويلة لأم كلثوم، راح يدندن معها الرفيق جبار، ناظراً إلى
الأمم في الأفق الواسع الممتد بعيداً، سارحاً في خياله، حين
رن جرس الهاتف النقال، رفعه الرفيق جبار. كان أبو شمخي
على الجانب الآخر.

- ها أبو شمخي.. شتريد، خوب ماكو شي؟

- هاي هم أجه عقيد أبو رحمه، وهل مره يريد خمسميت ألف.

- شنو.. خمسميت ألف.. قنדרه عتيگه لتنطو، گلولة من يرجع الرفيق جبار.

- رفيق جبار هذا معاند وراكب راسه.. يگول لو اليوم أستلمهن لو أقفله للفندق.

- خوش.. بسرعه هسه ولا تتأخر، بلغ شمخي، گله يگول عمك جبار، مثل ما متفقين، تروح يم الربع بحي الدورة، ويگلهم التلثميت ألف حاضره، وهمه يتكفلون بالباقي. افتهمت لو هم مخك ثگيل مثل الباقيين؟ خبر شمخي هسه خلي يروح للدورة بالعجل.. هو يعرف ويندل.. ياالله ابني السبع.

أغلق الهاتف ونظر نحو الرفيق كارل ماركس، الذي بدا وكأن الصمت يجله، فراح يضغط على أطراف أصابعه بحركات لا إرادية، وينظر نحو الصحراء الرملية الصهباء الممتدة في البعيد. كان يشعر بشيء من الندم المخلوط بالضجر والملل، ويلوم نفسه بسبب انقياده، لقرارات الرفيق جبار، التي لم تكن في الكثير منها، مبعثاً للتفاؤل والراحة، ولم يحصل منها أو يستخلص، ولحد الآن، نتائج إيجابية تنفعه في دراسته، رغم أن مجيئه إلى العراق كان قراراً طوعياً، ومن المفترض ومنذ البداية أن يملئ شروطه، بما يحقق له ولبحوثه النجاح، ويمكنه الحصول على توثيق لتجربة يعرضها لرفاقه وجمهوره في لندن بعد العودة. ولكن جبار ورفاقه والوضع الهلامي غير المستقر دفعاه للانقياد والرضا، عن خطط هذا الرفيق الأناني

الغامض.

عند الاقتراب من مدينة البصرة، وعند تقاطع طريق محمد القاسم مع طريق المطار، أوقفتم دورية عسكرية، كانت تقف ليس بالبعيد عنها دبابة أرامز وثلاث عجلات مدرعة.

- وين رايعين..؟

- للبصرة عزيزي أبو خليل الورد.

- يمعودين يا بصره هاي.. أرجعوا أحسن ألكم، تراه ممنوع، الوضع خطير جداً، أهنالك معركة أبين العشائر، ويستعملون بيها كل الأسلحة وجميع الطرق إلى البصرة مقطوعة.

- هسه تفض حتماً. الخيرين هوايه وهسه يحلوها.

- يا خيرين يا ميرين. صار من أول البارحة العصر وليهسه والهونات رگع.

- لا بربك هاونات؟

- چا بويه ما تسمع الهبد صوته يوصل لهنّا.

استيقظ عبيس من غفوته وسأل عن الذي يحدث. وكان ماركس يحاول بدوره الإنصات ومعرفة ما يدور من حديث بين العسكري والرفيق جبار.

- ها رفيق جبار شنو ما شنو.. خوب ما صاير انقلاب لو تمرّد.

- عبيس أشو ما تسكت خل نفتهم زين.. إي أبو خليل، والحرب هذي شنو سببها؟

- والله ابن عمي يگولون خروف طاب بمزرعة عشيرة ألبو حميره وجهال العشيره لازمينه وذابحينه وصار ما صار. وهاي من أول البارحة ولحد اليوم تتفاوض الوادم.. والتمت الساده والحكومة عليهم، بس القتال ما وگف، وكل عشيرة راكبه راسها.

- إي هذوله مو تعاركو العام على تلت نخلات.. شنو بس يردولهم حجة حته يتكاتلون.. يبين عدهم سلاح هوايه.

- لوين وصل طيخان الحظ بهذي الناس. لو ابن صبحه المشعول بعده عايش چان عرفو شلون يتكاتلون.. چان هجم بيوتهم على روسهم، وخلاهم يبوسون أديناته ورجليناته، ويركضون حفاي حتى يقبل منهم يتنازلون عن حقهم.

قال ذلك الرفيق عبّيس، وهز الرفيق جبار رأسه تأييداً لما قاله. ثم توجه الرفيق جبار إلى الرفيق ماركس شارحاً له الوضع والحادث، الذي يعترض ذهابهم إلى البصرة، وعليهم أن يغيروا خط سيرهم والاتجاه إلى مدينة العمارة بدلاً من العودة إلى الناصرية.

- هذا هو حال العراق عزيزنا الرفيق كارل ماركس فما نحن فاعلون.

هكذا قال الرفيق جبار بتذمر وضجر ظاهرين

- دائما حين تهزل السلطة وتضعف مؤسسات الدولة وتزول الملاحقات القانونية، تتفجر مختلف النوازع الجرمية العدوانية، وتطفح نحو السطح مختلف أشكال العنف والاعتداءات وخرق

القانون، دون مراعاة لأي حقوق للإنسان، ومن ذلك حقه الطبيعي بالسلامة الشخصية والعيش الآمن. يحضرني الكاتب فرانز فانون⁽¹⁾ حين ذكر في كتابه معذبو الأرض، أن البشر الذين خضعوا للغة القسوة ولزمن طويل، لا يمكن لهم أن يفهموا غير لغة القسوة، ولذا عندما يريدون أن يحزموا أمورهم تراهم يعبرون عن أنفسهم بلغة القسوة، وهذا ما يفعله هؤلاء اليوم. وهذه الظواهر المتخلفة في بلدكم اليوم هي نتاج القسوة التي مورست على الناس في مختلف الأزمنة. تبدو اليوم مستعصية، ولكن يجب أن تقاوم، ويكون هناك نضال شرس ضدها، والعلاج يجب أن يكون شمولياً، ولا يقتصر عليها، بل يشمل جميع المفاصل والعيوب الاجتماعية.

قال ماركس ذلك وهو ينظر بتوجس نحو الجنود الذين تجمعوا جوار الآليات العسكرية، الواقفة عند تقاطع الشوارع الذاهبة إلى البصرة، لمنع الناس من الدخول إلى منطقة النزاع العشائري.

- هاي هم قسمة مو زينة، مثل ما يقول السيد فافون.. مراح نحصل شي.. بس هم بيه صالح، إذا تروحون للعمارة أروح وياكم، أبقالي يومين يم عمامي.. رفيق جبار راح نروح للعمارة مو هيحي؟
تساءل الرفيق عبيس.

⁽¹⁾ فرانز فانون طبيب نفسي وفيلسوف من مواليد جزر المارتينيك الفرنسية. أنظم كطبيب إلى جبهة التحرير الوطني الجزائرية وتوفي بمرض السرطان عن عمر 36 عام.

- خوش تعال ويانه نذبك هناك وبعدين نقرر شنو نسوي.
إحنه هم عدنه چم رفيق بالعمارة يمكن أنشوفهم.

استدارت السيارة وأخذت الطريق الضيق الذاهب شمالاً نحو
قضاء المدينة حيث يرتبط في النهاية بالطريق العام المؤدي إلى
مدينة العمارة.

- شوف رفيق شلون سوه بينا الاحتلال، وين چانت كل هذه
المعارك والخصومات.

قالها الرفيق جبار بحسرة وكان ينظر في المرأة الأمامية
ليطالع الرفيق عبّيس الذي بادلله النظرة وهز رأسه موافقاً على
ما ذكره.

- ولكن رفاقي، لا يمكن أن يعزى كل خلل وخطأ وفعل مؤذ
للاحتلال، لابد من الابتعاد عن هذه الصورة المفرطة التبسيط،
ورمي كومة الخيبات والجرائم على مفردة واحدة، صحيح أن
الاحتلال مقيت، وأتى بالعديد من المساوي، ولكن الكثير مما
حدث ويحدث لا علاقة له بمحتل، بقدر ما يتعلق بطبيعة ونمط
التفكير الذاتي السيئ، وهذه الممارسات والنوازع الجرمية، لها
أسبابها الذاتية المجتمعية وعلاجها يتطلب جهداً استثنائياً على
المدى البعيد.

كان لقول ماركس هذا صدى غير حسن عند الرفيق جبار
الذي زم شفتيه بتذمر بائن.

- ولكن رفيقنا العزيز لم يكن ليحدث هذا، قبل أن تدخل
قوات الاحتلال الأمريكي.

- نعم لقد فكك المحتل مؤسسات الدولة، وبالذات منها المؤسسة العسكرية بمختلف صنوفها، أي هشم المحتل أجهزة القمع السلطوية، ولم تتكون بعد قوة بديلة تحل محلها. ونشأ نموذج جديد من تشكيلات اجتماعية سياسية، برزت في هياكلها وتشكيلاتها أنماط مستحدثة لسلطات وليس سلطة واحدة، ومافيات استغلت هذا الفراغ، لتبني عروشها، وهذا ما ينخر جسد الدولة العراقية اليوم، ويطعن في وجودها وهويتها الفعلية..

- أيباه رفيق چنك بگلبی.. والله قبل سنتین چنت اگول للرفاق مثل هذا الحچی بس میصدگونیی.. یگولون عبییس یقره جراید ویگوم یمسلت ویثرم براسنه بصل.

- أنته کلشی وچنک تعرفه.. عبییس بطل سوالفک های، مو علینه تره حتی ثلج گلینه.

- جاهیه حزوره رفيق.. هاي السوادین الصابت کل هذي الوادم.. شنو چانت، أبره لو كبسوله انطاها إلهم الأمريكان، هیه هاي مو مويلاتنا لو غریبة علینه؟!

- خوش رفيق عبییس.. مو تنسه من ترجع عود خبر رفاقنا بلی صار.

- لیش ما تخابر إنته أبو نداء هسه وتشرحله، وهم بالمناسبة یخبر أمی یگلّه أنه راح أبات بالعمارة عد عمامي.

- أي مو عندك تلفون ما تخابر إنته.

- رفيق جبار والحمزة ما عندي بی رسید.

- عبيس.. يوميه تشلع من جيوب الناس الآلاف وهسه تبجي
وتگول ما عندي رصيد. أشو أطيني تلفونك.

- رفيق كون على ثقة.. ليش متصدگدني

- أصدگك رفيق.. ما بيه شي أنطيني التلفون حتى أصدگك
أكثر.

- ما چذب عليك.. والخوه الرصيد مصفر.

- والله أنته أكبر چذاب وسختجي.

- رفيق جبار شني السالفة.. تشاقه لو صدك تحجي؟!

- لا ما أشاقه.. أنه أعرفك لعبي وسختجي.

- هسه تريدني گدام الأجانب أفضحك فضيحة.. أنه
السختجي لو إنته.. كافي عاد!

- عبيس تره إتجاوزت حدودك.

- رفيق جبار انتھ البديتها واعتديت عليّ.

- شوف عبيس لوما رفيق ماركس ويانه چان راويتك انتھ
منو..

- أيباه.. مو أطلع الخياس مالتك كله..

- يا خياس ولك؟

- لا تگول ولك.. أبن الرگاع.

- لا يا نغل ابن الحفافة.

- حفافة مو حفافة أشرف من النهيبة.. مو رفيق جبار،

أحجي منو النهيبة؟

- ولك أنته صدك مو آدمي وما بيبك حظ.

فجأة ضغط الرفيق جبار على كابح السيارة وأوقفها في منتصف الطريق ثم جعلها تميل نحو الحافة الترابية للطريق وطلب من عبيس مغادرة السيارة. كانت حالة غضب وانفعال شديدين يسيطران على كليهما ولم يجد الرفيق ماركس ما يفعله معهما. فهو لم يكن ليعرف شيئاً عما دار بينهما بقدر ملاحظته لسورة الغضب التي انتابتهما، أما أسبابها فكانت بعيدة عن فهمه، فحوارهما باللغة الدارجة والسرعة بالكلام كانت تمنع عنه معرفة الأسباب.

فتح عبيس باب السيارة وترجل منها ونظرات الغضب تتطاير من عينيه كالشرار.

- شوف جبار ابن الركاغ.. خلي ابالك بعد ما ألك طبه للناصرية. والخاطر الرفيق ماركس الكاعد يمك راح اعوفك هسه. رفيق ماركس تراه جبار أكبر لعبي وحرامي.

- يله سد الباب أو ولي..

صرخ الرفيق جبار بقوة وضغط على كفة الوقود لترتفع السيارة عن حافة الطريق وتسير بأقصى سرعتها، تاركاً الرفيق عبيس وحيداً في طريق شبه مهجور، تغطيه عاصفة ترابية خلفتها عجلات السيارة.

- ما الذي فعلته رفيق جبار، أوقف السيارة فلا يمكن تركه في هذا المكان الموحش، على أقل احتمال عليك مسؤولية

إيصاله إلى مدينة قريبة.. ربما يتعرض إلى خطر الحيوانات أو شيء آخر.

بادر الرفيق ماركس بالحديث بصوت غاضب متهدج، وكان قد استدار برأسه نحو الخلف ناظراً نحو الرفيق عبيس الذي بدأت صورته تبتعد كثيراً عن الرؤية.

- أتركه إنه لا يستحق أن تهتم به فهو فوضوي وصبياني وخبيث ولن تجد فيه نفعاً.

- ولكن لا يمكن أن نتركه لوحده في طريق مهجور.

- الطريق ليس مهجوراً وسوف يجد من يقله معه.. رفيق لا تهتم بمثل هذا فهو حثالة كذاب ومنافق لا بل تافه، وما أله أي علاقة بالشيوعية.

صمت الرفيق ماركس مع هذا العناد الذي أبداه الرفيق جبار. ولم يكن ليستطيع استيعاب انهيار تلك العلاقة الحميمة بتلك العجالة. ربما لهذا الموقف سوابق أو كوامن طفحت فجأة، لتتحول إلى شر وسوء وإثم كبير اقترفه الرفيق جبار، وحتى إن كان للرفيق عبيس يد فيه. استنكر ماركس مع نفسه ردود الفعل المفرطة في شدتها، التي مارسها الرفيق جبار وجاءت بما لا يتناسب حسب ظنه، مع ما اقترفه عبيس من مخاشنة، وشعر لحظتها بتعاطف مع شخصية عبيس، هذا البرولتاري الرث الذي يمسك الدنيا من تلابيها بقوة ويلوي ذراعها ويدجنها بنكاته ومرحه وروح الجماعة التي تتلبسها شخصيته، إنه لا يستحق ما فعله الرفيق جبار. والرفيق جبار بتصرفه هذا

يدل على امتلاكه طيش منفلت وروح عدوانية، فالخلاف اللفظي لا يستحق منه مثل هذا الانفجار العنفي، ومع من، مع رفيق مقرب منه. ومن الجائز أن هذا الموقف غير المنطقي والملتبس سوف يعتمل في نفس عبّيس، فيجعله يرتد ويبتعد عن رفاقه وحزبه.

- رفيق إني لا أجد في فعلتك شيئاً من الحكمة.

- اترك الأمر.. فأنا لا أرغب الحديث عنه.

- أعتقد أن عليك مراجعة نفسك، والعودة إلى حيث تركنا الرفيق عبّيس.

- أعود لجلب عبّيس!؟.. أعوذ بالله، هذا مستحيل.. لقد خرق جميع الأعراف الحزبية والاجتماعية.. شتمني وحاول الحط من قيمة عائلتي.. لقد تصرف بحقد وعدوانية.

- كان من الممكن حسم الأمر بالسكوت عن مناكדתه، وعدم الحوار معه وتأجيل ذلك لوقت آخر، وأنت المسؤول الحزبي، ومن ثم، وهذا هو العقلاني في الأمر، إيصاله إلى أقرب مدينة من هنا، وليس تركه في منطقة نائية.

- رفيق ماركس أنت لا تعرف شنو صار. وبحدود فهمك الماركسي وليس الحزبي، وبسبب عدم ارتباطك بتنظيم حزبي، لا تعلم كيف استغل عبّيس الوضع وخرق التعاليم والتراتيبية الحزبية. أرجوك رفيق ماركس لا تتحدث بما ليس لك معرفة فيه.

لم يرغب الرفيق ماركس باستمرار النقاش على هذا

المنوال، وما عاد يحبذ الحديث حول سلوك الرفيق جبار الجانح، وما عادت لديه بعد ما سمع جملة الرفيق جبار الأخيرة، الرغبة في استمرار الجدل حول هذا التصرف الذي عده غير سوي، فقرر الصمت وترك الرفيق جبار لتوتره وعدوانيته، فهو الآن في حالة تعبئة نفسية استعداداً للمواجهة أو الصراع، وربما انفجر الموقف بينهما ومن ثم يصعب بعدها ضبطه وتهديته.

- رفيق جبار بعد الذي حدث، أرى من المناسب العودة مباشرة إلى بغداد.

- نعم رفيق ماركس، ولكن سوف نتوقف قليلاً لتناول الغداء في مدينة العمارة.

- لا أعتقد أننا بحاجة للغداء ونستطيع الذهاب فوراً إلى بغداد دون حاجة للتوقف.

- حسناً رفيق.. مثلما تحب، وهناك أمامنا أيضاً مدينة الكوت ثم النعمانية، ويمكننا تناول الطعام في إحداهن إن شعرنا بالجوع.

- لا.. لا أرغب في تناول الطعام لنذهب مباشرة إلى بغداد.

- مثلما تحب رفيق..

حاول الرفيق ماركس بكل ما استطاع من قوة روحية أن يدع جسده يسترخي ويبعد عن ذهنه تلك المشاجرة، وصورة الرفيق عبيس وهو يقف في الطريق الموحش البعيد. طال عليه التفكير فأحس بالتعب والعطش، ولكنه صمم في قرارة نفسه ألا

يتناول شيئاً لحين الوصول إلى بغداد، وهناك سوف يكون له حديث مع الرفيق جبار، ثم بعدها يجمع أغراضه، ويعد حقائبه اختصاراً للسفرة، واستعداداً للعودة إلى لندن. فضيق الأفق والعجالة والعصبية، يبدو أنها وضع مأزقي يعيشه الرفيق جبار، وهو لا يود الاستمرار معه، لكي يضمن عدم الاصطدام به، فربما وبعد وقت قصير سوف يعامله ذات المعاملة التي عامل بها رفيقه عبيس. في حوارهِ الداخلي الذي استمر طويلاً، كان الضيق والكثير من الهم، يسيطران على روحه، خلال ذلك تسرب النعاس إلى عينيه فراح في إغفاءة عميقة.

- رفيق ماركس.. نعيماً.. لقد نمت طويلاً.

- شكراً رفيقي.. أين نحن؟

- رفيق لقد اقتربنا من بغداد.. أنا أشعر بالجوع.. هل لديك رغبة بالطعام.. هناك مطعم جيد عند مدخل مدينة الصويرة نستطيع تناول الطعام فيه.

- ومتى نصل بغداد؟

- ساعة أو أقل.. ليست بعيدة من هنا.

- ولماذا لا نذهب مباشرة إلى بغداد إذا كنا ليس ببعيدين عنها. أفضل تناول الطعام في بغداد.

- مثلما ترغب.. اعتقدت بأنك تشعر بالجوع مثلما أنا عليه.

- لا أشعر بالجوع.. يمكنك تناول الطعام حينما تشاء واطركني جالساً في السيارة.. فأنا أستطيع الانتظار.

- لا لن يكون هذا يا رفيقي.. لنذهب إلى بغداد مثلما ترغب.

الاختطاف

البساتين تبدو متراصة متداخلة، بكثافة نخيلها الممتد على جانبي الطريق. بقرة عجفاء تجتاز الطريق بتثاقل، أجبرت الرفيق جبار على إبطاء سرعة السيارة. عربة خشبية يجرها حصان متهالك، وقفت جانباً، لوح سائقها بيده، في الوقت الذي كان يتحدث بهاتفه النقال. كان الرفيق جبار مثلما عادته حين يشعر بالتوتر، يأخذ بالعبث بمفتاح جهاز المذياع، ولا يستقر عند محطة بعينها. كان ذلك مبعث ضجر للرفيق كارل ماركس. عند انحناء الطريق، وفي أرض مكشوفة، وقفت دورية عسكرية طلبت منهم التوقف، فتوقف الرفيق جبار وسلم عليهم. كانوا خمسة أشخاص أحاطوا بالسيارة شاهرين أسلحتهم الرشاشة. إقترب أحدهم ووجه كلامه بحدة إلى الرفيق جبار، وكان آخر قد جاء من جهة الرفيق كارل ماركس وفتح باب السيارة عنوة، صارخا بماركس، بأن يترجل من السيارة.

- بسرعة يله أنزلو من السيارة.. بسرعة.

- شنو.. شنو الصار.. يمعودين.. هاي شكو.. قال الرفيق جبار؟

- انزل لك أثول مخربط.. انزل.

- لتغلط.. إي ليش تغلط..

فجأة بادره العسكري القريب منه بضربة قوية على وجهه،

ثم وضع فوهة الرشاش فوق صدغه، صارخاً عليه أن يترجل وينبطح أرضاً، دون كلام، ففعل الرفيق جبار مثلما أمر به. أمر العسكري الآخر الرفيق ماركس بالانبطاح على الأرض فرفض، فبادره العسكري بضربة قوية بأخمص بندقيته على ظهره، جعلت ماركس يترنح ثم يقع أرضاً، وشعر بألم شديد يجتاح جسده من أعلى الظهر حتى قدميه، وزاغ بصره وأحس بشيء من الغثيان. لم يكن يدري ما يفعل، وتساءل مع نفسه لماذا يتعامل معهم هؤلاء الجنود وبهذا الشكل الفظ. راح العسكريون يعبثون في الصندوق الداخلي للسيارة، ثم سحب أحدهم محفظة الرفيق جبار وأخذ يفتش فيها. عثر على هوية ديوان رئاسة الجمهورية. وعثر في صندوق السيارة الداخلي على مسدس. فصاح بأعلى صوته منادياً على أحدهم الذي وقف بعيداً يراقب الوضع.

- عمي حجي أبو بشير.. حجي تعال هنا.. محصول دسم.. سيارة وفلوس وعريس بس بقت العروس.

- يله لتطولوها.. لتسولنا مشاكل.. صعودهم بصندوق السيارة وجيبوهم.. خلونه نمشي بسرعة، قبل ما تجي الدوريات.

قيدوا يديه إلى الخلف بخرقه ملابس، وغطوا وجهه بكوفية فلم يعد يرى شيئاً. سحبوه بقوة ثم رفعوه من يديه، وحشروه في حوض السيارة الخلفي، جوار الرفيق جبار الذي لم تعد تصدر عنه كلمة واحدة، وبدا وكأنه جثة هامة، بل كان صوت تنفسه مثل فحيح أفعى. انتابت ماركس حالة من غثيان، جراء رائحة

العطن التي تحملها الكوفية التي عصبوا بها عينيهِ، فشعر
بحاجة للتقيؤ. كان جسداهما يرتفعان ويهبطان ويرتطمان
ببعضهما، مع اهتزاز السيارة التي شعرا بسرعة سيرها على
طريق غير معبدة وملينة بالحفر. بعد مضي ما يقارب النصف
ساعة توقفت السيارة فسمع ماركس ضحكات أطلقها من كان
يجلس في مقاعد السيارة ودار حوار بينهم ورجال كانوا خارج
السيارة.

- الله يساعدهم.

- هله بولد العمام.. هاي سيارة جديدة.

- إي والله اليوم الصبح اشتريناها من معارض البيع.

- عدكم ممنوعات؟ رافق السؤال قهقهة بصوت عال
صدرت عن الجميع.

- يابه والله إنت سيطرة مضبوطة.. تريد تفتش السيارة،
ننزل وفتش ملابسنة الداخلية.. حتى أسولف العمي حجي
رشيد، شلون السيطرة صارت تلعب بقلايلا.

- لا عمي شراح يخلصنه من الحجي، مو هيچ عمي أبو
بشير.

- عفيه وليدي، والله ابن حموله وتعرف الأصول، بس عمي
تقدر تقوم بواجبك الرسمي وتفتش السيارة.

- مو عيب عمي.. شنو إنكلبت الدنيه.. چلمتك كافية عمي
الحجي.. الله وياكم محروسين.

- شكرا وليدي.

تحركت السيارة ببطء وبدأ الاهتزاز يزداد ويسبب ألماً حاداً في مواضع كثيرة من الجسد. في هذه اللحظة أراد ماركس حصر تفكيره بما يدور حوله، في محاولة لمعرفة السبب الذي جعلهم يقعون بيد هؤلاء. تساءل، ياترى من هم هؤلاء؟ وإلى أين يأخذونهم؟ وإذا كانوا من العساكر الحكومية، فلماذا يعاملونهم بهذا الشكل السيئ. ما الذي جعل الرفيق جبار بهذه الحال، لماذا لم تصدر عنه أية كلمة. دفع بجسده بقوة نحو جسد الرفيق جبار ولكنه لم يجد منه ما يوحي بالاستجابة. وبصوت خافت سأل.

- رفيق جبار ما الذي حدث؟

لم يسمع جوابا من الرفيق جبار لذا راح ينادي صارخا

- أين نحن.. ماذا تريدون منا؟.

فأجابه أحدهم بحدة.

- إنجب لك أثول تره أجيك وأطشر مخك..

عندها سمع صوت جبار الخافت يقول.

- عوف هذا الأمر، لا تتحدث هكذا معهم.. سوف يقتلوننا إن عاندتهم.

- ومن هم هؤلاء..؟

- عصابة خطف.. نحن اختطفنا.. اختطفونا وبعدين نعرف ما الذي يفعلونه بنا.. علينا الصبر لعلنا نجد مخرجا أو حلا

قريباً.

صمت ماركس وما عاد يفكر بالألم الذي يولده اهتزاز السيارة وارتطام رأسه بسقف الصندوق. شعر بأن فكره أبتعد قليلاً، ولم يعد يكثرث لمكانه الضيق الذي حشر فيه مع جبار. فكر بالقدرة الغريبة للطبيعة البشرية على البقاء بلا مشاعر إنسانية، بلا وعي للآلام التي يلحقونها بالآخرين. فهو يعرف الساعة بل هو على يقين بأن قول تيمون الأثيني⁽¹⁾ كان صواباً وقيناً كاملاً، وهو بالتحديد يعني هؤلاء المصابين بلوثة المال، حين قال في المسرحية، إن العهر المشترك للجنس البشري هو المال، المال لعنة الإنسان التي لا تضاهيها لعنة، فهو الذي يدمر المدن ويغوي ويفسد أجمل ما في الروح من معاني، إنه طريق الفجور والعار، وهؤلاء سائرون في هذا الطريق. كان يعتقد مع مضي كل تلك العقود من السنين، التي دون فيها ما يكفي من خبرات ونظريات، وصنع ما استطاع تقديمه هدياً للبشرية، في طريق خلاصها من العبودية ربما كان كافياً، ولكنه أحس اللحظة، بأنه لازال بعيداً جداً عن الانتهاء من مهمته، فالحالات تظهر وتتوالد أمامه دون نهايات، ويجد نفسه يتقدم ببطء شديد جداً نحو اكتشافها، وتتطلب منه مزيداً من الصبر والتفكير والبحث. فهذا الشعب العراقي منذ تأسيس سلطته الوطنية عام واحد وعشرين في القرن الماضي ولحد الآن، تركت الأحداث فيه إن كانت صعوداً أو هبوطاً، نجاحاً أم

(1) تيمون الأثيني 1623 بالإنجليزية Timon of Athens هي مسرحية للأديب الكبير شيكسبير.

خبية، آثارا هائلة طبعت تشكيلاته الاجتماعية بالكثير من سوء والشك والريبة والقسوة، ولم تمنحه ما يكفي لبناء طباع خيرة نقية متكاملة، ولذا لم يعد قادراً الاستقرار على حال واحدة، فمسيرته صعودا نراها تتعثر ثم تهوي، دون ظهور لمن يهتم برؤية عميقة لمصالح الناس الحيوية ودوافعهم المادية، ليلجم تلك الصراعات التي باتت تسحب الجميع نحو الفرقة، وتدفع بهم لتشكيل عوالمهم الخاصة المغلقة والقاسية والأنانية.

توقفت السيارة فسمع ماركس أحدهم ينادي من بعيد ويطلب جلبهم إلى البيت. إنفرج سقف صندوق السيارة، وامتدت أياد لتسحبه والرفيق جبار خارج الصندوق، ثم رفع أحدهم الكوفية عن رأس ماركس وفعل هذا مع جبار. نظر ماركس نحو جبار فشاهد خطأ خفيفاً من الدم يهبط من أنفه نحو فمه. جال بنظره المكان، فوجد نفسه يقف أمام ساقية ماء وضع فوقها جسر خشبي صغير، وثمة بيت مشيد من الطابوق الأسمنتي يقع في الجانب الآخر من الساقية، تحيط به أشجار فواكه كثيفة، وثمة بستان نخيل يغطي المكان، ويمتد بعيداً خلف البيت وكذلك أمامه. وفي الخلف كان هناك الطريق الترابي المتعرج الذي اجتازته السيارة، يخترق بستاناً ظليلاً بنخيله وأحراشه. كان المسلحون المدججون بالسلاح يحيطون بماركس وجبار، البعض الآخر ينتشر بعيداً قرب البيت. عدهم فكانوا سبعة مسلحين.

- ودي السيارة يم بستان حجي رشيد وسلملي عليه، وگله أبو بشير يگول خلیها یمك أمانه فد چم يوم.

- صار حجي.

تحركت السيارة عائدة نحو الطريق الترابي، بينما سحب آخرون ماركس وجبار من فوق القنطرة الخشبية عبورا إلى البيت، ثم أدخلوهم إحدى غرف البيت الضيقة الرطبة الخالية من الأثاث، بابها حديدي أصابه الصدا، يصدر صريراً قوياً عند فتحه، وأرضها رصفت ببلاط أسمنتي مترب. جلبوا لهم بطانيتين فرشوهما أرضاً ثم فكوا قيودهما وطلبوا منهما الجلوس.

- هذا أبو كفشة جوازه يگول ألماني. زين وأنته الآخر عقيد جبار وبديوان الرئاسة، شنو علاقتكم أبعض؟

ثلاثة رجال يقفون شاهرين بنادقهم نحو الرفيق ماركس والرفيق جبار وراحوا يوجهون أسئلتهم ويرقبون ردود الفعل.

- إي لك عقيد جبار سولف.. منيلك هذا الطير المكش.. هم عسكري مثلك.. لو جاسوس لو مدرب.. شنو يشتغل وياكم بالقصر الجمهوري لو بغير مكان؟

- چنت عند أصدقائي بالناصرية، وكلفني أحدهم بنقل هذا الأخ الألماني إلى بغداد، وأحلف بالقرآن ما چانت عندي سابق معرفة بيه. وهذه الهوية مالتی مزورة، أني مو عقيد ولا حتة جندي.. شوفوا هويتي الثانية شتقره.. مو موظف حكومي.

هكذا أجاب جبار على السؤال. وكان ماركس صامتاً ينظر إليه بتعاطف، فهو يرثي لحاله المزري ويرى دمه النازف وقد لوثت قميصه بعض قطرات منه، وفكر بأن جبار يكذب الآن

ليبعد عن نفسه شبهة ما، يظنها خطر عليه، ولكنه تساءل، لم يفعل هذا إن كان الأمر يتعلق بالنقود وليس شيئاً آخر، مثلما أخبرني.

- لك قشمر.. هذي مو مشكلتته.. صديقك.. تعرفه ما تعرفه ما يهمنه.. إنت هسه أطينه تلفون رئاسة الجمهورية، لو رقم تلفون نتصل بيه وأحنه نعرف شلون ندبرها وياهم.. خوش.

- وخير البر عاجله.. نريد منك توقعلنه على أوراق بيع وتحويل ملكية السيارة، وراح نشوفلنه صرفه بصاحبك الألماني لان شغلته دسمه باليورو مو بالدولار..

- يابه والله العظيم أني مو عقيد، وهاي الهوية مزورة والسيارة مو باسمي.. وهي منيفست.. تگدرون تأخذوها، وفكوني خلوني أروح الأهلي.

- خوش هم زين گلتنه راح نسويلها أوراق جديدة.. أگلك قشمر.. شنو يابه فكوني أروح الأهلي.. ليش شنو گالولك عدنه مدارس، ومن تصوير الحلة تروح الطلاب لبيوتها. شوف إذا ما تتعاون إنت وأهلك، تره البستان جبير ويوصل لحد نهر دجله وهناك راح أتسيس جتتك.

- زين إنتم مو أخذتوا السيارة... فلوسها ما تكفي.

- إنت مو تگول السيارة مو أبسمك.. إي شعليك بيها.. هي حصة غيرنه.

فجأة صرخ رجل آخر هازئاً.

- لك هاي شنو اللغوة.. إنت هذا الحلو المريش هيچ رخيص

تتقيم بفلوس سيارة.. والله عيب عليك، ما تستحي طول بعرض وجهامه، هسه لو مريه چان گلنه ميخالف..گسه بگسه نأخذ السيارة ونرجعك الأهلك.

أطلق المسلحون ضحكات هازئة وقدم أحدهم هاتف جبار النقال إليه، طالبا منه إظهار رقم هاتف أحد ما، يستطيعون الاتصال به. فعل جبار مثلما طلب منه وأعاده لهم.

- هذا تلفون أخويه رضا.

- أوكي الحجي هو اللي راح يقرر شنسوي وياكم.. وهذا الألماني عندك معرفة بتلفون جماعته.

- لا ما عندي.. ومثل ما گلتكم، صدفة كلفني صديق بالناصرية لنقله إلى بغداد.

- لكم إنتم تدرون.. هذا بس لحيته تسوه مليون يورو.. وراح نطلب من السيدة أنجيلا ميركل ادزلنه فصلية خمس نسوان مجگنمات مسنعات ألمانيات مو بشكل الخشبة العندي... يايميممه... فدوه للنبي.

- ولك هاي منين أنجيلا ميركل؟

- حبيبي أبو رزوق ما عليك بهذي السوالف.

- لا بروح الوالدة هاي منو أنجيلا ميركل.

- ولك هاي رئيسة ألمانيا وبيدها كلشي وأم الكل.. ومن تحجي تغرد..تقره وتكتب...وأدير دولة جبيرة مو مثل جماعته مخربطين ما يعرفون غير طيحان الحظ.

- صدك لو گال عنك عمي الحجي.. لعبي وبراسك ألف شيطان.

- دمشي أمشي بس هاي تعرفه.. أكو واحد ما يعرف ميركل
- لوتي.. انتة أسم بيبيتك ما حافظه.. أنوب ميركل.

خرج المسلحون من الغرفة يتضاحكون وأغلقوا الباب وراءهم ووضعوا سلسلة حديدية ربطت دفتيه بإحكام من أعلى. ساد صمت بين الرجلين، ولم تكن هناك رغبة ملحة لدى ماركس للحديث مع الرفيق جبار، الذي مد جسده فوق البطانية وراح يطالع سقف الغرفة. كان ماركس يريد إدخال شيء من الطمأنينة إلى نفسه ففكر بحصانته الشخصية كونه أجنبي وليس عراقياً، وهذا يكفي لجعل هؤلاء يحذرون التعامل معه بقسوة ورعونة أو إذلال. ولكنه وكمن يبحث عن ملاذ أو ملجأ ليجد نفسه في نهاية المطاف واقفاً في فضاء مفتوح مكشوف دون سقف يحميه، وقد جرب ذلك حين عومل منذ البداية بابتذال وقسوة، لم تكن لتهتم بكونه أجنبياً غريباً، ولذا عليه إعادة حساباته وعدم الاطمئنان. فربما تكون أجنبيته وبالأعلى عليه، ودافعاً حقيقياً لهم، ليهملوا وضعه ثم يفكروا بالتخلص منه.

نظر نحو جبار وقال.

- لماذا كذبت عليهم.. ما الذي دفعك لهذا الفعل؟

فأجابه جبار هامساً.

- نعم ما عندي معرفة بك.. فقط كلفوني بنقلك لبغداد. أنت ما تعرف شلون يفكرون هذوله.. علينا أن لا نظهر لهم علاقتنا

الشخصية والرفاقية، فذلك حتما راح يكون دافع رئيسي لتهور أحدهم وتسارعه بقتلنا. فأغلب هؤلاء عندهم عدااء مستحكم للشيوعية، فكيف بهم لو عرفوا منو أنت وما علاقتك بي. ليفكر كل منا بوضعه الخاص دون خلط الأمور. أرجو أن تتفهم هذا.

- حسنا ربما تكون على حق...وما الذي جعلنا نصمت حين وصلنا السيطرة العسكرية.

- حسنا فعلنا.. هذولة ما چانوا يتورعون حين يكتشف أمرهم، بقتل الجنود وقتلنا أيضا.

لم تمض غير ساعة واحدة حين تحركت السلسلة الحديدية، لينفرج بعدها الباب ويدخل الرجال المسلحون ذاتهم. كان المساء يهبط رويدا فبدا الظلام يحيط بالمكان، لذا حمل أحد المسلحين مصباحا يدويا سلط ضوءه عليهم، ثم ركزه على وجه الرفيق جبار قائلا.

- راح أسلمك التلفون حتى تحجي ويه أخوك رضا.. إذا گتله شي عن المكان، لو شنو صار وياكم، أعتبر نفسك ميت.. خوش.. گله אני زين وخلي يطى المطلوب منه حتى نطلق سراحك.. أوكي أبن عمي..

- مخالف.

أجاب جبار ورفع يده ليأخذ جهاز الهاتف، فكان صوت أخيه المضطرب على الجانب الآخر. لم يظهر له مخاوفه، وتجنب الإفصاح عن مشاعره الحقيقية، وطلب من أخيه التماسك وتلبية ما يطلب منه، وأن يطمئن العائلة، ويبعد عنهم مشاعر الخوف

- حبيبي رضا لا تهتم.. الأخوة ديعاملونه بشكل زين..
شوف شيريدون ونفذ طلباتهم. لتخلي العائلة بقلق، طمانهم
وكلهم أنشاء الله قريباً أكون بيناتكم.

فجأة سحب أحد الرجال الهاتف النقال من يد جبار وأسرع
بغلقه، ووجه ضربة خفيفة من كفه لرأس جبار.

- هذا أخوك أغبر وقشمر.. صار له ساعتين يماطل
ويعتعت.. ويسأل هواية.. تره إذا ما ينفذ طلبنا راح انطكك
بالدهن.

- ليش إنتم شنو طلبتم منه؟

- عشرة دفاتر.

- عشرة دفاتر ! هاي منين راح يجيبوها..

- ليش ما عدكم بيت.. گاع.. معارف.. تره أحنه مو
قليل.. باچر راح نعرف عنك كلشي.. وعشر دفاتر ما تسوه
شي.. خوش.. راح باچر أخليك تتكلم ویه أخوك مرة لخ.

خرج المسلحون وأوصدوا الباب وراءهم فخيم الظلام على
الغرفة. تلمس ماركس مكانه ثم اتكأ على الحائط، وشعر بثقل
يرزح فوق صدره العليل. أحس بدبيب حشرة فوق ساقه
فقصعها بإصبعه، دون أن يعرف نوعها. وبدأ طنين
وصرصر الحشرات يملأ الغرفة، ونقيق الضفادع في الساقية
القريبة يتعالى وكأنه ضجيج لبدء معركة طاحنة. تسربت إلى
أنفه رائحة شواء فتقلصت معدته جراء الجوع الذي بدأ يعتصر
أمعائه. أثارت تلك الرائحة وتمنى اللحظة لو أنه في بيت أبو

نداء، يتناول الرز واللبن، وهذا ما يكفي الآن، لا بل يغني عن جميع أنواع الأطعمة التي تناولها في حياته.

- رفيق جبار هل تعرف أين نحن الآن؟

- مو بالتمام رفيق، ولكن أعتقد إحنه كنا قريبين جدا من منطقة الصويرة. ويمكن إحنه في أحد بساتينها. وهي ليست بالبعيدة عن بغداد.

- أتعرف أن مثل هؤلاء لا يفاجئوني بأفعالهم، صحيح أنك تكتشف لديهم شيئا من أفعال غرائبية، ولكنهم مثلما في باقي الشعوب، وفي مراحل عديدة وفي فترات شيوع العلاقات الاضطهادية، يتضح للناس المقهورة أن العنف المسلح هو السبيل للتعبير عن النفس، والحصول على الحقوق والمنافع، ولا تنسى أن تاريخ البشرية هو تاريخ البحث عن الطعام.

- رفيق هاي وين وزيج وين.. رفيق ماركس هذوله عصابات جريمة، قطاع طرق سراق، وهم جزء من القوة المتسلطة والمتنفذه في المجتمع اليوم.

- ربما مثلما تقول، ولكنهم اختاروا هذا الطريق كرد فعل لمعاناتهم من البطالة أو الأقصاء، ورب ما يفعلونه جزء من خيار ضد الفناء الاقتصادي والمعنوي، وطالما ظهر أمامهم باب للنجاة من الفاقة، فهو يقصي عن تفكيرهم كل ما يوجه لأفعالهم من تهم وتشنيع، وأيضا يتحول ضعفهم الذاتي إلى شعور بالقوة، ويتخذ السلاح دلالة سحرية بما يملكه من قدرة على الحسم وجلب الغنائم.

- رفيق ماركس، شكرا على هذه المحاضرة القيمة.. رفيق كلامك على راسي وعيني وأحترمه، ولكن ثلاثة أرباعه لا علاقة له بهذوله، ولو حاولت التعرف جيدا عليهم فسوف تكتشف أن من يترأسهم أو يقودهم كفصائل للسرقة والنهب والقتل سبق وكان مصدراً لقهر الآخرين، وكان يمتلك السطوة والجاه. فالبعض منهم ملاك أراض وضياح، وربما رؤساء عشائر أو رجال دين، ومنهم أعضاء في أحزاب سياسية، والبعض من هؤلاء هم اليوم ركن من أركان السلطة في العراق، ومثل هذه الأفعال ليست أعمال جرائم عادية فقط، وإنما الكثير منها جزء من عمليات ترهيب وتشويش وانتقام، ولي أذرع، وضغط ولمارب عديدة. رفيقي أتمنى لو خرجنا سالمين من هذه المحنة، أن توافقني وتبقى في العراق، وتدخل بقوة بين أوساط الشعب، بين الناس المسحوقين وكذلك المترفين، لتكتشف كم يحمل الفرد العراقي من هويات ووجوه، يرغب أحيانا، أو كثيرا ما يضطر لارتدائها أو تغييرها واستبدالها مرات عديدة وعلى مدار يومه.. هناك سوف تكتشف العقد الذاتية، الخوف والاستكانة، الجبروت والعنف والعواطف والرقعة، التنكر للذات والجماعة، تبخيس الذات ثم تضخيمها، التحدي والتذلل، الحب المرادف للحقد أو الممزوج به، التمجيد والرفعة في مواجهة الضعة.. كل ذلك ينسف الكثير مما تعرفه ونعرفه أو نريد الإمساك به.

- لا غرابة في ذلك رفيقي العزيز.. فالفوضى والعشوائية والمحاولات غير المدركة للمهام، دائما ما تميز البشر حين يصابون باضطراب مناهج التفكير، وسوء الفهم في محاولاتهم

لاكتشاف الواقع أو سبر أغواره، وهكذا بدلاً من العمل على تنظيم الوقائع وتسييرها بالسيطرة عليها، نرى البشر ينجرفون نحو حلول غير منطقية، وهذه الحالة ليست خاصة للطبقات المسحوقة أو الأمية، بل تظهر بين أوساط المتعلمين ومن يطلق عليهم بصناع القرار، فالعقل كان دائماً موجوداً ولكن ليس دائماً في شكل متزن.

فجأة سُحبت السلسلة الحديدية وفتح الباب ودخل رجل قصير القامة برأس ضخمة يحمل مصباحاً يدوياً. تقدم وبيده طبق وضعت فيه قطعاً رقيقاً وبعض خضروات وصحن كبير من اللبن.

- هذا عشاكم.. أعذرونه الباجة بعدها ما مستويه، والبزونه باغت السمجه..أكلو وتريعو.. وبعد چم يوم هم راح تگولون، ما احترامونا، وموتونا جوع وأضطهدونه.

- لا عمي..خلفه عليكم وكثر الله خيركم.

هكذا أجاب الرفيق جبار ومد يده وتناول رقيقاً راح يلوكه بعجالة.

- أگول.. أني چنت وره الباب أتنصت على حچيكم، هاي شنو جنتوا ترطنون.. أشو جبتوها خبط ولبط ولغوه ما بيها معنى..ذكرتوني بمعلم الحيايتة من چنه بالمتوسطة، يلغي ويلغي ويدردم ساعة ساعتين، وأحنه محد مفتهم منه شي.. وكلنه بالأخير رسبنا وجلقونه من المدرسة.. شوفو تراه هذي اللغوه ما تتفعكم، أولاً أزقنبو.. ولمن أطلعون بعد ما يدفعون

ربعكم المقسوم.. هناك عد أهلكم أخطرطو شكد ما بيكم خريط
ولغوه.

أدار ظهره لهم وذهب وأوصد الباب خلفه لتعم الظلمة
الغرفة، فراحت أياديهم تتخبط لتختطف ما تصل إليه من
محتويات الطبق.

ليلة الاختطاف الأولى

شعر كارل ماركس بأنه وُضع وسط حديقة حيوانات، لما كان يسمعه من أصوات. لم تغمض له عين. فمع خفق اجنحة الحشرات في الظلام، يشعر وكأنها تحيط به من كل جانب. دندنة البعوض لم تفارق أذنيه، ولسعها أخذ منه ما أخذ، ولكن ما كان يستفزه في هذا الظلام الدامس شيئان، صرير الجنادب، وشخير الرفيق جبار. كان طيلة الوقت يهشّ الحشرات عن وجهه ويديه، ويدفع دبيبها بعيداً عن قدميه. وبين فينة وأخرى يضغط على كتف الرفيق جبار ليجعله يكف عن الشخير، ولكن جبار يعاود الكرة بأقوى من السابق. سمع حديثاً هازلاً ترافقه ضحكات متقطعة لمجموعة رجال، تأتي أصواتهم من بعيد، ولكن شخير الرفيق جبار كان يطغي على جميع الاصوات.

في هذه الأيام القليلة التي قضاها في العراق، لم يستطع أن يجد تقييماً حقيقياً لما آل إليه الوضع، فالمفاجآت دائماً ما كانت تعترض لا بل تتلم محاولة التقييم. في هذه الساعة وهذا الظلام، ورائحة روث البهائم التي تملأ الغرفة. تذكر كيف ألح عليه رفيقه فردريك أنجلز وبعض الأصدقاء من الأطباء بالذهاب إلى الجزائر. كان سفره يتعلق بحالته المرضية قبل أي شيء آخر، فهو يشكو دائماً علة في الصدر. في الجزائر، وبعد التقائه

بذلك الطبيب الفرنسي، حاول أن يدرس الملكية المشاعية عند العرب. كانت محاولة لا طائل منها، بل عدها تضليلاً لا يمكن الخروج منه بنتائج تستحق الاحتفاظ بها، فليس للعرب ملكية مشاعية، وفي نفس الوقت لهم منها الكثير، حينها شعر بالتناقض العجيب والغرائبية في المزاج العام والطباع المتناقضة. فكلما توغل المرء في تلك العوالم المتضادة، يجد في التوريات عالماً خاصاً للفرد ومثله للمجتمع. وفي العموم فقد كان منهجاً غالباً لدى هؤلاء. فالعربي يضرر الكثير قبل أن يفصح عما يريد. يناقض نفسه بنفسه، وفي ذات الوقت يوافقها ويرضيها، ازدواجية ليست بعيدة ولا غريبة عن ثقافة عامة، دجنت دينيا ومجتمعيا، فعاف الجزائر وعاد إلى لندن دون أن ينال فائدة تذكر، غير ذلك الانطباع السيئ جدا. وهو اليوم وفي هذه الغرفة المظلمة، ومع مزيج من النباح وطنين الذباب ومأمة وثغاء الخراف وخوار البقر ونهيق الحمير، لم يصل لأية محصلة يستطيع من خلالها الحصول على ما يسعفه، للتعرف على طبيعة المجتمع العراقي، والقوانين والأخلاقيات النازمة التي تتحكم في مسيرته. ولذا يأسف أن تتكلل سفرته هذه ولقاءاته بلا جدوى، ليعود بذات الحصيلة التي غنمها في الجزائر، وهي الحيرة قبل أي شيء آخر، ومن الممكن أن يسمى فشلاً. ففي هذه الحيوانات الغريبة وانصهار البشر فيها، تراهم يتوحدون معها، ولن يجدوا أنفسهم دونها أو بعيدا عنها، عالم متصارع، متناقض، ولكنه متوافق، ومتوائم مع كينونتهم، ولذا لن يزهر بينهم غير البؤس، ودائماً ما تهرب عنهم السعادة ويتوطنهم الضياع.

دفع الرفيق جبار شجرة قوية اختلطت بحسرة أفرغها صدره، وكأنها كانت حبيسة سنوات. ثم استيقظ واستدار واضعاً يده تحت خده الأيسر.

- رفيق ماركس.. هل انت مستيقظ؟

- لم أستطع النوم فالسرير لم يكن يوائم جسدي، والوسائد ريشها ناعم جداً.

- كنت في حلم مزعج جداً..

- أحسبك على قدرة النوم والشخير والاحلام.

- لقد أخذوني نحو النهر وهناك قيدوني وأحاطوا جسدي بالحبال، وعلقوا بجسدي صخرة كبيرة وثقيلة، وهموا بإلقائي في النهر. كنت أنت واقفاً تنظر نحوي ببرود، لا بل ترسم على شفتيك ابتسامة مأكرة. والغريب أن هيئتك كانت غريبة جداً، فرأسك حليق بالموسى، ووجهك دون لحية، وشاربك الكث فقط هو الباقي. سألتك رفيق ما الذي حدث لك، من الذي حلق لك شعرك، فأجبتني بضحكة قوية قائلاً، لا عليك.. لا تهتم للأمر، اذهب وارم نفسك في النهر، ولا تدعهم يفعلون ذلك بدلاً عنك. فقلت لك.. رفيقي ألا تستطيع إنقاذي، فأنا سوف أموت؟ فأجبتني بحدة.. يضربك قزولقورت.. فسحبوني نحو النهر فشعرت بالاختناق وصحوت.

- هذا كابوس وليس بحلم.. أعتقد أنه جراء الوضع الذي نحن فيه. فقط أتساءل عن معنى يضربك قزو وهكذا..

- قزولقورت.

- نعم هذه الكلمة....

- الكلمة تعني أني غير معني بما يصيبك.

- رغم كونه حلم، ولكن لا أعتقد بأنني سوف أقف معك مثل ذلك الموقف السخيف.. وهل رميت نفسك في النهر؟

- لم أكمل ذلك.. لقد استيقظت قبل أن يحدث الأمر. فلن أَدعهم يفعلون بي ما يتمنونه لذا استيقظت.

بدأ صياح مجموعة من الديكة يترنم على التوالي بتسلسل متناغم، مع نباح جوقة من كلاب. وعند أول معالم الفجر التي ظهرت شم الرفيقان رائحة الخبز المخلوط بالدخان تتسرب إلى الغرفة فراحا يحلمان بفطور قادم.

بزغ نور الصباح فامتلات الغرفة بالضوء. فطالع الرفيقان بعضهما بعضا. فجأة وبمصاحبة ضحكة مكتومة ودهشة ظاهرة، راح الرفيق جبار يطالع وجه كارل ماركس

- ما الذي حدث لك رفيق ماركس، لقد تحول وجهك إلى خارطة عجيبة.

- حتما فقد بت ليلتي في صراع مع البعوض.

- رفيقي.. البعوض في العراق يعشق لحم الأجانب.

- ربما سحب مني قنينتي دم في هذه الليلة المشؤومة.

- البعوض العراقي يحب الدم الأجنبي، ولكن المصيبة أنه يتلذذ أيضا ويعشق دم أبناء العراق، وتراه يمتصه بصمت وهدوء ودون إثارة، وهو في عمله هذا لم يعد ورفيقه الذباب

يحسبان لنوع دمنا حساب، إن كان شيعياً أوسنياً أم كردياً. ورغم ما ينقلانه من أمراض، فقد توطنا فينا ومعنا، وهما مصيبة صغيرة جدا من مصائبنا. ألم أقل لك إن الجميع يلعب بنا شاطي باطي.

أطلق كارل ماركس ضحكة خافته، سرعان ما كتمها بيده. عند تلك اللحظة، انزلت السلسلة الحديدية عن إطار فتحة الباب، مصدرة أصوات صرير مزعج. انفرجت فتحة الباب، فدخل أحدهم وطلب من الرفيقين النهوض، ثم أصرطحبهما خارج الغرفة وأشار عليهما بالجلوس عند تخت متهالك وضع قرب الباب.

أمامهما يمتد بالعمق البعيد بستان نخيل كثيف، وثمة امرأة في الجانب الأيسر من الساقية الصغيرة، تقف خلف تنور وقربها يقف رجل يلتهم رغيف خبز، وينظر نحوهما بتركيز بائن، وكأنما ينبههم لوجوده كمراقب. وثمة ثلاثة كلاب نائمة عند حافة الساقية، يبدو أنها في إغفاءة، بعد أن كانت تصل وتجول وتنبح طوال الليل. تحرك ماركس محاولاً لملمة جسده، فقد شعر بلسعة برد الصباح، رغم أن الموسم كان صيفاً، ثم همس لرفيقه جبار.

- أليس باستطاعتنا الهروب الآن..؟

- وإلى أين نتجه رفيق ماركس.. هل تستطيع أن تدلنا على طريق.

- إلى أي مكان يمكننا الإحتماء به من هؤلاء الأوباش.

- إنهم سلسلة من عصابات خطف، تمتد أذرعهم بين أبناء جلدتهم في هذه المناطق، التي هي مجموعة كبيرة من بساتين. وإن كنا اليوم بيد هؤلاء، فربما يضعنا هروبنا بيد أوباش أشد قسوة منهم.

- وهل نستسلم؟

- وهل لديك طريقة للخلاص.. رفيقي إن أردت الهروب فيضربك قزولقورت، وأنا باق هنا لحين ما يجد أهلي مخرجاً.

- عدنا لهذه الكلمة قزوزوق..

- نعم قزولقورت وتعني أني غير معني بما يصيبك إن هربت.

- أشعر أن معناها.. ليس بمثل ما تدعيه..

فضحك الرفيق جبار ضحكة تنبه لها الرجل الواقف جوار التنور، فتحرك رافعا طبقاً معدنياً كبيراً وضع فيه صحن يحتوي على لبن رائب وقطعة زبد وأربع أرغفة خبز، ثم تقدم نحو ماركس وجبار، ووضع الطبق بينهما، وانسل بعيداً ليشعل سيجارة راح ينفث دخانها بكثافة، ويراقب كيف كانا ينهشان الخبز ويأكلان بنهم.

- گلي رحمه الوالديك.. يمته يجي الحجي أبو بشير؟

سأل الرفيق جبار الرجل الذي يقف بعيداً وهو يطالعهم.

- ليش، شترید منه؟

- مو جماعتك البارحة گالو.. هو راح يقرر شيسوي ويانه.

- إي هوه يقرر..

- زين وهو يمته يجي...؟

- إي هسه أنت ليش مستعجل.. هيه شكتين لو طريقين مو غيرهن..

- شنو طريقين خاطر الله.

- شوف أنت وصاحبك هذا أبو كفشة الأجنبي.. لو تسيسون بالنهر وهاي طريقة.. لو أطلعون سلامات بعد ما يدفعون ربكم المقسوم.

- إي غير يجي الحجي حتى يحجي ويه أخويه.. أني مو أنطيتكم التلفون.

- عمي لتدوخي.. الحجي أبو بشير اليوم من الفجر راح للجامع وما راح يرجع إلا بعد صلاة الظهر. إي هسه أكلو أو وصوصو، وبعدين فكروا شراح نسوي بيكم.. ترى التفكير الهواي يآثر بالأعصاب.

- إي ماكو غير أبو بشير يقرر.

- حجي أبو بشير وما كو غيره.. كافي عاد لتدوخي.

* * *

مضت ساعات ثقال قضياها في النظر لما يدور حولهما.
تلك الحياة الفلاحية البسيطة الخشنة، تخفي خلف ستائرهما من
الخضرة الثقيلة الكثيفة، عالماً غريباً متوحشاً تنفلت أطرافه

بتنافر عجيب، ولم يشهد بعد إنتاج قيم ثابتة، يرتكن لها على مدى عقود طويلة، لا بل العكس، فقد سحبته أقداره نحو أنماط غريبة من علاقات مشوهة، أربكت الأرواح وجعلتها تتخبط في دوامة لا نتائج يرجى منها. فكل شيء في هذا المجتمع متصدع وهزيل ومحطم، والهويات تتغير، بل تُركب بفعل الخوف المجتمعي أو السياسي، ويتقدم عليهما اليوم الخوف الطائفي. قفزة أو خطوة نحو التمدن والحضارة، أعقبتها ارتكاسات بقفزات واسعة نحو التخلف. تراني لم أجد الوقت، أو لم أبذل جهداً كافياً في البحث داخل الطبقات الاجتماعية بتشكيلاتها وانحدارات فئاتها البدائية، واعتقد أنني لم أبذل جهداً طيباً، في تفكيك خاصية الوعي المحلي الديني والطائفي، الراسخ في طبقات المجتمع الدنيا، وبالذات العمال والفلاحين منهم، وهل تراني غفلت عنه ولم التفت بعناية لخصوصيات المجتمعات المركبة المتعددة الديانات والطوائف والمتناحرة، رغم كونها من عرق واحد، وتعيش في رقعة جغرافية جامعة مثلما أراه الآن. هل كان هناك قصور في جدلية المادية التاريخية، وإنها لم تستطع بشكل كامل وناجز، اكتشاف الأسس الموضوعية المادية الناعمة لمجمل الحياة الاجتماعية، ولم تصل بعد لقدرة إيضاح جوهر وقوانين المجتمعات البشرية المتعددة والمتنوعة. أم ترى هؤلاء الذين أعيش بينهم اليوم، من طينة أخرى غير التي عرفتھا؟

هكذا فكر ماركس، وهو يتعقب دبيب طابور نمل يسير برتابة ودقة قرب حدائه، ليختفي في جحره الصغير داخل جدار الغرفة. لم يرغب في تحريك قدمه خوفاً من أن يؤثر في

مسيرة هذا الطابور، ويشئت نسقه الجميل. سُمع صوت سيارة قادمة توقفت في الجانب الآخر خلف الساقية التي مروا فوقها بالأمس. جاء الحاج أبو بشير برفقة ثلاثة رجال، لم يكن بينهم من يحمل سلاحاً. ساروا نحو البيت المجاور وسمع ماركس ورفيقه جبار جلبة ثم ضجيج أصوات، أعقبه ضحك عال، خرج معه الحاج أبو بشير ورجاله وجاء ليقف أمامهم قائلاً.

- جبار هاي تگول ما عندي، وشدعوة، وأني خطية كاسب فقير... أشو طلع عندك فندق، ومحل يبيع عطور، ومحل لآخ يبيع تلفونات وكارتات، والله يعلم شنو بعد. شوف أني حچيت اليوم ویه أخوك.. إذا ما يدفع باچر عشر دفاتر راح يلگیک مسیس بالماي. وأنت گله وشجعه على الدفع، لأن هاي المصلحتك. هاک التلفون وأحچي وياه.

أخذ جبار الهاتف وراح يضغظ ببطء على أزرار رقم أخيه، سمع صوت أخيه وكان الارتباك ظاهراً على صوته.

- منو؟

- أني جبار.. يابه يمعود شيردون أدفعلهم بس خلصني تره هذوله ناوين على شر.

- زين اني گلتهم أنطیکم ست دفاتر بس ميرضون..

- يمعود أنطیهم شنو یردون.

- خوش.. صار.. معلیك أني أدبرها وياهم...أنته اشویه أصمد والله کریم.

- شنو أصمد..يمعود مو محل إعناد أني أگلك أطيهم.

- أي مو كتلك صار..

سحب أحد رجال الحاج أبو بشير جهاز الهاتف النقال من يد
الرفيق جبار وسلمه للحاج أبو بشير الذي قال مهاتفاً.
- ها سمعت أخوك.. أنت تريده مسيس بالشط لو يمك
بالبيت.

- يعمود الخاطر الكعبة بروح النبي عوفوه.. أني محضر لك
ست دفاتر.. هاي الكدرت أجمعهن، يا به وربك المعبود ما
كدرت أجمع غيرهن.

- الظاهر أنته مو أدمي.. وأنت تريد أخوك يموت حتى
تحوش على كلشي.

وفجأة أغلق الهاتف وضغط زر الإطفاء.. فسأله جبار أن
يفتح جهاز الهاتف، لعل أخاه يعاود الاتصال فقال الحاج أبو
بشير

- هذا مو شغلك.. إحنه نتصل إذا ردنه..

أنسحب ابو بشير ورجاله تاركاً كارل ماركس والرفيق جبار
مكانهما وكان المساء قد بدأ بالهبوط ومعالم الغسق تضرب
حمرتها فوق هامات النخيل، وضج المكان بنباح الكلاب وثغاء
ومأمة الخراف ونهيق الحمير.

* * *

فدندن ماركس مع نفسه.

- ليلة أخرى في السيرك.

- ماذا قلت رفيق؟

- لا شيء.. هذا لا يعنيك ويضربني قزوزوق.

ضحك الرفيق جبار لما بدر عن الرفيق كارل ماركس، ولكنه تسمر فجأة وهو ينظر نحو رجال الحاج يتقدمون نحوهم شاهرين أسلحتهم. تقدم أحدهم وسحب رفيق جبار من يده وطرحه أرضاً، ثم جاء آخر وشده من قميصه رافعاً إياه ثم سحبه معه. عند تلك اللحظة تشبث ماركس بجسد الرفيق جبار، وطلب من الرجل المسلح أن يتركه لحاله، ولا يأخذه أو يؤذيه، ولكن رجل مسلح آخر استدار وضرب ماركس بقوة بأخمص البندقية فوق ذراعه الأيسر. شعر ماركس بشدة الضربة، فمال جانبا وسقط فوق التخت، فرفعه أحدهم ودفعه داخل الغرفة. سار الرجل صاحباً الرفيق جبار باتجاه الغرفة المجاورة حيث يجلس الحاج أبو بشير. وقفوا عند مدخل الغرفة بانتظار أن ينهي الحاج أبو بشير صلاته ويرفع راسه. بعد عدة دقائق أنهى الحاج صلاته وسلم على ملائكة الرحمة القاعدين عند كتفيه.

- اتقبل الله حجي.. قالها الرجال المسلحون

- شكرا ولدي.. ها جبار شدگول؟ قبل شويه چنت أحجي ویه أخوك، هذا راكب راسه.

- حجي... شگول هي الدنيا وحياتي صارت بيدك.. بس بجاه الله إلی صلیتله أنته قبل شويه.. أني صاحب جهال وعائلتي جبیره.. بجاه هاي المسية عليك وإن شاء الله يتقبل

صلاتك وأعمالك.

- ليش إحنه ما عدنه عوائل.. بس أنتم.. تقبل إحنه نموت من الجوع وأنتم تتونسون بالولاية.. تقبل أنتم تلبسون قوط وتركبون سيارات وإحنه حسرة علينا المي الصافي. تقبل أنتم تنامون جوه المبردات وأحنه كاتلنه الحر.

- إي حجي قابل أني سببه..

- شمعرني منو سببه.. كله الأخيك الجماعة يقبلون بثمان دفاتر، والباچر إذا ما وافق فأحنه ما نتحمل، وذنبك وخطيتك برغبة أخوك هو اللي سبب موتك.

- حجي هاي مثل سالفة مقتل عمار ابن ياسر... أنذبت براس الفئة الباغية، بس منهى الفئة الباغية هاي حزوره؟

- أنجب لك لتتفلسف، وتصير براسنا مطي روزخون.. إنته وعمار شنو.. راح أطيك التلفون وإحجي ويه أخوك.. كله الجماعة يگولون ثمن دفاتر بالتمام والكمال، لو أنطگك بالدهن.. وهذا آخر إنذار.. خوش.

تحدث جبار مع أخيه وكان الأخ يصر على الستة دفاتر وجبار يتوسل به أن يجعلها ثمانية، وبعد نقاش ليس بالقصير، أخذ حجي أبو بشير التلفون وراح يتحدث مع أخ الرفيق جبار، وطال بينهما الحديث ثم أغلق الحجي التلفون قائلاً.

- هذا شلون حقنه.. زمال يابس مثل سير النعال.. ما قبل وعاند.. بس ميخالف اتفقت ويه هذا الطايح حظ على سبعة دفاتر.. وباچر راح انشوف شلون نتفاصل وياه على التسلوم.

أعاد الرجال المسلحون الرفيق جبار إلى الغرفة ليلتحق بالرفيق كارل ماركس ثم رجعوا إلى غرفة الحاج أبو بشير.

- حجي من نستلم الفلوس نسلمه ألهم مطبوخ لو مسلوك..

ضحك الحاج ضحكة قوية.

- ولك راضي شكذ إنت أتحب الكتل.. ما شبتت.. إي دعوف هاذي السالفة.. نأخذ حاجاتنا ويأخذون رجالهم.. خلي شويه رحمة الله بگلېك.

- حجي مو شافنه ويمكن عرف المكان.

- خلي يروح وين ما يريد يشتكي.. اشو عدنه هواية بالحكومة ربع.. بعدين إذا أشتكى أخلي يزوع فلوس وره فلوس، فصل عشائر وره فصل.. أنه منو ولك؟ نسيت سالفة المقاول أبو غانم.. مو خليناه ليهسه يدفع عيديات وهو الممنون.

- حجي والنعم والتلات أنعام عمي أبو بشير.. أني گلت گص راس موت خبر.

- لا.. مو بكل الحالات.. إذا نريد نوجع، لو من تعصه، هذاك الوكت ميخالف.

عاد الرفيق جبار وجلس جوار الرفيق ماركس، وكان شبح ابتسامة يرتسم على محياه. دفع بظهره ليلتصق بالحائط ومد قدميه وأرخى جسده. فكر بالذي حدث وشعر ببعض الراحة، ولكنه لم يكن مطمئناً لما سيؤول له الأمر. فمن الساعة حتى الغد هناك الكثير من التقلبات. فقد كانت بادية على وجوههم علامات الشر، وعباراتهم متعصبة وسمجة، لا بل كانت

جارحة، تصدر عن شرانم لا صلة لهم بالبشر. أما ما سمعه من إتفاق مع أخيه، ما كان حتى هذه اللحظة ليتوافق وحديث هؤلاء، المفرط بالقذارة والبشاعة واحتقار الناس. لم ولن يكون مطمئناً حتى يرى الشوارع، ويعود حراً منطلقاً يسير فيها، وليجد في أحضان أهله دفء الحرية، التي يشعر الآن أنها بعيدة جداً عنه.

- ما الذي حدث رفيقي جبار؟
- إتفق رئيسهم مع أخي.
- بماذا إتفق؟
- أن يعطيهم سبعمائة ألف دولار مقابل إطلاق سراجي.
- جيد.. وأنا ماذا سيكون مصيري؟
- والله رفيق ما أعرف شنو أجابك.. هذوله يتعاملون بالفلوس.
- ومن يملك النقود ليفتديني بها..
- راح أخبرهم بضرورة الاتصال بالسفارة الألمانية.. عسى ولعل يستطيعون المساومة معهم على حياتك.
- السفارة الألمانية كيف تفكر بذلك؟
- قالها ماركس وانفجرت أساريه عن ضحكة شاحبة ارتسمت فوق وجهه الشاحب المطرز بالعديد من لسعة البعوض. ولكن جبار بادر قائلاً.
- نقول عسى ولعل... وأنا تلمست عند هؤلاء الأوباش

وجود شيء ولو ضئيل من ارتخاء، أعتقد.. المبلغ سوف يجعلهم يتخلون عن قتلنا.

- وهل أنت متأكد من ذلك؟

- لا.. ما متأكد بس نغول عسى ولعل.. لنرى ما يفعلونه غداً.

كمن يريد أن يبعد عن ذهنه ذلك الغم الذي خيم على صدره بثقل غير عادي، دس أصابعه في جيب سرواله وأخرج طرف رغيـف لين احتفظ به منذ الظهر. راح يكوره بين أصابعه، ويصنع منه كرات صغيرة، ثم يعيد تشكيلها إلى مكعبات ثم يعيد تركيبها على شكل مربعات، ولكن مثل تلك اللعب الصغيرة لم تكن لتجعله يبتعد بتفكيره عن هذا المكان الموحش الضاح بالـحشرات والروائح العطنة، ولم يدع تفكيره يسرح بعيداً عن يوم غد، الذي يتقرر فيه مصير الرفيق جبار، وربما يكون هناك حل لوضعه هو أيضاً. هل تراه ينجو من الموت أم سيكون قدراً مكتوباً عليه. ترى كيف يكون وضع الغد معه بالذات. ما الذي يفعله هؤلاء الأوباش لينهوا حياة نضال كرسها لأمثالهم، واحتضن قضيتهم وعاف كل شيء ليـجـلي لهم معالم طريق. ياترى أعلى هذا سوف يعاقبونه؟ يجرـجـرونه نحو النهر ثم يفرغون فيه ثلاث طلقات أو أكثر ويرمونـه في نهرهم القذر. إنه ثمن بخس لتلك الحياة التي كرسها وجهـد فيها ليصنع للناس غداً مشرقاً أفضل. لقد جبل قلبه وقد من قرميد، لذا فهو لا يهابهم، سوف يقف قبالتهم ليلقنهم درساً بـقيم النبالة والشرف. ولكن مثلما قال الرفيق جبار هؤلاء من طينة أخرى، غير طينة

البشر التي يعرفها، لا يدري إن كان هذا ينفع معهم، أم إن الدم المراق كان بالنسبة لهم مثل الجاذبية الأرضية لا فكاك منها. هؤلاء مثلما بحث اليهودي عن قدر اللحم الفرعوني هربا من تعاليم موسى، فهؤلاء يسرقون وينهبون ويقتلون ويوغلون في فواحشهم ولوثاتهم، لكي يهربوا من دونيتهم وذلمهم، الذي ينكشف ويتعري أمام الآخرين، ليجدوا في الجريمة ما يشفي غليلهم، ويعطيهم الثروة، وفي الوقت ذاته يشعرهم بعدم الحاجة لمفاهيم النبالة وقيم الشرف.

كانت الحجج والأفكار عن الاعتقاد والممكن، ومثلهما الطموح والآمال تهبط عليه مثل قطرات مطر ثقيل، يقرع رأسه دون فكاك. الساعة تحضره زوجته بيرتا. فقد كانت محبوبته والنموذج المميز في حياته، فهي الوحيدة التي كانت تعلم مسبقاً بأنه شخص غير عادي، وسوف يكون بسبب أفكاره مضطهداً مطارداً، وكانت شاهداً على كونه مطارداً من السلطات، ولكنها لم تعافه أبداً. ولكن لم يخطر في بالها على الإطلاق أن يكون حبيباً لدى لصوص قتله يتاجرون بحياة البشر، مثلما هو عليه اليوم.

هرب إلى باريس ثم طرد منها، فانتقل إلى لندن فكانت رفقتها مفعمة بالحب الصلد الموثوق. عندما توفيت ذهب برفقة أولاده الستة يحملون جنازتها، كان منكوباً يعتصر الألم قلبه وتمزق صدره اللوعة. عند قبرها تعثر ووقع في حفرة، فأصيب برضوض في أجزاء مختلفة من جسده، بقي طريح الفراش لفترة طويلة، ذلك اليوم شعر بتصدع في روحه، إذ فقد

ببیرتا حبیبته وسنده، وشعر مثلما الآن، بأنه فقد منبع سعادتہ ومصدر قوته، وهو بحاجة إليها الساعة بكامل جوارحه، لتدله وترافقه في هذا الطريق الوعر. ذكرى ببیرتا لا يمكن أن تفلت من ذهنه وقبل ذلك من قلبه.

إنه يعرف جيداً أن هؤلاء اللصوص الذين يختطفونه والرفیق جبار، مثلما غالبية الفقراء في العالم، هم نتيجة الطبيعة اللا إنسانية للاستغلال من قبل رأس المال، وبدلاً من أن يكون نشاطهم الاجتماعي والاقتصادي بناءً وفي خدمة المجتمع، يخلق الرأسماليون في سعيهم وراء الربح مثل هذه النماذج، التي تمارس الصراع وتفرضه فيما بينها وكذلك بين الفقراء. ولكنه حتى وهو يبحث ويفكر في هذا، تراه الآن يشعر بالحيرة أمام سؤال كبير واجهه في العراق منذ اليوم الأول لوصوله، يا ترى هل هناك رأسمالية ورأسماليون في العراق؟ وأين الطبقة العاملة من كل ذلك؟ ويا ترى ما طبيعة التركيبات الطبقيّة؟ وأين يكمن أو ينفجر الصراع الطبقي؟

كان كارل ماركس يتنقل بفكره من محطة إلى أخرى دون رحمة بنفسه، كان يريد أن يستحضر شريط حياته، ليجد في هذا وداعاً أخيراً لمسيرة ما شعر بغير حرارتها وعنفوانها والتي تلبسته ومازالت.

طلع الفجر وارتفعت بعده الشمس عالياً وتسرب ضوءها الساطع خلال شقوق الجدار وفتحة الباب.

كان جبار مازال يعزف نشيد الإنشاد في عزف منفرد على الشخير، الذي ما انقطع طوال الليل. ولم يكن لنغماته القدرة

على قطع سلسلة أفكار الرفيق ماركس ولكن سطوع الشمس أجبر جبار على الاستيقاظ.

كان وجهه مجعداً مثل أرض بوار قطع عنها الماء فعاشت يباساً. كانت عيناه مسبلتان لا تريدان ترك النعاس. لقد أعطوا أخاه الحق في اختيار مصيره، بين أن يموت أو يطلق سراحه، كان فرحاً بعد أن اتفق اللصوص على قبول الفدية، فراح في نوم عميق. استيقظ الآن ويود أن ينفذ الاتفاق دون أبطاء. ولعل ما يحز في نفسه أنه خيب آمال ذلك الرجل الذي جاء صادقاً يحمل نوايا طيبة ليشاطرهم آلامهم وأحلامهم ويضع لهم حلولاً لمحنتهم وعثراتهم، ولكن القدر دفع به إلى أحضان عتاة المجرمين.

سحبت السلسلة الحديدية ثم فتحت الباب ودخل رجلان يحمل أحدهما رغيفي خبز وضع فيهما قطعتا جبن سلمتا إلى الرفيق ماركس والرفيق جبار.

لم يكونا في عجالة من أمرهما، فليس هناك ما يفتح الشهية، لذا تيبست أصابعهما وهما يمسكان بقطعتي الرغيف.

- أترقنبو.. جبار أنته بعد شويه تجي ويانه أنسلمك الأخوك.. بس إذا لعب بذيله لو الفلوس مو جاهزة، خلي صاحبك هذا أبو كفشه يقره الفاتحة عليك بالانكليزي لا، لا بالالمانى أحسن.

- لا إن شاء الله أخويه دبرها... خلي نروح هسه.. ما أريد أكل..

- بكيفك.. خاف الشغله أطول وتموت من الجوع.

- ميخالف بس رجعوني الأهلي.

- زين گوم..توكل على الله..

سلم جبار رغيف الخبز لكارل ماركس وعانقه وأطال
عناقه.. تسالت دمة حري من عينيه وانسابت

لتسقط على كتف الرفيق ماركس..شد بساعديه وطوق رقبة
ماركس وهمس في أذنه..

- أعذرني رفيقي العزيز.

الشعب الألماني يتحمل خطيتك

شعر كارل ماركس بحزن ثقيل خيم على قلبه، وانتابته مشاعر النأي عما يحيط به، غريب عن عالمه، بعيد عن واقعه، وبمرور الوقت كان هذا الشعور يوسع شقة التباعد فتزداد معه العزلة، و رويداً رويداً، باتت هناك فجوة نفسية تبعده عن الواقع، فيعيش هذا التلازم بالوحدة والتغرب. التغرب النفسي يجعله يركز في عزلته هذه، على التمايز بين الوجود والجوهر، وها هو الوجود يلتبس لديه، فيشعر بالحاجة للنأي عن مثل هذا الموقف، ولكن كيف وهو وحيد معزول في هذه الغرفة الرطبة العطنة المظلمة، لم يعد تفكيره قادراً على استيعاب سبب وجوده فيها، أو الأخرى ما هو مستقبل وجوده. الاغتراب ليس مجرد مفهوم أكاديمي وللدراسة فقط، بقدر ما هو مشاعر تتلبس الإنسان، ويمكن ملاحظته في كل جوانب الحياة اليومية. لقد عافه الرفيق جبار في هذا المكان الموحش دون إكمال شوط الرفقة. ورغم مساوئ الرفيق جبار الكثيرة فقد كان وجوده ضرورياً جداً، لا بل كان يحمل الكثير من المعاني. على الأقل مع حضوره، لم يكن ماركس ليشعر بوجود فجوة نفسية كبيرة تبعده عما يحيطه، وكان يجاهد، وأيضاً بسبب وجود جبار، ليكون قريباً من الآخرين، ولم يفتقد بالكامل روح تقبلهم على علاقتهم، وكان ممكن له من خلال الرفيق جبار التقرب من شبكة العلاقات الاجتماعية العراقية،

وتوطيد الصلات مع أصدقاء ورفاق عديدين، باستطاعتهم أن يألفوه، وحتى يحبوه مثلما يحاول بدوره أن يفعل ذلك. ولكن الآن بعد أن انفرد بنفسه، وشعر بالفراغ المكين الذي يحيطه، لم يعد يستطيع التفكير بالذي سوف يحدث له في قادم الأيام، وهو الغريب البعيد عن وطنه، ولم يعد له من يتواصل معه.

الأجنبي أبو كفشه هذا ما يطلقه عليه هؤلاء المجرمون. ربما أن أسهل الطرق لديهم ولإبعاد أي شعور بالضجر أو التردد، أو افتضاح أمر أفعالهم، لهذا سوف ينجزون مهمتهم برميّه جثة مقيدة هامة في النهر القريب، الذي وعدوا به الرفيق جبار قبل الآن. هؤلاء اللئام الأراذل، لن يشعروا للحظة واحدة بتأنيب ضمير، فهم يرتكبون جرائمهم وينامون ملء جفونهم، بينما ضحاياهم يرتعدون خوفاً في انتظار المجهول.

ها هو اليوم الأول مضى برتبة ثقيلة ومؤلمة، شعر فيه ماركس بقدرة الوحدة على الضغط وتفكيك مقاومة الروح ووضعها في حالة قاتلة ومدمرة من الرثاثة والهشاشة. مضى اليوم ولم تحصل فيه أحداث استثنائية، وبنفس الرتبة كان ضجيج أصوات الحيوانات، وتناول رغيف الخبز أو صحن الرز مع اللبن أو الخضرة وشيء من زبد. إبعاد الذباب وباقي الحشرات أفعال روتينية مرت دون أن يشعر بقيمتها أو حتى تأثيرها، وكل ذلك دون وجود الرفيق جبار الذي كان يتسابق معه لإشباع البطن.

يا ترى هل هم فقراء إلى هذه الحدود، مما يجعلهم يمتنعون ولو لمرة واحدة عن جلب وجبة دسمة من غداء أو عشاء؟.

بخلاء رغم تعاملهم بآلاف الدولارات التي تدرها عليهم جرائم الاختطاف والسرقات، أم تراهم يفتعلون هذه الحالة فقط مع ضحاياهم، وفي نفس الوقت يتناولون طيب الطعام في غرفهم القريبة من مكانه.

- أنت من يا بلد؟

- أنا من المانيا.

- ألمانيا وين تصير؟

- بأوربا.

- أها.. هاي كلش بعيدة.. وانت شتسوي جاي للعراق؟

- אני خبير بالآثار وذهبت إلى الناصرية للاطلاع على الآثار السومرية.

- شنو أدور عظام الميتين؟ هاي غير شغله فاگسه.

- لا أبحث عن آثار أيضاً.

- وشنو راح تستفيد من الآثار؟

- حتى نعرف التاريخ.

- هسه متكلي شنو مستفيدين إحنه من هذا الوگت حتى تجي أنته أدورلنا بالتأريخ.

- معرفة التاريخ مهم للعالم مثلما مهم للعراق.

- والله أبو كفشة وروح بيبيتك، وداعت هاي اللحية المعثغة، محد سلگ أبو العراق غير التبحوش بالتاريخ المصخم.

- لا أعرف عن ماذا تتحدث. ولكني أعتقد أن هذه ليست مشكلتكم الوحيدة.

- عمي عوفنه من الحجي هذا.. باچر راح أبو بشير يطلب فلوس من السفارة الألمانية حتى نطلعك ونرتاح.

- وما مقدار المبلغ الذي تطلبونه؟

- هذا شغل عمي حجي أبو بشير.

- وإذا لم تقبل السفارة دفع المبلغ؟

- طبعي أنطك بالدهن.

- ماذا يعني ذلك؟

- يعني تسييس بالشط.

- لا أعرف ماذا تقصد من كلامك هذا.

- شوف أبو كفشه.. مخلص الحجي إذا السفارة ما تدفع يعني أنت تموت.

هكذا كان يدور الحوار بين كارل ماركس وأحد المسلحين الذي جلب له صحن الطعام مساءً، حين انفرج باب الغرفة ليدخل ثلاثة من المسلحين، طلبوا من كارل ماركس الوقوف ثم اقتادوه إلى الغرفة الأخرى.

كانت غرفة مؤثثة جيداً، وهناك منضدة خلفها كرسي وعند زاويتها اليمنى تلفزيون كبير، وثمة مكتبة تحتل جدار الغرفة عند المدخل، وفي جهة اليسار من المنضدة تقف ثلاجة كبيرة بلون رمادي باهت. لوحة لريف أخضر النخيل تمتد خضرتها

في عمق غابة بعيد، علقت خلف أبو بشير الذي جلس وراء المنضدة بثوب ابيض وغطاء رأس أبيض مرقط بمربعات حمراء صغيرة.

- أرسلنا إلى السفارة الألمانية نسخة من جوازك وصورة ألك وأنت عدنا هنا بالغرفة، وياهاها معلومات عن وضعك، وضعها أحد أصدقائنا في صندوق بريدهم، وبلغناهم بأننا راح نتصل بيهم بوگت لآخ، بعد أن يشوفو صورتك وجواز سفرك وطلباتنا التي سجلناها إلهم.

- وما الذي طلبتموه منهم؟

- قيمتك كبيرة حجي كارل ماركس.. بس الكشفه تسوه مليونين.. أنت جاسوس إسرائيلى ومسوي نفسك خبير آثار.

- جاسوس إسرائيلى؟!!

- نعم جاسوس يهودي صهيوني، أنتم أعداء الدين الإسلامى الحنيف، خنازير.

- وعلى ماذا أتجسس وكل شيء مكشوف في العراق، وفيه جواسيس كبار وكثار فما نفعي أنا؟

- هاي مو شغلتك وباچر راح كلشي يبين.. أني سأتصل بالسفارة الألمانية ونشوف شكد سحرك.

- لا تتعبوا أنفسكم.. فلن تحصلوا منهم على شيء يذكر..

- شنو قصدك؟

- لن يبادلوني ولو بدولار واحد.. فهم يعدوني عدواً لهم..

- شوف لك أنتم كلکم قرود وخنزیر، ما ینعرف منکم
الصدگ من الجذب.. کفرة ملحدین.. إذا حچیک هذا طلع صدگ
فراح أنعل سلفه سلفاک.. أسلگک سلگ، أنتف لحيثک وأهلـس
کفشتک، وچماله مترید تگول شنو أسباب جيتک للعراق؟

- إذا كنت تريد نقودا بديلا عني فلماذا تسأل عن مهنتي؟

- لتتعيقل شنو اسألك تجاوب.

- سبق وأن أخبرتكم، أنا عالم أثار..

- علينا.. على أساس لوتي وما ینحزر.. يوم یومین وراح
نعرف کلشي.

- ماذا تريد أن تعرف؟

- أنت منو ولیش ولماذا أنت في العراق؟

- أنا عالم أثار..

- أخذوا رجعوا لمكانه.. هذا ما منه فایده.. هو وحظه باچر..

- ألیس بالإمكان أن أبقى هنا قليلا وأن نناقش سبب
اختطافي؟

- لك صدک أنته قشمر.. لیهسه ما تعرف لیـش خطفناک..
لیـش أحنه دنلعب وما عدنه شغل، ولأن أنته عندک کفشه
وأبیضاني وعیونک صفر، وعلى مود هذا خطفناک.. مو
صاحبک هسه گاعد یم أهله بعد ما دفع سبعةالاف دولار..
سفارتک تدفع نطلعک.. ما تدفع الشعب الألمانـي یتحمل
خطیتک.. یله أخذوا.

- صدقني لن تحصل منهم على دولار واحد... لو أنكم تتصلون بجبار فربما يساعد في حل مشكلتي.

- سوف نرى وإحنه من يقرر ذلك وليس أنت.. لكم أنتم مد تفهمون مو دا أگول أخذوا.

عند تلك اللحظة سحب مسدسا وألقمه رصاصة ورفع يده وسدده نحو كارل ماركس. تقدم أحد الرجال وسحب ماركس من يده ثم دفعه نحو الباب.

ضيوف جدد

رغم أن ماركس قد اعتاد خلال الليالي الثلاث الماضية، على لسع الحشرات والرائحة القبيحة وأصوات الحيوانات، ولكن هذه الليلة لم تغمض له عين، فقد أبت أفكاره أن تتوقف عند محطة واحدة. راح يتساءل، يبحث ويتذكر بعض محطات من حياته، داهمه هاجس غريب، جعله يتساءل عن الذي سوف يرثيه، أو الأخرى من الذي يمشي في جنازته، إن استطاعوا استرداد جسده، الذي من الجائز أن يكون عن قريب، وليمة طازجة لأسماك النهر، الذي يهدده هؤلاء به كل يوم. تسييس بالشط، حاول تهجيها بشكل صحيح، بعد أن أخبروه عن معناها اللئيم البشع، ولكنه لم يستطع تلفظها مثلما وردت على ألسنتهم. أبناء العاهرات يستسهلون كل شيء.. تسييس بالشط.. يا لها من مينة بشعة وجريمة قذرة.. الغريب أن مسؤولهم يتحدث عن دين وطهارة، وخير في مواجهة الشر، والكفر والإلحاد والجواسيس وقرود وخنازير، وهو أقذر وألعن من براز بهيمة. فئران البيت الذي أسكنه في منطقة تشوكفارم الفقيرة شمال لندن، أنبل وأطهر من هؤلاء القتلة السراق. ما أعرفه هو أن غضب الفقراء ضد الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج، يتحول عملياً إلى الإطاحة بالقوانين الجائرة، وفي نفس الوقت يهمش الدين، فالدين عملية سحرية لتنويم الفقراء والعبيد. أما هؤلاء الذي يواجههم اليوم، فهم لا يملكون جوع الفقراء ولا غضبهم،

وبقناعة هازلة، يوظفون الدين كغطاء لعوراتهم، وإقناع أنفسهم والآخرين بحقهم على اقتراف الجرائم بدعوى غريبة. الشخص الخبيث الفاسد، يعتبر جميع الصفات البشرية خبيثة وفاسدة، وهؤلاء من تلك العينات المتلبسة بتلك اللوثة. معادلة منصفة لهؤلاء، فكما يكون الإنسان في الدين محكوماً من قبل نتائج دماغه المعقد المتخلف، كذلك تتحكم فيه وسائل الإنتاج وهي نتائج يديه. ولكن شتان بين وعي هؤلاء، وذلك الآخر الباعث للفتنة والمحرض على الخلاص والدافع للارتقاء، ولذا فإن الدافع الأساس للثقافة والوعي ليس الإيمان، بل المنفعة المادية المباشرة أي العملية الاقتصادية. وأرى أن هؤلاء القوم توطنوا الجريمة دون سواها، فأصبحت متن ثقافتهم وطريقهم للمنفعة المادية.

كانه يمسك النجوم بيديه ويرجها. يتذكر الآن هذا الوصف الذي أطلقه عليه صاحبه أنجلز. وصف أطربه حين سمعه، وربما جعله ذلك يتمسك بهذا الصديق حد التشابك الفكري والأخلاقي، رغم تباينهما ووضعهما الطبقي. أن يأتي المديح من أحد الصناعيين الذين انسلخوا عن طبقتهم ليقتررب من الطبقة العاملة، ويبحث عن حلول لأجل تحريرها ونيل حقوقها. كان يقول، إن هذا الرجل حين يرفع ذراعيه أراه وكأنه يمسك النجوم بيديه و يرجها. هل ما قاله رفيقي أنجلز عني، كان حقيقة أم ترى نهايتي قد عقدت في هذه الغرفة دون أن أمسك نجماً واحداً.

وهو في هذه الظلمة ووسط الروائح الكريهة والحشرات

تظن في أذنيه، تخطر على باله رسالة والده التي بعثها له، حين كان يدرس في بون، قال له، يا ولدي أشعر وكأن مارداً يسكن داخلك، لا أعرف هويته، هل هو ملاك أم تراه من ذلك النوع الذي تحدث عنه غوته في فاوست. بين مديح صاحبه ومقولة أبيه، وبعد كل ذلك الزمن الذي أشتغل وكد فيه، دفاعاً عن الفقراء والطبقة العاملة، يجد نفسه اليوم في هذه الغرفة الملعونة، مقيداً وسجيناً بيد أوغاد، وقد ترنح فكراً واهتزت لديه قناعاته، فبات يحمل ذات التساؤل الذي طرحه أبوه. ما طبيعة المارد الذي يسكن داخله؟

خالجته فكرة أن يطلب من سجانيه، وليقل خاطفيه وهو التوصيف الأفضل والأدق، يطلب منهم حقيته الجدية، ففيها بعض الأوراق والأقلام، فربما يجد في ممارسته الكتابة شيئاً من سلوى أو ترجيه وقت، أو حتى تدوين بعض الأفكار الجديرة بالتدوين، بعد هذه التجربة. لم لا أكتب رسائل لمن لهم مكانة في قلبي، بعض من كانوا معي في نادي الشعر، أو من جماعة نادي حانة ترير للمشروب، أو حتى من الهيجلين الشباب، وبالذات صاحبي أدولف روتنبرغ، ولم لا أراسل رفيقي أنجلز، ولكن قبل كل هؤلاء زوجتي بيرتا، حبيبتي بيرتا. رسالتي لها تجعلني على قناعة بأن يوم خلاصي سوف يكون قريباً. فقبل وفاتها كانت تقول دائماً، إنها تؤمن بي فكراً، وإني لقادر على تجاوز المحن والمصائب، وكنت أجد في قولها ذلك ونظراتها ما يطمئن قلبي ويجعله يستكين ويرتاح، أنظر في عينيها لأستمد قوتي، فلم لا أحاورها وأسمعها وجعي، أبعث لها رسالة، حتماً سوف تصل لروحها، وهي في رقدتها الأبدية

داخل قبرها البارد، سوف أكتب لها وأبثها أشواقي ولوعتي.

يا حبيبة قلبي، ها أنا اكتب إليك ثانية، لأنني وحيد ولأنني لا يخلجني الآن أن أحاورك في الخيال، دون أن تعرفي أو تسمعي شيئاً ما، سوف أحاورك، أعرف أنك لا تستطيعين الرد عليّ. ولكني أراك أمامي الآن، أراك رغم عتمة المساء في هذه الغرفة الرطبة الموحشة، وحيد تتناهني الأفكار، وتحيط بي كومة ذئاب تتربص لقتلي. بيرتا الحبيبة، أحملك الآن فوق يدي، وأقبلك من الرأس حتى القدمين، وأركع أمامك، وأتنهد.. مادمت أحبك.. إنني في الحقيقة أحبك أكثر من حب المجنون عطيل رجل البندقية اللعين. حبيبتي تذكرين كل تلك الأحداث التي عشناها سوياً. مشوهو سمعتي وأعدائي ذوو السنة الثعابين، قد اتهموني مرة باني مؤهل لان أؤدي دور العاشق الأول في مسرح من الدرجة الثانية؟ ولكن هذا هو الواقع، ولو كان عند هؤلاء الأوغاد ذرة من مزاج المزاح لرسموا "علاقات الإنتاج والتبادل" في جانب، وفي الجانب الآخر رسموني وأنا عند قدميك، وكتبوا على قصاصة ورق، انظروا إلى هذه الصورة، ثم إلى الصورة الأخرى، غير أنهم أوغاد أغبياء، وسيظلون أغبياء أبد الأبد، لكونهم لا يملكون في قلوبهم طراوة الحب وشجونه، وقلوبهم قدت من صخر، هؤلاء الرأسماليون المرتعدون دوماً.

الفراق الآني جيد للتمييز بين الأشياء التي تتشابه أثناء الحضور الزهيد واليومي، ويأخذ بالتنامي عند مراقبتها، عن كذب. وهكذا الأمر مع العواطف، فالعواطف الكبيرة التي تأخذ

عند قربها شكل عادات صغيرة، تنمو وتأخذ حجمها الطبيعي ثانية بتأثير سحر الفراق، وهكذا هو حالي حبيبتي، يكفي أن تبتعدي فقط في المكان، فأعلم أن الزمن قد خدمه، مثلما تخدم الشمس والمطر النبات، أي للنمو. إن حبي إليك يبدو، على حقيقته، عملاقاً تركزت فيه كل طاقات فكري، وكل خواص قلبي، وإنني لأحس ثانية بأنني رجل، لأنني أحس بالعواطف الكبيرة. سوف تبتسمين يا قلبي الحلو، وتتساءلين من أين لي فجأة كل هذه الفصاحة؟ ولكني لو استطعت أن أضم قلبك الناصع الحلو إلى قلبي، لصمتُ وما تفوهت بكلمة، ولما كنت أستطيع أن أقبلك.. ولكن.

عند تلك الكلمة توقف وارتبك ذهنه، وسالت دمة رقراقة فوق شيبة لحيته، فمسد بيد مرتعشة شعرها المجعد الكثيف.

درج الصبح متسللاً عبر ثقب الجدار ونافاذة الباب العلوي الصغيرة. سمع ماركس ضجة خلف الباب رافقها نباح ملحاح لجوقة كلاب قرب جدار الغرفة الخارجي، ثم سحبت السلسلة الحديدية وفتحت الباب على مصراعيها، ليدخل منه جسد بقرة ضخمة ثم تبعته بقرة أخرى، اندفعتا بهياج وارتباك باتجاه زاوية الغرفة البعيدة. تحامل ماركس على نفسه ودفع جسده، ووقف محدقاً في هذا المنظر الغريب. كانت البقرتان تخوران وتلتصقان ببعض، وكأنهما مرعوبتان تتوقعان اقتراب ساعة الذبح. دخل المسلحون يتضحكون ويلوحون بأسلحتهم نحو الأعلى.

- ها يويل.. جبنالك خطر حتى لتزوج.

لم يجبههم وإنما راح يرقب الحركات المرتبكة للبقرات. كانت واحدة منهن عجفاء ضامرة الجسد، ترتسم عظامها تحت جلد يابس مجعد، والأخرى سمينية بعض الشيء وأكبر حجماً.

- الهايشتين راح أنته ترعاهن بالأكل والمائي وحتى ما يسون وكاحة.

- ماذا.. لا أعرف ما الذي تتحدث عنه؟

- شوف لك لتبيع كلاوات علينه، وتسوي نفسك ما تفتهم عراقي.. أنتم إدزون واحد جاسوس لبلادنا بالخالي بلاش.. إذا مو يحجي عراقي مضبوط وبكل اللهجات.

- ثق بأنني لا أفهم كلامكم.

- هاذتين البقرتين أنت مسؤول عنهم، ولازمون توكلهمن يوميا وتشربهمن المايا.

راح جمع المسلحين في موجة من الضحك الهستيري.

- لك هاي شنو.. أيباه بلجي تعيده مرة لخ.. فدوه داد أبو نهلة أعد رجاء.. هذا منو معلمك، صدقه أندار لهذا اللسان الذرب.. لازمون توكلهمن. وينه عمي أبو بشير حتى يشبعك نعل.. لازمون.. خوش عليك لازمون.

استمرت موجة الضحك والسخرية ولم تتوقف حتى عندما سأل ماركس عن طبيعة الطعام وعدم وجود جردل للماء. وفجأة صرخ أحدهم بسخرية

- شنو يابه شنو.. جردل النوب شنو.. خوش عليك جردل..

هذا شنو ينوكل گلي لو شوي..

- يعني سطل للماي. أجا ب أحدهم على تساؤل زميله.

- لك داد اليوم أنته أتبدع.. لعد يحظي ليش جريست بسادس ابتدائي صباحي ومسائي.

- ليش چان بيدي.. إذا دائماً أسئلة الانكليزي تجي شبحية..

- إشتغل التضرط والتمسالت... شبحية.. وطنطليه.. ما يگول آني دجه دبنك.. شبحية؟

طلب أحدهم، ويظهر أنه يترأس المجموعة، بجلب كومة حشائش وكيس من الخبز اليابس، فجاء بما طلب ووضع جوار كارل ماركس.

- هاي للهوش، ولتطيهن كل العلف، شويه شويه.. زين، ومو تشاركه بأكّل الخبز.

صمت ماركس وطالع وجوه هؤلاء متأماً سحناتهم الداكنة التي لوحتها الشمس وأيادهم المعروقة الخشنة. أجسادهم توحى بالصلابة والقوة وحيوية الشباب.

- أديكم غير هذا العمل؟

- شنو تقصد؟

- أعني ألا تعملون في أعمال غير السرقات وخطف الناس والتهديد بالسلاح أو القتل؟

- لا بابا هاي شغلتنه مال الخطف هواية.. فقط للونسه مو شغل.. نتونس بيك وبأمثالك.. إحنه عدنه أشغال رسمية قبل كل

شي.

- ألا تخجلون من أنفسكم.. من عوائلكم.. ألا تملكون ضميراً
يوئبكم؟

- إنجب لك تره أترس حلكك دخان وأنعل أبوك لابو كل
الألمان لا بو حته ميركل وهتلر. هسه أسويك منخل.

وهو يصرخ بوجه ماركس اتخذ وضع التهيو، وسحب أقسام
بندقية، ووجهها نحو ماركس، ولكن مسؤولهم أزاح فوهة
البندقية جانباً وقال له بصوت ناه.

- يمعود لتسويلنه مشاكل ويه أبو بشير.. تره وربك
إيأذينا.. أبو بشير متأمل خوش حصة من هذا الأرول.. جيبوله
سطة الماي وخلي نطلع.. ياالله يالربع.. كلكم بره. أبو بشير
على جيه بلجي عنده أخبار زينه عن هذا الأرول أبو كفشه.

هل كان غسل ذنوب

قبل أن يحل المساء ويرخي سدوله، ولم تغب بعد حمرة الشمس من فوق تيجان النخيل، دفع الباب الحديدي بقوة وظهر أبو بشير ومجموعة من رجاله ليتوسط الغرفة صارخاً.

- قشمر حقير عميل، والله لأراويك اليوم نجوم الظهر.. تجذب على أبو بشير.. انت تعرف منو أبو بشير.. أني خبالت الأمريكان ودورياتهم، وما خليتهم يگدرون يوصلون للمنطقة.. تويتهم توي، وهسه الحكومة تتوسل بيه.. أنه أبو بشير، ما يتحرك نفر بالديرة، إذا ما أعرف وين رايح ومنين جاي.. شدو بالحبال زين لهذا الاطگع العميل.

- ما الذي حدث.. أليس من حقي أن أعرف..

- قشمر شنو حقك ليش أنته گاعد بالبرلمان لو بالگهوه.. شوف حقير.. اتصلت بالسفارة الألمانية جاوبني على التلفون واحد، كلمته عنك، وعن العرض إلي أخبرناهم بيه حتى نبادلك وياهم، فراح يضحك ويستهزئ مني، وأغلق التلفون بوجهي. اتصلت مرة لخ فرد علي نفس الشخص، ولمن سألته عن موضوعتك ضحك وگال بالحرف الواحد، صحيح هذا صاحب الصورة ألماني الجنسية، بس هذا إلي تحتجزوه يضحك عليكم،

و مزور الجواز الذي بحوزته.. فالرجال الحقيقي صاحب الصورة بهذا الجواز المزور، مات بلندن عام 1883 ودفنوا هناك. أفتهمت شنو صار؟ إنته مو نفس الموجود بالجواز، جاي تريد تلعب على العراقيين، وهسه إنت هل مره جاي تلعب علينا وعلى الحكومة العراقية بحجة عالم آثار.. وبهاي السنة راح تكشف للعالم شلون السومريين فتحو شط الناصرية وسوو البرلمان بالشرطة.. وأشور بانيبال چان ياكل تبسي دجاج.. ومركبات الفضاء اطيرو من مطار أور.. اليوم راح أراويك شلون تتعرف على نفسك، وأطلعك صحيح جاي من الآثار، چنك نبوخذ نصر لو ما أدري منو، اليوم راح أعرفك صدگ، على هذا صاحبك ماركس الميت وإلي إنت مربى لحيه بشكله، وبايك صورته ولاطشها على جواز مزور. جيبو صوندة ومگص جز الصوف ومكينة الحلاقة.. بسرعة يله.. شاكر إنته وقاسم اربطوا هذا بالحبال زين وشدو ويه الهايشه الجبيرة.. يله..

تقدم المسلحان وأخذا الحبل وقيدا ماركس، وأحاطا وسطه بالحبال أيضاً، وسحباه بالقرب من البقرات، ثم ربطا الحبل الملتف حول جسده بخطم إحدى البقرات. تقدم أبو بشير وبيده عصا خيزران وراح يسوط بها ماركس بكل ما أوتي من قوة، تلوى ماركس أثرها من الألم، ثم أشار أبو بشير لأحد المسلحين وناولاه العصا، فأنهال هذا بعصاه بضربات سريعة وقوية جعلت جسد ماركس يتلوى ويلتف على نفسه ثم ينتفض من شدة الألم. تقدم أبو بشير وأخذ العصا من فتاه وراح يضرب بشدة ظهر وعجيزة البقرة، فاندفعت راكضة نحو الزاوية

الأخرى يلاحقها أبو بشير بعصاه. أخذت تدور في الغرفة وتسحب وراءها جسد ماركس ممرغة إياه بالروث والتراب. كان أبو بشير يمعن في إيجاعها بضربات، فتهرب وتخور في مساحة الغرفة. تفجر الغضب عند كارل ماركس فراح في موجة من شتائم تختلط بها العربية والانكليزية والألمانية وبكل ما استطاع من ألفاظ، كي يوصلها لأسماع هؤلاء. ولكن أبو بشير كان يوغل في تعذيبه، يضرب البقرة لتهرب منه ثم يوجه ضربات أخرى لماركس.

رغم هذا الألم المضني دار لحظتها في خلد ماركس ما يحاول فيه تفسير ما يجري له. لم يكن يحمل من الذنوب الكثير ليغسلها على طريقة السيد المسيح بتحمل هذا العذاب والألم، ربما العلاج الوحيد للمعاناة النفسية هو الألم الجسدي، ولكن لم وعن أي معاناة، فهي هو بعد أن أمضى 47 عاماً مناضلاً لأجل الطبقات المسحوقة والفقراء تراه يرزح اليوم لتعذيب همجي من قبل شذاذ الآفاق، دون أن يعرف سبباً مقنعاً أو مبرراً لذلك. ما نوع الحقد الذي يحمله هؤلاء، كيف انحدر عقلهم لمثل تلك البشاعة، ما العمق الروحي لهؤلاء؟ لماذا يمارسون الإذلال لغيرهم من البشر؟ لا شيء لهم في هذا العالم غير الشقاء وعبودية الجريمة. هذه العقوبة التي يتلظى بها الآن تجعله يصر على أن الدافع المادي والمنافع المادية هي عقدة البشر المستحكمة في خيرها وشرها، وهي بالذات من يستعبدهم ويتحكم في صيرورتهم.

حين توقفت البقرة شعر ماركس وكأن جميع عظامه قد

هرست وتفكك جسده، ولم يعد يشعر بالقدره على تحريك أي من أعضائه، وانتابته حالة من الغثيان وأحس بالحاجة للتقيؤ، كتم أنفاسه ولكنه لم يحتمل كل ذلك الدوار والغثيان، فاندفع فجأة وبقوة سائل اصفر من فمه وأنفه.

- شنو هذا أتگول شارب عرگ ومطوخ فد نوب.

- يا عرگ هذا مو أنخبطت مصارينه فوگ تحت.

- عمي هاي غير شغلة العرگ، أنت متدري هذولة الكفرة يشربون بطلين وما يبين عليهم.. الله حله عليهم وحرمه عليه.. هم هاي قسمة وعدالة.. ليش ربي ليش؟

- إي مو تريدها تصير سفرتح، حتى النسوان والرياجيل بالعراق يگومون يلعبون شناو بالشوارع.. متخليها مستوره وجوه رحمة ربك.

- عن يا عرگ تحچون، عمي هذا أبو أشتل.. إنخضت معدته وتريده ما يزوع.

صرخ أبو بشير بوجه الجميع موبخاً

- كافي عاد.. كافي لغوة.. جيبوه... جيبوه يمي.. أني أعرف دواه لهذا الارول القذر.

سحب جسد ماركس وقد تلطخت ملابسه ووجهه بالقيء والتراب، وتمزق قميصه وما عاد هناك لون لملابسه، غير لون التراب المخلوط بروت البقر. كان جسده مطوقاً بالكامل بالحبل الذي التف حول خصره ويديه، فلم يعد يستطيع تحريكهما. أجلسوه أمام أبو بشير، وكان يشعر بدوار يلف

رأسه، ولم يعد يقوى على رؤية ما حوله بوضوح، فكان يترنح بجلسته إلى الخلف ثم الأمام. قبض أبو بشير على خصلة شعر من رأس ماركس الكثيف وراح يجرها بالمقص، انتزع كومة الشعر من الخلف وصولاً إلى باقي الأماكن، فظهرت خارطة مشوهة من بقع للشعر مبنوثة بعشوائية في رأسه، بعد ذلك أخذ أبو بشير ماكينة حلاقة صغيرة ليكمل الشوط ويقضي كلياً على شعر الرأس، فظهر رأس ماركس خالياً من الشعر سوى بقع متناثرة هنا وهناك. نادى بعدها على أحد مساعديه وطلب منه حلاقة لحية ماركس. قفز الشاب من مكانه فرحاً، ثم بدأ يمارس عمله في غاية الخفة ولكن بمحاولات خبيثة لإيذاء ماركس، فأخذ وجه ماركس ينز دماً من بعض الأماكن. استمر الشاب في عمله دون مبالاة لتوجع وأنين ماركس، وحين انتهى قفز وكأنه نال جائزة عن عمله، وراح في موجة ضحك هستيري وهو يومي على ماركس، شاركه الآخرون الضحك. طلب أبو بشير أن يأتي أحدهم بقدر ماء ويسكبه على رأس ماركس، فجاءه بالقدر من ماء الساقية القريبة. بدأ أحدهم يصب الماء ببطء شديد، فأخذ ماركس يهز رأسه في محاولة لجعل الماء يصل إلى جميع أماكن رأسه، ورغم أوجاعه شعر ببعض من راحة. بطلب من أبو بشير تقدم أحد الرجال ليرخي الحبال عن جسد ماركس، عندها لم يكن ماركس بقادر على تحريك جسده، رغم تحرره من القيود، فمال عفويّاً ومد جسده على الأرض محاولاً السيطرة على أعصابه وليأخذ حالة من الاسترخاء. نظر إلى سقف الغرفة وأغمض عينيه من شدة الإجهاد الذي أنهكه.

- عمي أبو بشير هذا شلونه.. طلع چنه عتوي مهلوس.
- گبل چان أحله.. چان يبين أكابر وهيبة، هسه صار مهلوس چنه ديچ هراتي، الأجانب ولد المدس تگول أبد ما شايفين تعب.
- لا يابه هذا إيبين عليه ترف ابن نعمه.. أمه ما چانت تخلي يشتغل.. قابل بشكل حظي الأغبر، عمري عشر سنين وأبويه سوالي چمبر جگاير وعلچ.. ويوميه قبل لا أطلع عيطه وكفخة، ومن أرجع الحساب بالدفريات.
- شعبالكم.. هذولة الأجانب عدهم سبع أشكال..
- ليش همه بزازين..
- ها شلونك عمي ماركس.. هذا التمرين الأول.. بعد كل يوم راح تأخذ تمرينين، واحد الصباح والثاني بالليل إلى أن تستوي وبعدين نكطفك للچلاب.
- قاطع أبو بشير موجة الاستهزاء والضحك التي كان عليها مجموعة رجاله وصرخ بهم
- دفكو ياخه من هذي اللغوه هسه، خلصونه، وخلي نشوف دربنه ويه ذيچ السالفة مال الليل. خوب ما نسيتهو؟
- لا عمي أبو بشير.. شلون ننسه.. يله بينه، يله.
- لم يجد ماركس ما ينفع لو تحدث مع هؤلاء، لذا فضل الصمت، رغم ما كان يعتمل في صدره من غضب وخزين شتائم، أراد أن يوجهها لهؤلاء الحقراء، ولكنه فكر بقدرتهم على

الإيذاء وطبيعتهم الوحشية. أحس بتعب شديد سلب منه كامل قواه، وما عاد يشعر بالقدرة على الجلوس، والبعض من أعضائه ما عادت تقوى على الحركة. سمع السلسلة الحديدية وهي تسحب لتغلق الباب خلف هؤلاء ذوي السحنات القميئة.

فكر ماركس في صورته الجديدة وكيف يكون عليه مظهره بعد الذي حدث، ليته يقف الآن أمام المرأة ليشاهد ما فعله هؤلاء السفلة بتلك اللحية والشعر، اللذان حافظ عليهما منذ أكثر من أربعين عاماً. معهما كان يحلو له أن يكون متميزاً، معروفاً أمام الناس، محبيه، مناصريه، السائرين في طريق أفكاره، ليس سوى تلك اللحية والشعر غير علامة فارقة، تجعلهم يعرفون أي طريق يختارونه ويواظبون السير عليه، تذكر ذلك البرجوازي المعتوه الذي عرض عليه مبلغاً كبيراً لغرض حلاقتهم، وكان يطلق عليه تسمية رجل الغابة المتوحش، ترى ما مقدار الفرح والغبطة التي يصاب بها حين يراه على هذه الحالة.

راح في تفكير عميق وكأنه في غيبوبة أو يمارس ضرباً من الطقس الصوفي، فقد بدت عيناه تدوران بسرعة في مآقيهما، وكور جسده من شدة الألم. حاول أن يللم دقائق ما حدث وما يتربح حدوثه، يا ترى هل يتحمل جسده التعذيب مرة أخرى. ليتهم يتعجلون في قراراتهم، ويأخذونه جهة النهر وتنتهي هناك تلك المشاهد، لتختتم الرصاصة القاتلة حياته، ومعها الرغبات السادية لهؤلاء. هل إن وحشيتهم متأتية من بدائية نفسية؟ هل تتلبسهم في الكثير من الأوقات روح رجل الغاب البدائي؟ أم

ترى أن ممارساتهم وليدة وضع مأزقي سببه بنية القهر التي يعيشونها، لذا فهم عدوانيون متوترون يفتقرون للعقلانية، ولا يرغبون في الحوار المنطقي. ليس لهم رغبة بحوار إن لم يجعلهم وفي جميع الاحتمالات منتصرين وسادة الموقف، فهم دائماً يشعرون بالإحباط والإهمال، يصنعون لهم عالماً متفرداً غير قابل للتهشيم حسب ما يعتقدون، وفي هذا الجو الملتبس تنشأ المصالح المشتركة بين أفراد يجدون في الاحتياك والعنف ما يضمن لهم حقهم أمام الآخرين. عالمهم أشبه ما يكون عالم حيوانات الغابة. الآخر عندهم مهما كانت طبيعته، فهو الخصم الذي يهدد المصير ويريد الاستيلاء على الحقوق حتى وإن لم يبد منه شيء من العدوانية.

أحس ماركس بعد هذا الجهد الجسدي والفكري بالنعاس يتسلل لعينه فراح في نوم عميق.

الخلاص من قبضة أبو بشير

نهض كارل ماركس من نومه فزعاً. أصوات إطلاق نار كثيف دون توقف، وانفجارات قوية وقريبة من الدار، وكأن هناك اقتتال دام بين جبهتي خصوم. كان صدى الإطلاقات والقذائف يتردد وسط الغرفة، تكتمه جدرانها الكونكريتية، فيضغط تردد صدى أصواتها على أذني ماركس فتؤذيها. كانت الظلمة حالكة، لم يستطع معها أن يميز شيئاً من حوله، فجأة شعر باقترب جسد إحدى البقرات منه، وكأنها تلوذ به وتطلب حمايتها من هجوم يستهدفها. اشتدت أصوات إطلاق الرصاص والانفجارات، وأقتربت من جدران الغرفة واختلطت مع أصوات أخرى، بعضها يصرخ بحدة، شتائم وسباب ونداءات وتهديد. لم يستطع ماركس أن يميز كل ذلك، ولم يكن ليعلم شيئاً عما يحدث في الجوار. خمن وهو في عزله الداكنة السواد، بأن ما يحدث هو اقتتال شرس بين فريقين. قد يكون اقتتال بين هؤلاء الأوغاد ذاتهم، فالسلوك الجانح والعدوانية وبدائية التفكير والتناقض الظاهر في شخصياتهم ورغباتهم، كل ذلك يرجح اقتتالهم الداخلي. حالة التوتر الوجودي واضحة لديهم جميعاً. علاقاتهم مع أبو بشير وأيضاً فيما بينهم تبدو علاقات اضطهادية، ودائماً تراهم في حالة نفسية تظهر على تصرفاتهم وفي عيونهم القلقة، وكأنهم على استعداد لخلق

صراع أو معركة مع الآخر.

اشتدت وطأة الاقتتال وأصوات إطلاقات الرصاص والانفجارات والضجيج والصراخ المبهم. فجأة شعر كارل ماركس بقوة اهتزاز باب الغرفة الحديدي. كانت هناك محاولات لفتحه عنوة أو خلعه دون جدوى. ثم فجأة دوى صوت رشقة رصاص باتجاه السلسلة الحديدية ليفتح الباب. سطعت حزمة أنوار سقطت عند جدار الغرفة المواجه للباب، بعد ذلك راحت أضواء مصابيح تتراقص داخل الغرفة، رافقتها إطلاقات اخترقت الظلام فنثر اصطدامها شظايا من حجر الجدران والسقف وقع بعض منه فوق رأس وقرب جسد ماركس. دخل رجال مدججون بالسلاح شاهرين أسلحتهم ووقفوا جوار ماركس وكان أحدهم يصرخ بصوت عال.

- أبق مكانك لا تتحرك.. إرفع أيديك.

رفع ماركس يديه المكبلتين وأشار بهما نحو الرجال.

- منو أنت وشتسوي هنا.. ومنو چتفك؟

- أنا مخطوف منذ أسابيع..

- لا تتحرك من مكانك.

- ولكن من أنتم؟

- أحنه من الجيش العراقي ونبحث عن عصابات الخطف

والجريمة في هذه المنطقة. حتما تعرف واحد منهم؟

- لا علم لي. أنا لست عراقياً أنا ألماني.
- ألماني...؟
- نعم ألماني الجنسية.
- شنو أسمك؟
- كارل هاينريش ماركس.
- عندك أوراق ثبوتية؟
- إنها في حقيبتني التي أخذها مني أبو بشير مع جهاز الكمبيوتر النقال.
- منو هذا أبو بشير؟
- هو رأس المجموعة التي خطفتني. وهو من يمتلك هذا البيت ويدير مجموعة الشباب التي ترتكب الجرائم.
- وبأي شركة أو مؤسسة ألمانية چنت تعمل.. وكيف اختطفت؟
- أنا عالم آثار وأعمل لحسابي الخاص؟
- بيا منطقة خطفوك؟
- لا أعرف المنطقة.. كنت مع شخص آخر أسمه جبار، خرجنا من الناصرية باتجاه بغداد حين اعترضتنا سيطرة عسكرية وهم من اختطفنا.
- وين هذا جبار؟
- ملازم سامي، هذا مو وكت تحقيق.. لازم هناك أشخاص

غير هذا راح نعثر عليهم داخل هذه المناطق من البساتين.

- أوكي سيدي..شباب.. أخذوه لسيارة الطوارئ، لا تفكوا قيوده وخلوه تحت المراقبة لحين تسليمه إلى الشرطة الاتحادية، خلي نايب ضابط طارق يدرج المعلومات عنه في تقرير نهاية المعركة مع باقي الموجودات.

لم يكن كارل ماركس مصداقاً ما حدث، ففجأة تغير كل شيء وبدأت الأمور تأخذ منحى آخر.

قبل دخوله جوف العربة، برجا وتودد طلب من الضابط أن يجلبوا له حقيبته الجلدية الموجودة في غرفة أبو بشير، وكذلك جهاز الكمبيوتر النقال العائد له، كونهما يحتويان جميع وثائقه وجواز سفره وما يثبت شخصيته والعديد من الوثائق الفيلمية. دفع العسكري جسد ماركس داخل السيارة. بعد ذلك أشار الضابط لأحد العساكر بالذهاب إلى الغرفة والبحث عن الحقيبة وجهاز الكمبيوتر، بعد دقائق قليلة عاد العسكري بحقيبة صغيرة كالحبة السوداء وجهاز كومبيوتر نقال.

- هاي هيه جنطتك؟

- نعم هذه.

تحت نور المصباح اليدوي فتحها الضابط بحذر ومد يده وأخرج بضعة أوراق كتب فيها بخط مرتبك وبلغة أجنبية.

- هذه الأوراق كل محتويات الحقيبة...ماكو شي لاخ.

- جواز سفري، هوياتي التعريفية؟

- ما كو أي شي.

- وهل هذا هو الكمبيوتر مالتك؟

- كلا.. ليس هذا.. أسمى محفور فوق سطح جهازي،
وغطاؤه بلون أسود.. أرجوك لعلهم وضعوهن في مكان ما من
الغرفة أو داخل المنضدة؟

- أوكي.. عريف جواد روح دور بالغرفة زين لتخلي مكان
ماتدور بي.

لم تنقطع لعلعة الرصاص والانفلاقات وضجيج الأصوات
والنداءات، ولكنها ابتعدت في عمق البستان المجاور. كان
ماركس يطالع المكان وكأنه يراه للمرة الأولى. ليس مثل
المرات السابقة، فقد حاول هذه المرة التعرف على المكان بدقة
فراح يجول بناظريه ما يحيط بالمكان. رغم ضوء القمر
الشحيح يبدو منظر البستان القريب جميل. نخيل وأشجار وبيت
بعده غرف، كانت الغرفة التي وضعوه فيها تأخذ الطرف
الخلفي منه. أمام البيت ساقية ماء صغيرة تلتف إلى ما خلف
الدار، يعلوها جسر خشبي صغير، وهناك طريق ترابي يذهب
بعيدا نحو عمق البستان. لم يكن ضوء القمر بكاف لرؤية الكتل
الصغيرة المرمية هنا وهناك، ولكن فضوله كان يدفعه للتمعن
بدقة بما حوله.

- سيدي ما لكيت كلشي.

- بكل مكان؟ بالجرارات بغيره؟

- والله سيدي بحوشت كلشي.

تنبه كارل ماركس لكلام العسكري فطلب معرفة ما دار بينهم، فأخبره الضابط بأن العريف لم يجد أي متعلقات عائده له في الغرفة قائلًا.

- يمكن أخذوها وياهم لو تلفوها.

- لقد أخبروني بأنهم أرسلوا صورة من جوازي إلى السفارة الألمانية لطلب الفدية.

- كلش زين تستطيع مراجعة السفارة الألمانية وتحصل على نسخة جديدة.

- نعم.. عسى أن ينفع ذلك.. هذا يحتاج إلى جهد ومثابرة وضربة حظ سحرية.

- ماذا؟

- لا شيء.. متى نذهب؟

- نشوف ننتظر تنتهي العملية ويرجع الجميع، بعدها نحصي الموجود والنتائج.. أعتقد هذا ما يطول وقت طويل.. يمكن بعد چم ساعة.

في هذا الموقف الذي وقع فيه ماركس، وبعد أن شعر بالهرج والضيق والخيبة من الذي حدث لأوراقه الثبوتية، وجد أن ليس أمامه غير خيار التوازن، التوازن بين الانفعال والعاطفة، بين المنطق والعقل، فرغم القلق ومشاعر انعدام الأمن، فإن المرء يحتاج الركون إلى العقلانية في التعامل مع الوقائع رغم الخسارة، فالإفراط بالانفعال وتأجيج العواطف في مثل هذه المواقف لن يجدي نفعًا، وحتمًا سوف يؤدي إلى إنهيار

القدرة على التركيز، عندها يخسر الإنسان الكثير من القوة والحقائق.

بعد أن انتهت جميع الإجراءات، تنبه ماركس لحركة السيارة البطيئة ووجود العسكري الجالس بجانبه، الذي كان يدخل سيارته بشراهة، دون أن يلاحظ عليه أي اهتمام لوجودهم جوار بعض، فالعسكري يبدو مثلما يراه ماركس في عالم آخر، بعيداً عن هذا المكان، بل بعيد كلياً حتى عن سلاحه وبدلته الخاكية المرقطة، وهذا ما يظهر عليه من خلال استنشاقه ونفثه لدخان سيارته.

كمن يريد أن يعب من الدخان أكثر مما تستطيع أن تمنحه تلك السيارة الصغيرة الضائعة بين أصابع كفه الغليظة الخشنة، كان يحاول إبقاء الدخان في صدره أطول وقت ممكن، ثم ينفثه بحدة، يصاحبها صوت صفير غريب يأتي من صدر موجوع منخور.

- كم من الزمن وأنت في الخدمة العسكرية؟

تنبه العسكري واستدار لرؤية وجه ماركس القريب، فالضوء الشحيح في حوض السيارة لا يساعد على وضوح الصورة.

- وأنت شيخصك؟

- مجرد سؤال.. أراك ضجرا.

- قبل ثلث تيام كملت عامي الخامس. وليش تسأل مثل هذا السؤال؟

- شيء من الفضول، فأنا أراك قلقا مكتئبا وربما أنت بعيد
عن طبيعة مهنتك أو تعاني من مشاكل عائلية، هل تحصل على
راتب جيد؟

- الحمد لله، أطيبك هويتي حتى ترتاح.

- هل أزعجك بأسئلتني.. أريد فقط أن نقضي الوقت وأنت
شاب عراقي وأنا مهتم بأوضاع الشباب.

- وحضرتك تريد أتكضي وقتك براسي مو....صحيح أنت
إلماني؟

- نعم إلماني.

- لقد يحظي شجابتك لهذا المهجوم؟

- ماذا تقصد؟

- يعني لماذا جئت إلى العراق؟

- أردت دراسة الآثار والأحداث.

- وبذل ما تدرس آثارنا خطفوك مو؟ يجوز چانو عصابة
تبيع آثار ورا دو يستفيدون من خدماتك.

- نعم... ماذا تقول؟.

- ما كو شي.. وشنو راح تسوي بعد ذلك؟

- سوف أحاول العودة إلى بلادي.

- إي نعم هذا المنطق الصحيح.. مو جاي تضيع وقتك
وعمرك ويانه...كلي هذا منو زينك؟

- ماذا تقول؟
- منو حلق لك شعرك؟.. أملكك تملخ.
- أبو بشير وعصابته هم من فعل ذلك.
- الله يطيح حظهم على هذي الدكة العوجة.
- هل لديك تحصيل دراسي؟
- أنا خريج جامعة.
- خريج جامعة !
- نعم خريج كلية الإدارة واقتصاد.
- وهل من الموجب على خريجي الكليات الخدمة في الجيش؟
- هذا چان گبل على عهد صدام..هسه الآن هذا تغير.. لا تكليف، وأنه تطوعت للخدمة في الجيش.
- ولمَ لم تعمل باختصاصك؟
- حاولت ألف مرة ودورت على وظيفة ودفعت فلوس، ومگدرت.. أو وصلتني محاولاتي لحالة من اليأس حتى همين حاولت الانتحار من قهري.
- الانتحار؟!
- نعم، كلش أستفلس، ما بقت عندي فلوس وبعد ما گدرت على العيشه.بعدين أداينت وأنطيت فلوس يابو فلوس حتى أصير عسكري..وهسه أني بهذا الحال.

سحب سيجارة أخرى وأشعلها من بقايا الأولى، وراح ينفث الدخان بعجالة وظهر عليه الحنق والضيق فاستدار معطيا ظهره لماركس.

- متخليني بقهري.. هسه أنته متكلي منين الله جابك عليه؟
من أحترگ أبو الخلفني على هذي القسمة الكثرة بهذي الليلة السوداء.. أني هم صوچي، ياهو اليجي أحيله قصتي...قشمر مو بيدي قشمر.

شعر ماركس بالضيق وفضل الحوار الداخلي دون استمرار الحديث مع هذا الشاب المسكين، فالحائز أن وضعه النفسي متوتر جدا، ومشاكله لا حدود لها. فكر ماركس بأن من المناسب ألا يشغل ذهنه بعيدا عما هو فيه الآن، فربما أن هؤلاء عصابة أخرى اختطفته من جماعة أبو بشير، والآن هو بضاعة متداولة بين أوباش لا أخلاق و لاضمائهم.

كان ماركس في وضع مربك وصعب جدا، شعر معه وكأن حبالا غليظة تحيط به وتطوقه وتدفعه نحو بئر عميق. فهاهو وبعد أن تخلص من وضع الاختطاف عند مجموعة أبو بشير، لم يجد في ذلك مخرجا لحالة الحزن التي خيمت على قلبه وكيانه، وكانت في حقيقتها امتداد لسلسلة من أحداث، ربما يستطيع وضعها في إطارها العام ومسبباتها، فقد سيطرت عليه منذ تلك الساعة، عندما كانوا يهيمون الدخول إلى مدينة الناصرية، وعند بوابتها الخارجية، حين اكتشف وضع رفيق جبار المخادع. كانت الصور والأفكار تتري في خاطره مثل ومضات عجولة. فليس هو الشخص الذي يستطيع بعد كل تلك

الهزات والمصائب التخلص من التوتر. ربما كان ذلك يحدث معه سابقا، أما الآن فذلك يبدو عصيا عليه. لا يستطيع إسقاط المسببات على الآخرين، أو رميها على القدر ليتم تصريف انفعالاته وتشنجه، وما محاولته الفاشلة للحديث مع هذا الجندي غير واحدة منها. فقد حاول تشتيت توتره وانفعالاته، رغبة في تمضية الوقت وبعثرة مشاعر القلق والتوتر. يتذكر الآن وهو يحاول جسديا التماسك في مقعده مع الارتجاجات المؤذية للسيارة. دائما ما كان يضع لنفسه خطة تقف في وجه طغيان الانفعالات لكي لا يلغي الواقع، ومن ثم تنحسر لديه رؤية آفاق المستقبل وهذا ما يرفضه بشكل قاطع. ما صادفه مع الرفيق جبار وصحبه وكذلك عند عصابة أبو بشير، لم يكن غير مأزق في عقلانية الحياة، وما شاهده وتلمسه، كان عطلا في إمكانات المنطق السوي، وضربا من الواقع المأزوم، حيث بدت الخيارات الإنسانية فيه خرافية وغبية حد اللعنة، حتى مع هذا العسكري المتطير المتشنج الجالس هنا، ولكن روحه ذاهبة بعيدا، فالواقع لا يمكن أن يكون عقلانيا. ترى لماذا تجشم هذا العسكري عناء الدراسة كل تلك السنين، وأجتهد وتخرج ثم رمي هو ومستقبله مثل تلك الرمية الغبية، بعيدا كل البعد عن خياراته واختصاصه العلمي. ليس هناك تبرير عقلائي لهذا الذي حصل، وإن بحثنا عن مسببات هذه الوقائع غير المنطقية سوف نصطدم بقيم وأعراف كثيرة ومؤذية، وأولى تلك الملامح هو التخلف الذهني السائد والنكوص المجتمعي المسبب لكل تلك الإخفاقات، أيضا أياد أخرى تلعب أدوارا فاعلة في هذا المضمار، منها قهر السلطة والعشيرة والعائلة والأعراف

والتقاليد وغيرها، جميعها تقف كموانع أمام أي رغبة في التغيير أو محاولات وضع الأمور في نصابها الصحيح. ومن نتائج ذلك زعزعة القيم والأخلاق والسلوك العام لتتعدم معها الحلول الايجابية، فيلجأ المرء إلى الخيارات غير المرغوبة لديه، أو حتى المفروضة عليه، ليواصل التزامه بوجوده الإنساني، وهذا ما فعله هذا الجندي البائس في خيار انتمائه للسلك العسكري. ولكن هذا المنحى وكحدث جماعي يدفع للتغرب والانسلاخ والخيبة، والسير في طرق وعرة وتسيّد اللاعقلانية، عندها تظهر سوءة هذا في دورة الإنتاج المجتمعية ليعدم نضجها وتكاملها، ومن ثم يفضي لطغيان طابع إنتاج محدد مقصياً قطاعات الإنتاج الأخرى، عندها لن نجد غير اقتصاديات زائفة لا تجلب الرخاء للبلد وأهله، ولا تستطيع تقديم إصلاحاً أو رقيّاً وهذا ما يحدث في العراق اليوم.

- هسه وصلنا حضر نفسك للنزول.

قالها العسكري منبها ماركس الذي كان سارحا في البعيد يحادث نفسه.

- ألا تفك قيودي؟

- ما أكر.. واجبي أبقيك بهذا الشكل لمن يتم تسليمك لمركز الشرطة.

- وأين مركز الشرطة هذا؟

- أحنه كدامه الآن... هسه يجي الضابط وهو ياخذك.

لم يكن في حوض السيارة غير نور خافت يضيء المكان،

ولكن فتحة شباك صغيرة أعلى الباب الخلفي كان يخترقها الضياء، عرف ماركس من خلالها انبلاج نور الصباح. نهض من مكانه ولكن العسكري صرخ به أن لا يتحرك لحين مجيء الضابط. مضت دقائق ثقيلة من زمن لم يعد هناك من يستطيع حسابه، فبوصلته أضاعها ماركس منذ لحظة دخوله مطار العاصمة العراقية بغداد، وما كان ليعنيه أن يكون هدفا لتوقيات فرضت أو لم تفرض عليه، فقد بات يتجنب فكرة مراقبة الوقت، فليس ثمة اجتماع أو موعد مستعجل أو حاجة ملحة في هذا الزمن والمكان العجائبي غير المنضبط. ما الذي يمكن أن يفعله بعد أن اقتربت بحقه كل تلك القسوة؟.

بشفاه يابسة تبسم ثم زمها وهز رأسه. كان حارسا لبقرتين كانتا ترتجفان رعبا حتى من نباح الكلاب، تأكد أنهما كانتا مسروقتين. حلم مرة بأنه أقتادهما نحو حقل واسع وتركهما ترعيان هناك، وجلس هو عند جذع شجرة يرقبهما، ثم أخذته غفوة، فمضت البقرتان بعيدا دون أن يلحظ ذلك، فكان عقابه على غفلته تلك حفلة تعذيب بالعصي الموجهة، رافقتها بهجة وفرح غامر من أبو بشير ومرترقته الحقراء الموبوءين، وكأن ذلك يمنحهم انتعاشاً غريباً بعد غنيمة دسمة، فأستيقظ فزعا من حلمه. هذه اللحظة تذكر عصي أبو بشير فأقشعر بدنه وبغفوية صدر عنه صوت توجع.

- دفتحو الباب نعله على خيركم.

صرخ العسكري وهو يسحب رشفة قوية من سيجارته، فقد شعر بأن الوقت قد طال عليهم ولم يعد يحتمل الانتظار. وأبواب

حوض السيارة مغلقة من الخارج وهنا تكمن المشكلة، ثم راح يتمتم بصوت خافت.

- حتما الضابط ابن المشعول تلگاه گاعد هسه داخل مركز الشرطة يكمل أوراق التسلم والاستلام، بس برهاوته گاعد يشرب استگان چاي، ويمكن يتريگ مع ضابط المركز وعلى كيفه ويه المعاملة، وأنعل أبو الموجود بالسيارة ويضربهم طحيل.. شنو والله ضابط بالجيش العراقي يعني ملك ابن ملك ابن المهلوس.

- ما الذي تقوله؟

- متعوفني أنته بقهري..تره والله أگوم وأبيس بيك وأطلع كل حر البگلي.

- ماذا؟

صمت العسكري وراح في حوارہ مع سجائره التي يجد فيها خير رفيق ينقذه مما هو فيه.

مضت أكثر من نصف ساعة حين شعر ماركس بحركة مغلاق الباب الخارجي للسيارة، أعقبه فتح الباب وبزوغ نور نهار يحمل نسائم صباح مشرق. فتساءل ماركس هل حقيقة أنه قد تحرر أم تراها مرحلة أخرى من الممرارة والعذاب سوف يواجهها هنا من جماعة أخرى أشد قسوة وعنفاً.

نظر إلى مجموعة العسكر الذين تجمعوا أمام باب حوض السيارة وشعر بالتوجس والخوف وهو يراقب نظراتهم القاسية. وأحس بالإرباك وهو يسمع قهقهات يطلقها البعض منهم.

- لك هذا شنو الطويرني المهلوس؟

- خطية هذا شصاير بيه !!

- لا ياظلام..شلاعبين بالرجال لعب.

- تعال خالي..تعال إنزل.

رفع ماركس عجزته بتثاقل فبدا وكأنه غير راغب بترك مكانه، فقد توجس شراً من هؤلاء، ووجد في طريقة استقبالهم له ما يوحي بكونهم من ذات طينة مجموعة أبو بشير، وتوقع مستقبلاً زاحراً بحفلات تعذيب لا نهاية لها.

- تعال خالي لتخاف، تعال.

تقدم ماركس إلى الأمام فتلقفته يد ساعدته على الهبوط من حوض السيارة، وبعد وقوفه بين مجموعة العسكر التي أحاطته، راح يتفحص وجوههم وفي داخله قرار بأن لا يستسلم هذه المرة بسهولة، حتى لوكلفه الأمر حياته، وعليه أن يرد لهم الصاع صاعين إن فكروا بإيذائه. تقدم أحدهم وأخذ بإزالة الحبل الذي كان يحيط بمعصمي ماركس. ثم سمعهم يتبادلون جمل التحايا والتوديع بعد أن أخذه أحدهم وأدخله بناية مركز الشرطة.

- تعال خالي يم العقيد..أنت صدگ ألماني.. صحيح شويه بيك حمار بس ما مبين عليك من ذيچ الديره.

صمت ماركس وكأنه لم يكن يسمع الحديث وتقدم برفقة الشرطي ليجتازوا الممر الطويل، ثم توقفوا عند باب خشبي مطلي بلون رمادي مائل للزرقة وقد جاورته في الأعلى قطعة

خشب صغيرة خط عليها باللون الأبيض دلالة تعريفية، مدير المركز. طرق الشرطي الباب فسمع صوتا من الداخل يأمره بالدخول. دفع الشرطي ماركس من كتفه وأدخله الغرفة. دوى صوت قوي جراء ارتطام حذاء العسكري ببلاط الأرض وهو يؤدي التحية للعقيد الجالس خلف المنضدة، ارتعب إثرها ماركس واهتز جسده لسماع تلك القرقة المدوية والمفاجئة.

كانت الغرفة ضيقة بعض الشيء مع كثرة الأثاث، منضدة عريضة وبضع كراسي وسرير نوم بعثرت فوقه كومة ملابس وغطاء غير مرتب، وجواره على الأرض وضع قذح ماء ونعلان ومجلة وصحن فيه بقايا من طعام.

- لك هاي شنو.. خطية هذوله شمسوين بيلك. بابا ليش انت بهذا الوضع.. چانو يعذبوك.

- نعم أستاذ كانوا يتلذذون في ذلك.

- لعنة الله عليهم.. هذولة مو بشر؟ شوف أبني، أنت صدگ إلماني؟

- نعم..

بدا ماركس في هذه اللحظة وكأنه أخذ يعتاد اللغة الدارجة للعراقيين ويستطيع فك رموز أغلب ما يسمعه.

- عدك ما يثبت هذا؟

- كانت لدي وثائق في حقيبتني الصغيرة التي أمامك، ولكن الظاهر أن أبو بشير وجماعته قد أتلفوها أو وضعوها في مكان ما.

- وكيف تستطيع أثبات ذلك؟

- لا أدري.

- أبني عريف أحمد.. دخذه هسه وعدل حاله.. خطيه ساويله شعره وخلي يغسل.. ريحته تكتل.. وبلكي تنطو ملابس بدل هاي ملابسه المزكه والمطينه.. وأنطو أكل وخلي يبات عدنه چم ليلة، وگول للضابط أبو تغريد خلي يسويله محضر تحقيق ويقدمه إلي باچر بخفارتی.. حتی بعدین نشوفله صرفه وأنسفره.. إبنی أن شاء الله فرجت كلشي يتعدل لتخاف.. أنت صرت بيد الشرطة العراقية وبعد لتخاف.. دتفتهمني لو لا.

- أفتهم أغلب الحديث.. شكرا لك أستاذ.

- شنو أستاذ.. گول سيدي قشمر.

- عريف أحمد على كيفك.. هسه مو وكته خل شيگول يگول.. هو مدني، ويجوز صدك ألماني وتزعل عليه خالته ميركل حفظها الله ورعاها.

قالها العقيد ضاحكا وأشار لعريف أحمد بالانسحاب فدفع العريف بدوره ماركس وسحبه خارج الغرفة.

مَشُورَات «ألف ياء» AIfYaa

في الحبس

مسد ماركس فروة رأسه، فشعر ببعض راحة، فقد باتت خالية من الشعر، لا بل ملساء تماما كراحة اليد، بعد أن ساواها موسى الحلاق ببراعة، دون أية قطرة دم سالت مثلما فعل به أبو بشير ورجاله. فتح صنبور الماء، وراح يسكب المياه فوق رأسه ووجهه ويتذوقه بنشوة رغم حرارته، التي تسببها شمس الصيف اللاهبة. ولعدم وجود رتاج لم يستطع إغلاق باب غرفة الحمام الصغيرة ذات النور الكابي. تلفت قليلا ثم راح يخلع ملابسه قطعة بعد أخرى، ولم يبق على جسده ما يستر حتى العورة. حاول أن يقف تحت الدوش ولكنه وجد الماء لا يصعد إلى أعلى. تحت صنبور الماء صفيحة كبيرة كانت سابقا حافظة لدهن طعام، هذا ما كتب على جدارها، وهناك قدح بلاستيك كبير يسبح وسطها. راح ماركس يراقب الماء وهو يملأ الصفيحة أنتظر قليلا ولكنه لم يحتمل المطاولة مع الماء الجاري بشيء من البطء فأخذ قدح البلاستيك وبدأ يهيل الماء على جسده. شعر بنشوة غريبة، وبانت على شفثيه ابتسامة رضا أفتردها طويلا، راح يتلذذ بسكب الماء فوق رأسه وأخذ يداعبه وهو ينساب فوق شفثيه فيصدر صوت فرقعات خفيفة استطابها، فاستمر يمارس هذا الطقس بفرح طفولي. فجأة دفع الباب ودخل أحدهم دون سابق تنبيه.

- لك هاي شنو شدتسوي.. ليش مصلخ ربي كما خلقتني

وبحمام مركز الشرطة.. أنت مو الألماني لو أني متوهم؟

- نعم أنا الألماني..

- أگول.. لعد منهیچ یگولون الأجانب ما عدهم مستحه.. یله دكمل حتى أني أغسل وراك.

- عریف أحمد قال بأنه سوف یجلب لي ملابس أخرى.

- أوكي.. لعد راح أروح أخبره، وأنی أرجع بعد شویه أريد أغسل لتتأخر..

عاد كارل ماركس للاغتسال، حاول بقوة وإلحاح إخراج رغوة من الصابونة الصغيرة دون جدوى، ففكر بأن السبب ممكن أن يكون عسر المياه، ولكونه خبر ماء لندن فقد أستبعد هذا عن الماء الذي يسبح فيه الآن بعد أن تذوقه. كانت الفترة الطويلة التي قضاها دون اغتسال قد كونت فوق جلده طبقة من الدهون تمنع الصابون من إخراج رغوته، هكذا شعر ماركس مع استمرار محاولاته لدعك الصابونة بالجلد. أصر أن يزيل عن جسده تلك الطبقة من الأوساخ، فراح يفرك جلده بصبر وأناة. بعد عملية طويلة أحس ماركس بأنه أنجز الكثير في هذا الأمر، لذا أسند ظهره إلى الحائط وراح يسكب الماء على رأسه وجسده متلذذا بسماع صوت ارتطامه برأسه ثم جريانه على صدره وجسده، وكان وكأنه في حفل موسيقي يستمتع للسيمفونية الأربعين لفولفغانغ موتسارت، فأغمض عينيه وراح بعيدا في عالم مريح يسترخي فيه ولو للحظات دون خوف أو وجل. فجأة سمع صوت إقتراب أقدام فنهض من مكانه. كور

ماركس جسده أول الأمر ثم وقف وغطى عورته وذهب ليقف
خلف الباب

دفع عريف أحمد الباب ودخل.

- هاي يول بشر إغسلت زين..؟

لم يشاهد ماركس قرب حنفية الماء فصاح.

- هاي وينك؟

- هل جلبت لي الملابس؟

- هاي إنت خاتل وره الباب.. هاك هاي دشداشة وستره
ولباس طويل.. همزين الشرطي محمد بن خيرية هذني الهدوم
زايدات عنده.. يله إلبسهن بسرعة وتعال.

بعجالة أكمل ماركس ارتداء الملابس وخرج من غرفة
الحمام يتعثر وهو يسير بالثوب الفضفاض.

- لك هاي شنو طلعت چنك راعي غنم.. وچماله يمشي چنه
مطهر.

قال ذلك عريف أحمد وهو يطلق ضحكة تنبه لها جميع
رجال الشرطة في الممر الطويل. ثم طلب من ماركس أن
يسير أمامه، حتى وصلوا إلى غرفة الموقوف ذات الباب
الحديدية المغلقة الكالحة اللون الصدئة، تتوسطها فتحة كبيرة
تعلو من منتصفها، يظهر من خلالها جوف غرفة واسع يجلس
فيه مجموعة سجناء. أدار عريف أحمد المفتاح في قفل الباب
الخارجي ودخل مع كارل ماركس. طالع ماركس وجوه الأنفار

التسعة الذي سيكون بعد قليل شريكهم في هذا المكان، وابتسم ابتسامة بلهاء وهو يوزع نظره في محيط الغرفة ووجوه السجناء، بعدها لم يجد بداً من أن يحييهم بابتسامة اغتصبها من خوف. ولكن لم يجد ردة فعل من أي واحد منهم، سوى نظراتهم المستفسرة والباحثة في نوع هذا الجديد الذي جاء به العريف.

- أبو جعفر أنطي بطانية من يطغك، هذا خطر عدكم يوم يومين.. خطية چان مخطوف وهو تعبان.

- تدلل أبو شهاب ويدلل خطرنا، تعال عمي تعال هنا يمي، هاك هاي البطانية أفرشها.

قال السجين أبو جعفر ذلك ورفع الغطاء الصوفي وفرشه جواره فتقدم ماركس وجلس هناك.

- إبنی شنو أسمك؟

- ماركس..كارل ماركس؟

- هاي شنو أسمك أجنبي؟

- نعم أنا ألماني.

- على الخير والبركة.. چا هيه بقت عليك؟ ذاك اليوم چان خطرنا تركي أيگول هو ابن عم أردوغان، تالي طلع حشاش مضبوط معطب من گاعه.

قال آخر بنبرة استفزازية عدوانية، إعتاد أستخدمها مع أي قادم جديد للسجن.

- هسه أنته لابس دشداشه وستره وأكرع وشويه ابيضاني
وهمزين ألماني مو گرايب عزت الدوري وتشتغل عليك
القنادر..

- أشوفك تعبان وراح الأيام اتطول عليك مثل حالي،
صارلي تسع تشهر خايس هنا ويگولون أوراق التحقيق بعد ما
رجعت من المحكمة..تگدر تنام وترتاح بعدين نسولف، كل
الليل عشه وسوالف.

هكذا بادر أبو جعفر طالبا هذا من ماركس. وأعقبه أحدهم
قائلا :

- خالي أبو جعفر هذولي يسوون هيچ ويخيسونك بالسجن
حتى يخلوك تستوي على صفحتين لا ثالث ألهن، لو تطلع
وتصير أرهابي، لو تخنع وتبلع الوجع وتركع ألهم.

- عفه أنه أبو جعفر أركع الواحد..بس الله الواحد القهار اطخ
راسي إله.هو العمر واحد لو أكو غيره؟ عمي ماركز انته
تعبان..نام خالي نام.

- شكرا استاذ أبو جعفر.

- استاد، أنه؟!

مدد ماركس جسده المتعب فوق الفراش الصوفي، ووضع
كفيه تحت رأسه، وسرح بعيدا متذكرا وضعه في زريبة بيت
أبو بشير، وكيف كانت توجه له التهديدات اليومية بالقتل
والمعاملة القاسية، التي كان آخرها حفلة التعذيب التي شاركت
فيها البقرة. لقد كان قاب قوسين وأدنى من الموت. ليس أمامه

من مخرج بعد كل ذلك العذاب غير البحث عن الذي يخلصه من ورطته ويرجعه إلى بيته في لندن. لم تعد له حاجة بالمعرفة عن وضع العراق الاقتصادي والسياسي، بعد أن تيقن بشكل كامل بأن ليس هناك نظرية يمكن لها أن تتعرف على طبيعة وصيرورة هذا المجتمع ومسيره ومآلاته. وهو لم يعد يملك أوراقاً ثبوتيةً ليقدمها كدليل على مواطنته الألمانية وسكنه الإنكليزي، وتلك تكفي لوضعه في مأزق خانق لا يستطيع الخلاص منه، والطامة الأخرى أن ملامحه قد تغيرت كلياً، كذلك لا يعرف بالضبط مكان الرفيق جبار وفي أي ناحية من نواحي بغداد يقع الفندق الذي يملكه، ويا ترى كيف يصل إليه؟، وقبل كل ذلك أين هو الآن بالضبط؟ وهل حقيقة أنه في أمان في هذا المكان؟

بدا الناس يطرق عينيهِ ولكن الأحاديث المختلطة بين السجناء ومثلها ما يسمعه من أصوات عالية تأتي من خارج غرفة السجن، كانت تضيف صعوبة على محاولاته.

ليس من السهولة نسيان القسوة

مثل المرات السابقة دخل حانة ترير للمشروبات. كان يتأبط مجموعة أوراق وضعها داخل كراس بغلاف اخضر داكن. كان على موعد مع إحدى صديقاته الجديديات. أيضاً كان يشعر بشيء من المسؤولية تجاه هذا النادي، بعد أن أصبح رئيساً مشاركاً فيه، ولم يكن فقط حبه للشراب الدافع الأوحد لوجوده ومشاركته في النادي، وإنما الألفة وروح الشباب والنقاشات المستفيضة، في شتى مجالات الحياة وبالذات الفلسفية منها. هبط السلم محاذراً، يتكئ بيده على الجدار المطلي بلون قهوائي غامق. درجات السلم دائماً ما كان يحاذرها، وكانت مصدراً لقلقه وخوفه من السقوط حين تهبط أقدامه عليها أو حين يتسلقها، صغيرة ضيقة تربك الأقدام. وصل عند الباب الداخلي للحانة ودخل وسط الصالة. دخان السجائر يغطي الكثير من ملامح المكان، ولم تكن الأنوار تكفي لتبيان ما يحويه الحان. عند الزاوية البعيدة جلست مجموعته. كان يكبرهم جميعاً ببضع سنين، ومن بينهم من هو ناضج وعقلاني، ويقدم الكثير من الرؤى والشرح الفلسفي بسلاسة ومقدرة يحسد عليها، ومنهم من يمتلك أيضاً ملكة شعر حقيقية. اليوم جميعهم ينتظرون منه أن يقرأ لهم قصة قد أكملها حديثاً، سبق ووعدهم بذلك. حياهم

فتهللت أسارير الجميع. جلس وسطهم وطالع الوجوه النظرة وهي تحقق به. كانت فتاته مثلما اعتاد عليه، تنظر نحوه خلسة بين فينة وأخرى، ود لحظتها أن تلتقي عيناها ليدعوها للأقتراب والجلوس جواره، ولكن الحياء كان يسيطر عليها. كان صاحبه أدولف روتنبرغ يراقب حديث العيون هذا، وتعلو وجهه ابتسامة رضا، ثم غمز بعينه لصاحبه وأحنى رأسه إلى الأمام.

فتح كارل ماركس كراسته قائلاً، سوف أقرأ لكم قصتي الجديدة التي عنونتها العقرب وفيليكس. ران على الجميع الصمت، ويخال وكأن الدخان قد توقف أيضاً عن الحركة في انتظار قراءته للقصة. لم يطلق بعد جملة الأولى حين ضج المكان بأصوات غريبة وصراخ لم يفقه ماركس منه على ما يدل أو على من تنادي تلك الأصوات. كانت هناك قامات رجال ترتدي ملابس سوداء وأقنعة، تتسلل من الباب لتنتشر في أنحاء الحانة. كانوا يحملون أسلحة رشاشة وسيوفاً، دون مقدمات راحوا يطلقون الرصاص على الجميع. رائحة الدخان والموت بدأت تطغي على المكان. أصبح كل شيء أسود كالحا لا يرى فيه غير ومض إطلاقات الرصاص، لحظتها كان أبو بشير يقف عند نهاية السلم يتكئ على إطار الباب ويوجه رجاله ويحضهم على قتل الجميع.

سلط أبو بشير نظره عليه، ثم سحب مسدسه وسدد نحوه مباشرة، سمع صوت الاطلاق، ولاحقت عيناها مسارها، فصرخ بأعلى صوته، ولكنه شعر وكأن حنجرته قد تبيست مثل

أرض بور عطشى، أراد التحرك تحاشياً لمسار الرصاصة، ولكنه لم يستطع الابتعاد، وبقي مسمراً مكانه وكأنه قد كبل بسلسلة حديد ثقيلة.

- يمعود.. هاي شببك.. أگعد.. أگعد مو خبلتنا.. هسه إحنه أطباكات وهلمرة أجيت أنت... أگعد!

كان أبو جعفر يهز جسد كارل ماركس بقوة، ويطلب منه الاستيقاظ، ولكن ماركس لم يكن يشعر بما يدور حوله، وقد نز العرق غزيراً من جبهته. فتح عينيه ليرى وجه أبو جعفر قريباً منه وهو يناديه أن يستيقظ.

- هاي أنت بأول يوم وبديت تتخل بنومك، لعد من يمر عليك چم شهر شلون... ميه بالمية تلحگ ويطگن عدك كومة فيوزات.. أگعد عمي أگعد وسمي باسم الرحمان.

- كان حلماً مزعجاً.. إلى هناك لحق بي أبو بشير وعصابته.

- هذا غير حلم أنقطع بي نفسك، ما تكلي منو هذا أبو بشير؟

- هذا هو وجماعته.. من اختطفنا.

- بيا منطقة؟

- لا أدري فأنا لا أعرف المناطق.

- وما لزموه الشرطة؟

- لا أدري؟

- أشو أني ما أصدگ أنته ألماني.

- لماذا لا تصدق؟ أقسم لك أني ألمانى.
- شكلك وحتى من تحلم چنك مثله أحنه العراقيين.. نتخبلى وننر عص من نحلّم وعياطنه يوصل الذاك الصوب.
- لا يختلف البشر بطبيعة أحلامهم، وبشكل وآخر هم حالمون في صحتهم ونومهم.
- عمى إحنه العراقيين من الكماط والكوابيس تنام على كلوبنا.. جعفر أبني بساعة ما جابته أمه، تكول چنه ذيل أبو بريص من ينگطع.. مرعوص ويخض بروحه وعشر دقائق ما يثبت. عوفنا من هذا.. گلى أنته متزوج؟
- نعم متزوج وعندي أبناء ولكن زوجتي متوفية.
- وأهلك هسه وين عايشين؟
- في لندن.
- صاح أحد السجناء الجالس في الزاوية البعيدة، وكان يراقب ويستمع لحديث أبو جعفر مع ماركس.
- حلو طلع كرخي وساكن بالرصافة... وبعد شويه راح يگول عندي عماتي ساكنات بفرنسا.. هاي شلون دبرها الأخ.. يابه وروحه الخالي إذا هذا ما طلع طاك عده فد چم كويل، أنى مو ابن أبويه، دشوف شلون يباوع وشلون يحچي.. چان بالحلم يرفس رفس، أنى گلت راح تطلع روحه. همزين أنت أبو جعفر لحگت عليه.
- أبو خيون عليه بتاليها، وخلوه خطيه يجوز صدگ متعذب

والخوف بعده بگلبيه.

- زين الشرطة خوب ما ضربوك لو هانوك.. تره أخونه أبو معتز مجربهم هوايه.

وأشار بأصبعه نحو رجل يرتدي كنزة صوفية وقميص أبيض وبنطال رمادي ويجلس القرفصاء جوار باب الغرفة.

- أخونه أستاذ أبو معتز ميهتم بالحر، لأنه يشتغل بحقوق الإنسان، وصارله تسع تشهر معتقل، ويوميه يأكل فلقة من الشرطة لأن يتعيقل بروسهم ويتوعدهم بعقوبات شديدة، يگول راح تجيهم من منظمة العفو الدولية، شنو يابه، لأن همه ديخرقون حقوقه الإنسانية، وچماله ليهسه أهله ما يدرون وين هو مسجون، ومحد سأل عليه.. هاي شلون واحد يشتغل بحقوق الإنسان، وينشمر مثل هذي الشمرة.. وخطيه بعده مصدگ أنو المنظمات الدولية راح أداعي بيه. وبس لا تكون أنته بشكله وتنتظر منظمات حقوق الإنسان بألمانيا أداعي بيك.

- عيوني حجينا أبو جعفر هاي المنظمات عدها هوايه مشاغل.. فد يوم تشوفني بالتلفزيون وراح أجيب طاريك، وأعرض مشكلتك ومشكلة كل المساجين ألي بالعراق.. تره داعيك مو هين وهذوله الشرطة راح فد يوم ارأويهم منو أبو معتز واردلهم الصاع صاعين.

هكذا أجاب أبو معتز، وهو يعتدل بجلسته ويتناول كتابا من تحت وسادته.

- عمي هسه أنته دير بالك على روحك.. وتعرف تره هذوله

الشرطة هم مساكين.. مأمورين مو بيدهم.. شتگول أخونا
ماركز؟

- حول ماذا؟

- عن هذولة الشرطة تراه هم مساكين.

- نعم.. جهاز الشرطة اخترعته السلطات البرجوازية، ليس
رداً على تفشي الجريمة بقدر إدراكها لتزايد الحشود
ال جماهيرية السياسية، وبالذات المؤازرة للطبقة العاملة التي
باتت تهدد مصالحها الاقتصادية. سلطة البرجوازية في مسعاها
هذا تضع نصب أعينها، مهمة مراقبة الطبقة العاملة والتدخل
في صلب إدارتها، مثلما اخترعت التعليم لتثبيت من خلاله
مفاهيمها وقيمها وسط المجتمع، وهناك الكثير مما تقدمه
الرأسمالية لقلوبة المجتمع، ووضعه على خطى خياراتها..
ولكن الحتمية التاريخية تقول إن للطبقة العاملة كلمة ومفاهيم
أخرى، وهي التي تنتصر في نهاية المطاف.

- يمعود على كيفك وين رحت، وين وديتنه، إحنه تراه ما
عدنه شغله بهاي السوالف.. دور وجهك ونام وأچفينه شرك..
عمي هسه محبوس على سالفه قچق يم الحاكم هينه.. داعملك
واحد تدبر يم القاضي، وبواسطة العشيرة تفض بچم دفتر..
عركة وبيها مجاريح ومفاشيخ.. دفتر دفترين نطلع بعدهن
ونشتم هوه ربك.. سوالف السياسة ما تجيب غير الفاينات
وگطعان الأرزاق.. وتعال وأثبت كون أنت ما عندك شغل بيه..
تره الخوف بعده بگلوبنا من ذيچ الأيام ليهسه.. نام خالي نام..
أني گلت هذا الصماخ بي بلوه.. طلع شایل بلاوي.

- حجي أبو جعفر وروح الوالدة العزيزة تراه هذا فيوزاته طاغات ومشخوط بالكامل.. عوفه لتبتلي.. تراه هسه يگوم يغرد بعد أكثر... وتصير بينه دگة ما تتحجي، بشكل ذاك العهد، نطلع كانه مشتركين لأن إحنه چنه نستمتع إله، وما خبرناهم عليه وتعال هلمره خلص روحك.

- لا عمي راح ذاك الوگت بس مثل هذي السالفة لا گفه طين.. وإحنه ما عدنه خلگه.. شنو برتواجية شنو طبقه عاملة.. أشو العراق من شماله الجنوبه كل الناس بيه فد سوه.. كلها تركض والعشه خباز.. وتسعة وتسعين بالمية من العراقيين ييجون ويلطمون من الصبح لليل وأمورهم لاگفة هوه، ليش هو أكو برتواجية لو ما أدري شنو.

- هذا ليس حقيقياً..

- شنو قصدك.. شنو المو حقيقي؟

- قولك بأن الجميع سواسية وليس هناك فرق بين الطبقات.

- عمي إنت ليش متنام وتعوفنه.. إي هسه أنت منين الله جابك؟

- عزيزي أو الأحرى أعزائي جميعاً.. إن تاريخ أي مجتمع حتى هذه اللحظة، ليس سوى صراعات طبقية.. حر وعبد، نبيل وعامي، بارون وقن، معلم وصانع، وبكلمة مختصرة ظالمون ومظلومون، وهم في تعارض دائم، خاضوا ويخوضون حرباً متواصلة، تارة معلنة وطوراً مستترة، حرباً كانت تنتهي في كل مرة إما بتحول ثوري للمجتمع كله، أو

هلاك كلتا الطبقتين.

- يا يابه.. يا بويه.. يمعودين رحمه لأجدادكم تعالوا طلعوا الهاذة قبل ما يخبلنه.. صارلي سنة ونص بالتوقيف وراسي يوميه يريد ينفجر من طنين الذبان وهوسة المركز، هلمرة جبتولنه واحد مخبل ومستوي.. ويحجي سوالف ما نفتهمه.

صرخ أحد السجناء بعد أن استمع لما تفوه به كارل ماركس، وراح ينادي على الحرس الواقف جوار الباب أن يأتي ويأخذ ماركس بعيداً عن غرفة الحبس.

- هاي شببكم يمعودين تراه يبين عليه حباب ويريد يسولف.. ما بيه شي.. خوب ما ضربله لو أعتده على واحد.. خلوه خطيه يدرم.. الحجي بفلوس لو مو بفلوس.

- عيوني أبو معتز شنو إحنه عايزين لغاوي، حتى يجي هذا الطباقات يفرغ لغوته براسنه. نسيت ذاك الشهر من جابولنه واحد غال أنو هو أستاذ بالجامعة، وهم خرط براسنه اسبوع كامل، تالي بأول راشديين طلع يبيع جكاير وشخاط يم جامع الخلاني.

- إي ولله صحيح هذا همين بعد راشدي وجلاقين من عريف أحمد راح يبين من يا مله ويا نوع من أنواع السخات محبوس عليه.

* * *

رغم أنه أعار ماركس بطانية صوفية، ولكن السجين أبو

جعفر ومنذ البداية لم يكن ودوداً بشكل كامل وقد انتفض بوجه
ماركس بسورة غضب غير طبيعية بعد أن سمعه يقول في
حديث عابر بأن الإنسان هو بالمعنى الحرفي حيوان سياسي
وليس مجرد حيوان اجتماعي، ولكنه حيوان يحاول أن يميز
نفسه وسط المجتمع وإن أفكاره هي خلاصة لحالته المادية
الاجتماعية.

عندها صرخ أبو جعفر بصوت تردد بقوة بين جدران
الغرفة وجلب انتباه الجميع بمن فيهم الحرس.

- لك أنته يبين عليك فد واحد زنديق كافر ملحد ماكو مثلك..
گوم من هنا.. جيب البطانية لا هسه أشوفك النبي عربي
والملائكة شهود.. گوم.. الإنسان حيوان اجتماعي.. هاي هم
چانت عايزة.. هاي أنته مو غيرك بهذا الشكل.. ساعة
المصخمه الجابوك يمي..

أثناء الصراخ والتهديد سحب أبو جعفر الفراش الصوفي من
تحت ماركس وتركه منبطحاً على الأرض الأسمنتية.

- تعال خالي.. تعال هنا يمي.

جاء صوت أبو رمزي خافتاً واهناً وكأنه يقول ذلك
باستحياء. وهو السجين الجالس قرب باب الغرفة وطاويأ قدميه
تحت عجزته

- يمعود أبو رمزي خل يولي.. تره هذا زنديق راح
يضوجك، وأنته بيا حال ورجال مريض.

- ميخالف عزيزي أبو جعفر هم خطيه مسجون مثلنا..

شوف شنو عنده من مشكله.

التفت أبو جعفر نحو ماركس وطلب منه الذهاب إلى جوار
أبو رمزي، فلم يتردد ماركس وذهب إلى هناك حيث قدم له أبو
رمزي بطانية صوفية افترشها جواره فجلس ماركس عليها
شاكرا أبو رمزي صنيعه.

- لا يابه عليمن تشكرني كلنه بمحنه السجن..

- وهل أنت أيضا لك فترة طويلة في السجن؟

سحب أبو رمزي نفساً طويلاً ثم أطلق حسرة أطول منها
وتنهّد وطأطأ رأسه وأجاب

- من ونييني الناس حارت والأفكار اليوم جارت

بالعكس دنياك صارت وأصبح المتبوع تابع

- لم تجبني؟

- قدمت لك خلاصة الموضوع، لتلح اخويه.

- سيدي العزيز لم أفهم الحديث بشكل واضح.. وما
المقصود؟

- عزيزي الدنيا أفترت ودارت وتشوفني اليوم سجيناً وهاي
هيه الأشهر تمضي ومحد يفرج عني.

- وما سبب سجنك؟

- أخونا الطيب لتستعجل..السوالف راح تحيك أجن أجن،
سوف يطول بك المقام وتأتيك جهينة بالخبر اليقين.

- وماذا يعني ذلك؟

- بالصبر كضيت العمر والراس شيب من زغر

العصفور ميصيد النسر واللوم ميبرد جمر

- يظهر أن قصتك قصة..

- سوف تكون بيننا ليال طوال وأحاديث كثار، وتفصح أنت عن وضعك، وأحدثك عن وضعي لنتسامر بالروايات.. أليس ذلك أفضل.. يا صاحبي السجن، أما أحكما فيسقى ربه خمراً، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه، قضى الأمر الذي فيه تستفتيان. وأنا وأنت واحد من هذين السجينين. ثم أطلق ضحكة طويلة ودفع بيده كتف ماركس مازحاً.

- إنك تزيد حيرتي يا سيدي.

- لا تحتار فأنا أعني احنه راح نتسامر بالأحاديث في قادم الأيام.. أوكي؟

- حسنا لندع الأمر إلى أيام قادمة.

في حضرة العقيد لطفي

شعر ماركس باكتئاب حاد بعد أن اجتاز الوقت ما بعد الساعة السابعة مساءً، وقد عانى خلال فترة النهار من تخرصات باقي السجناء، فبعضهم أتهمه علناً بالجنون، وآخر بالjasوسية. لا بل عده أحدهم كافراً ملحداً، بعد أن سمع منه ما لا يقبله عن المجتمع وطبقاته، وكيف تستغل البرجوازية الكثير من المناسبات والتقاليد والأفعال المتخلفة وحتى الدين لخدمة أغراضها والحفاظ على مكاسبها.

تفرس ماركس وجوه زملاء الحبس، ثم أدار وجهه وحاول العودة إلى النوم وتركهم في حديثهم الهائى الشاكي، ولكنه كان يركز سمعه على ما يتفوه به هؤلاء، محاولاً معرفة ما يعنيه لهم وجوده بينهم، فشعر بنبرة العداء التي تفصح عنها جميع أحاديثهم، دون أن يجد من بينهم من يدافع عنه، سوى أبو معتز الذي راح في إغفاءة عميقة وكذلك أبو رمزي بصوته المعلول الراجف.

جميعاً وفي كل المنعطفات، من شاهدتهم ومن واجههم وتكلم معهم ولاحظ تحركاتهم وتمعن أحاديثهم، وجدهم يتشابهون في الكثير من الطباع والتصرفات، الحدة، التطير، التشاؤم، الإدعاء وتضخيم الأمور، الخصومة، المناكفة والهزء بالآخر وحتى تبخيس الذات. تذكر ما سبق أن وصل إليه من استنتاج حين دون في دفاتره، أن الانكليز لديهم جميع الشروط المادية

لثورة، وما ينقصهم هو روح الحماس الثوري، ولكنه هنا يدرك الآن بأن العراقيين وبالمطلق، هم غير الانكليز، لديهم الكثير من الشروط للثورة، ويتوفر فيهم الحماس الثوري، ولكن لهم قدرة غريبة عجيبة على بعثرة قواهم، وتغليب تلك الطباع وتشثيت جهودهم في اللاجدوى.

قبل منتصف الليل فتح باب غرفة الحبس ودخل العريف أحمد، الذي لم يظهر طيلة النهار في مركز الشرطة. تقدم ناحية ماركس الذي كان نائماً مكوراً جسده ومتخذاً من كفيه وسادة. لكز العريف أحمد بحذائه ساق ماركس، فلم يجد استجابة منه، فكرر الأمر بقوة ولعدة مرات وبشكل سريع، فاستيقظ ماركس ونهض فزعاً فاركأ عينيه محاولاً استجلاء الوضع مع الضوء الشحيح للمصباح المعلق في سقف الغرفة.

- إنهض يريديك العقيد.

- وبهذا الوقت من الليل!

- ليش حضرة جنابكم لازم إنته من يقرر المواعيد.

- أليس من المناسب أن يكون مثل هذا الأمر في النهار؟

- هذا ميخصك والعقيد هو إللي يقرر. وإذا تشوف عندك مانع غلي حتى نروح لغرفة الحمام ونشوف شلون تمانع بعد ما تلعب الصونده على ظهرك ورجليك لعب.

- وماذا يريد العقيد؟

- إمشي لك قشمر، هلمرة تره حمضته.. إذا تستمر بهذا الشكل تره تشوف إللي ما شفته بحياتك وأخليك تفره زيزي

وتغني أبوذيات... ومن جانبي ألغي قطعيا مقابلتك للعقيد
وأختصرها بس من يمي.

رفع ماركس جسده بتثاقل فشعر بألم حاد في قدميه وباقي
أعضاء جسده ولكنه وقف معتدلاً وتحرك وراء العريف أحمد
مجتازاً الممر الطويل حتى غرفة العقيد. طرق العريف الباب
ثم فتحه وسحب ماركس من يده وأدخله الغرفة ووقفا أمام
العقيد.

- إي هسه بيها مجال.. ظهرت خلقتك.. بينت أدمي... شنو
إسمك كتلي؟

- ماركس.

- أسمك الكامل.

- كارل هاينريش ماركس.

- ألماني مو؟

- نعم ألماني.

- وشلون نعرف أنو أنته صحيح هذا الشخص، مثل ما
تدعي، والتقارير الليلي البارحة يگول أنه ماكو هناك دليل على
صحة أدعائك.

- لا أدري..

- ما تگدر تثبت شي يحدد هويتك؟

- كلا أستاذ.

- لك مو علمتك.. گول سيدي
- هكذا قال له العريف أحمد وهو يلكره في ظهره
- لعد شنو تگول أني أسكن بانكلترا.
- سكتني بعد أن غادرت ألمانيا هو لندن.
- يعني ماخذ جنسية بريطانية همين؟
- كلا أستاذ أنا مواطن ألماني.
- وتدعي عالم آثار؟
- أنا كذلك.

فجأة طلب العريف الحديث فوافق العقيد

- سيدي نقل لي الشرطي عباس شناوة.. گال.. طول اليوم صارت لغاوي بين السجناء، أبو جعفر يگول على ماركس كافر وزنديق، أو سجين لآخ يگول عليه مخبل وطباغات، وشلاگه الجايحي يگول عليه جاسوس.. والأستاذ أبو رمزي قبله وخلاه يمه، واشتغلت رحمة الله بالابوذيات والأشعار.. اليوم كله صارت غرفة السجن مثل طولة مال صخول، وكلها تمعمع والسبب هذا، لأول مره يصير عدنه هذا الشي. وحته من طب للحمام هم هناك نزع كل هدومه وسبح ربي كما خلقتني وما استحه.

- شوف ماركس، تره أني ما عندي خلگ طويل.. أنته بالصحيح منين وشنو.. گول أحسنلك وفضها حتى هسه أندز أوراقك ونخلص، وبعد چم يوم ترجع الأوراق ونرحلك للجهة

ألي تعود أها.

هكذا صرخ العقيد وهو يقف ليتناول علبة السجائر من
طارف المنضدة.

- أستاذ لا أعرف وهذه كل ما لدي من معلومات أقدمها،
ولو كان جبار هنا لأوضح لكم حقيقة أمري.

- ومنو هذا جبار؟

- أنه الذي اقلني من الناصرية وهو يعرفني حق المعرفة.

- هو أقاربك؟

- كلا هو من كان يقود المركبة التي اختطفنا معها.

- وأنته تعرف اسم جبار الكامل وعنوانه؟

- كلا.

- متعرف وين يسكن.. حته نكد نساعدك؟

- حتى هذا لا أعرفه سيدي.

- لعد شلون مدكلي أنته منو... متأكد أنت ألماني وعالم آثار؟

- نعم.

فجأة قال العريف احمد

- سيدي تذكر الجاسوس الإسرائيلي أچان عايش سنين
أبيروت يكد بالشوارع ويسمونه أبو ريشه، والناس تتصدق
عليه، تالي من اكتسح الجيش الإسرائيلي بيروت، مو طلع عقيد
بجيش إسرائيل، وركب دبابه وگام يدور على القيادات

الفلسطينية.

- أي أذكر هذا الشيء، وشنو قصدك؟

- قصدي خاف هم يطلع الأخ جاسوس ويگول آني عالم بالآثار.

- عريف أحمد هسه حته لو طلع جاسوس شراح نگیرد نسويله.. نحيل أوراقه للمحاكم بعدين يدخلون الأمريكان ويطلقون سراحه.

- هاي شلون سيدي؟

- أي هاي الحقيقة.. بالنجف اعتقلوا جاسوسة إسرائيلية دخلت للعراق بحجة صحفية وبوثائق أمريكية، وچانت تسكن بفندق بالنجف، أسمها باراس تمر أفيفا، ومكان ولادتها تل أبيب وعدھا هوية ورقم مال الجيش الإسرائيلي، وچماله عدھا جواز إسرائيلي، وهمينه الجواز الأمريكي.. الامريكان تخبّلوا ورأسا ضغطّوا على الحكومة وخلوها تطلق سراح هاي الجاسوسة.. هاي هيچي صايره الأوضاع.. وهذا حتى لو كان جاسوس هم راح يطلع منها مثل الشعرة من العجين.

- الظاهر انكم انتهيتم للاعتقاد بأنّي جاسوس.. ولصالح من أتجسس؟

- لإسرائيل.

- حسب معرفتي فأن أكثر من عضو في البرلمان العراقي وباقي دوائر الدولة وفي حكومة إقليم كردستان من يزور إسرائيل، دون ضجة، وهؤلاء يعملون ضمن دوائر إدارة

السلطة العراقية فما الذي تريده إسرائيل مني.

- سيدي هذا حبيه مصفط.. هذا لو چان عالم جبیر وعلى غفله سعد عده الضغط وطگن وایراته لو أنا شویه ما أفتم.

- يمكن الثانية هیه الصحيح.

- سيدي تره أكثر الالمانیین یکرهون إسرائيل والیهود.

- هاي شمدریک عریف حمودي؟

- سيدي سوالف سامعها من الناس.

- یابه مارکس صحیح أنتم الألمان تکرهون الیهود؟.

- لیس کرها سيدي.. فأنا لا أکره بشراً ولا ديناً.

- هاي شلون عود.. هاي جديدة ما سامع بیها.

قالها العقید وهو یقهقه ویسحب كأساً من تحت المنضدة ویرتشفه بعجالة ویمد یده لیتناول ملعقة من اللبن الموضوع أمامه فی صحن صغیر.

- تگدر تفهمنه شنو تقصد بجملتك الأخيرة، لیس کرهاً وأناي ما أکره بشر ودين. چنت چنک تريد أطگنه أبیت أبودية لو جنجلوتیه بالشعر، یبین علمک علیه أبو رمزي.

- أستاذي العزيز.. أنا ارفض التعامل مع الیهود كقومیة بل يجب أن یعاملوا كمواطنين فی البلدان التي یعيشون فیها، وهذا الفهم یقودنا إلى ضرورة علمنة الدولة وتکریس حرية المعتقد،

وهذا الموقف هو الذي أوضحته دائماً للجميع، ورفضته الرأسماليات الأوروبية، وقامت بدل ذلك بإبعاد اليهود إلى فلسطين، لتتحول المشكلة من مشكلة مواطنة أوروبية، إلى مشكلة عربية. في تفسير مفهومي هذا يمكنني القول، بأن على الحكومات إلغاء جميع الامتيازات الدينية، ليكون جميع الناس متساويين كمواطنين ويتحرر المواطن ومعه يتحرر الوطن ويصبح دولة واقعية..

- لك أنته شد تخربط.. شنو دتحي.. سيدي هذا كلب مصارينى بهذي اللغة.

- عريف احمد.. معليك أشو خلي يحيى، حتى نفتهم شنو ومنو وشيريد.. إحجي سيد ماركس.. كمل شنو تريد تگول.

- عند تلك المهمة والمرحلة يجب أن نكشف كيف يقف التحرر السياسي الكامل من الدين؟ حين ذاك ننظر إلى النتائج. فانعقاد الدولة من الدين وإلغاء امتيازات المؤسسة الدينية. وهذا يتطلب أن تتعامل مؤسسات الدولة بشكل ديمقراطي يكون فيه العمل على شرط احتساب الفرد كمواطن دون حساب هويته الدينية. وهنا تكون الدولة كوسيط وحين يتحرر الوسيط، يتحرر الإنسان، لحين تهشم هذا الوسيط لتبنى المشاعة الاشتراكية الخالية من الامتيازات الطبقية. إن ما يسمى الدولة اليهودية هو في الأساس نفي للدولة، وفي ذات الوقت، لا يحقق لها يهوديتها، وهذه التسمية والسلوك يقود اليهود إلى الوهم. وتسمية الدولة اليهودية وسيلة لغايات غير حقيقية تكون الدولة فيها دولة نفاق. ولذا أقول إن هذه دورة تبدأ بتحرر الإنسان

سياسيا، حين ينفصل بالكامل عن روابطه المقيدة، ومنها التقاليد البائدة والالتزامات الدينية.

- لك عريف أحمد أخذه رجعه المكانه بسرعة.. لا هسه
أگوم أگطع عليه النطاق بهذا الليل.. أنعل أبو الجابه عليه لا بو
أبو الطبيه للمركز.. هذا طير البيكين بالكامل.. لك هذا شنو
مكينة مال لغوه.. وهاي السوالف وين ضامها.. امتيازات
طبقية ومشاعة، ودولة نفاق.. لك ما صدگنه خلصنا من الرفيق
ولغوة الحزب.. وشكال ابن المهلوس ميشيل عفلق لو الاغبر
صدام، هسه هذا جاي يريد يرجعنه على ذيچ الأيام.. أخذه
وروح جبيلي ماعون لبلي.. رجعه المكانه لهذا ابن المسموط
وخلي بالحبس خايس چم أسبوع قبل متدزون أوراقه.

أسرع العريف أحمد بسحب ماركس من ساعده ودفعه بقوة
باتجاه باب الغرفة ولكن ماركس استدار ووجه كلامه إلى
العقيد.

- وإلى متى سوف أبقى دون أن يفرج عني؟

- دروح لك روح بول ونام.. دون أن يفرج عني.. خوش
يطگگگ بمنگاره.. دون أن يفرج عني.. إي مو إحنه روضة
مال أطفال تجي عدنه الصبح ويجي بابا يأخذك الظهر.. أنقلع
من گدامي لا أجي أبیس بیک تبیس.

عند ذلك أبطأ العريف أحمد في سحب ماركس وحاول قدر
الإمكان إبقاءه في الغرفة، عسى ولعل العقيد يفعلها وينهض من
مكانه ويأتي لجلده بالنطاق مثلما قال، ولكن العقيد كان ساهياً

عنهم منشغلا بتحضير كأس شرابه، وحين رفع رأسه صرخ
بأعلى صوته.

- بره زمال مو گتلك أخذه من هنا.

ما وزع مع الحصة التموينية

سار ماركس بتناقل نحو غرفة الحبس ولكن العريف أحمد زجره ودفعه من كتفه وطلب منه الإسراع. دخل ماركس الحبس فوجد الجميع نيام ما عدا أبو رمزي الذي كان مستيقظاً يتكئ على يده ثم اعتدل في جلسته حين اقترب كارل ماركس منه.

- ها بشر شنو صار؟

- لا شيء.

- شنو ماكو شي.. قابلت العقيد لطفي.. كلمك.. كلمته.. وما صار شي.

- نعم كلمني وكلمته وفي النهاية تغير مزاجه وراح يشتم ويصرخ فخرجت وعريف احمد من غرفته.

- چان يشرب؟

- نعم..

- ابن المنبوش.. هم دمج وهم يتعيقل براس الأوامر..

- ماذا تعني بدمج؟

- شوف سيد كارل ماركس.. أنت بديت تفتهم شنو نحجي

بالعراقي.. وأني راح أسولفلك خبط لبط.

- ماذا تعني خبط لبط

- يعني أسولفلك بلغة بين الفصحى والعامية، حته متتعب
حببيي مركوسي ابن هنروش الورد. خوب تفهم شنو أگول؟

- أعاني الشيء القليل.. والغالب أتفهمه بشكل حسن.

- خوش.. أنا راح أحجي بشكل يساعدك حتى تفتهم.. بس قبل
هذا خلي أگلك فد شي.. إحنه بالعراق ما عدنا شي غريب لو
عجيب.. كلشي يصير ويصح.. الاعوج يصير عدل، والعدل
يصير اعوج..

- كيف يتم هذا؟

- الواوي تفترسه الدجاجة
كسر الزجاجة

والخصي يفوز بزواجه
وي ذيا به
وغنم تسرح

هذا مخلص الحجي بالعراق في هذا الزمن.

- أوكي أستمع لك.

- أسألتني شنو دمج.. خوش ابن عمي.. هذا العقيد چانت
رتبته قبل على عهد البعثيين رئيس عرفاء.

- إذن كيف أصبحت رتبته عقيد؟

- أني گتلك راح يصير كل الليل عشه.. يعني راح نسهر

ونسولف..يعني نحكي قصص.. أوكي أبو.. صدك بالمناسبة أنت بألمانيه شنو يسموك..أبو منو؟

- نحن فقط نكنى بأسمائنا وأنتم فقط من يستخدم هذه التسميات.

- خليني اسميك.. لأن أني أشوف مو لايقه أگلك كالساع ماركس.. وهم ما أگدر أگلك أستاذ ماركس خاف تطلع مثل ذولاك اللعبيه لو همين دمج.

ضحك أبو رمزي ثم كتم ضحكته وتلفت ناظرا لباقي السجناء، الذين كانوا يغطون في نوم عميق وتصدر عن البعض منهم، نغمات وحشرات أصوات ترتطم بجدران الغرفة ويتردد لبعضها صدى.

- أرجوك دع هذا جانبا ونادني فقط بماركس وهذا يكفي.

- خوش براحتك سيد ماركس.

- لم تجبني عن معنى كلمة دمج؟

- تريد تنام لو عاجبك نسولف..لان السالفة طويلة.

- تحدث بما نويت عليه فليس لي رغبة بالنوم.

- أوكي.. يا ابن الحلال..ربك قسمها عليه ولا اعتراض على قسمته، إنما الدنيا مشيناها خطى كتبت علينا، ومن كتبت عليه خطى مشاها، ومن كتبت منيته بأرض، فليس يموت في ارض سواها...أغاتي تره ربك كلشي فصله وسواه لبني ادم وكلمن ياكل حقه وقسمته.

- وما علاقة هذا بالعقيد لطفي؟

- راح اسولفلك قصة هذا النغل لطفي، وشلون أنكلب إلى عقيد لطفي، وأنت راح تعرف شنو معنى كل هذا الحقيته... عزيزي ماركس هذا العقيد لطفي چان رئيس عرفاء بالشرطة على عهد البعثيين. چان متزوج مریة أصل أهلها أكراد أفيلية، أو ولادة أهلها بالعراق.. البعثية صدور قرار.. إذا واحد عراقي موظف لو بالشرطة لو بالجيش ينهون خدمته الوظيفية، يعني ينطرد من الوظيفة، إذا بقة متزوج من أجنبية وبالتحديد إلى سماهم القرار التبعة الإيرانية، وهذا شمل الأكراد الفيلية بالقرار. رئيس عرفاء لطفي خاف على وظيفته، فطلب زوجته وتسلم الإكرامية.. بعد فترة قصيرة قامت الحكومة بحملة، وسفرو أعداد جبیره من العراقيين، بحجة كونهم غير عراقيين، وصنفهم القرار بأنهم تبعية إيرانية، من بین الذين سفروهم چانت مطلقة رئيس العرفاء لطفي مع ثلاثة من أطفالها.. ما راد لطفي يبقي الأطفال يمه، ومن سألوه ليش ما بقة الأطفال يمه، گال بأن يخاف تثار حوله مشكلة جديدة، لأن أهمهم من أصل غير عراقي.. بقى لطفي في وظيفته وتزوج من امرأة أخرى.

الحرب العراقية الإيرانية طولت، وشعرت الحكومة العراقية بأزمات وخسائر بشرية ومادية.. صدر قرار عن صدام حسين، فرض بي على جميع الموظفين الحكوميين يرحون لجبهات القتال، وأطلق على ذیچ المهمة أسم المعاشية، يعني الموظف يروح لجبهات القتال لمدة شهر أو أكثر ويعيش حياة الجنود في

مواقع القتال، ويعتاد على أوضاعهم ويشاركهم في حياتهم اليومية.. جبرو رئيس عرفاء لطفي على الذهاب إلى الجبهة في قاطع الشوش القريب من مدينة العمارة..چانت المعارك بذاك القاطع من الجبهة ما تتوقف،وچانت هجمات إيران شبه يومية بذيج المنطقة، والقطعات العسكرية يوميا تنطي خسائر كبيرة..وقتل بعض زملاء لطفي من الذين ذهبوا معه إلى ذلك المكان. بيوم من الأيام فكر رئيس عرفاء لطفي، وحته يتخلص من مصير مجهول چان يتهيب منه، أو ويه تكرر المعارك واشتدادها، حس بأن الموت بده يتقرب منهم يوما بعد آخر، ويمكن أن يكون هوه أحد ضحاياها في أية لحظة. فكر وقرر أن يهرب إلى إيران، فاستغل اشتداد المعارك، وفي ليلة ظلماء لبس قميص وبنطرون مدني جوه ملابسه العسكرية، وتسلل إلى أماكن بعيدة عن وحدته العسكرية أثناء اشتباكها بالقتال، ومن وصل مكان قريب من جبهة الجيش الإيراني، ضم نفسه في حفرة إلى أن طلع الفجر. بعد ذلك خلع هدومه العسكرية وراح وسلم نفسه للجيش الإيراني مدعيا هروبه من العراق وأنكر كونه عسكري و بسلك الشرطة العراقية.

- كيف فكر بتلك المجازفة الخطيرة..كان من الممكن أن يقتل.

هكذا قال ماركس وهو يقاطع حديث أبو رمزي.

- هاي السالفة بأولها..

- هل حدث له شيء مؤذي؟.

- لا عمي چان أمجنص ومضبط شغله.

- ماذا تعني أمجنص؟

- أمجنص مو أمجنص، يعني إن حظه كان حسنا جدا.. بعد اعتقال لشهر أو شهرين وتحقيق مو عميق، أرسلوه إلى معسكر للاجئين العراقيين. تعاون لطفي بصورة كبيرة مع الاستخبارات الإيرانية، وكلفوه بمهمة المشاركة بتوزيع الطعام على الأسرى، ويطلبون منه أحيانا، مشاركتهم بالتحقيقات ألي يسووها مع بعض العراقيين من اللاجئين والهاربين وهماتين الأسرى. وما طولها عليك.. بمعسكر اللجوء ارتبط لطفي بالعمل السياسي ويه فصيل معارض لحكومة صدام حسين، وصارت ظروف عيشته عال العال بعد هذا الارتباط، وصار وبفتره قصيرة من رجال الصفوف الأولى في المعارضة الإسلامية العراقية. بعد سنتين فكر بأن يبحث عن أطفاله وزوجته السابقة يعني طليقتة، التي سافرتها الحكومة العراقية إلى إيران. فراح يسأل في معسكرات اللاجئين فلم يجد من يدلّيه على مكانها.. سمع خبر من أحد العراقيين، بأنه يگدر يدور على مطلّقة وأولاده في مدينة بختران، فهي تضم أعداداً كبيرة من المسافرين العراقيين، وبعد أن استقرت أوضاعه قرر الذهاب إلى مدينة بختران، وهاي المدينة تقع غرب إيران. راح لهنّاك وبحث طويلا عن عائلته السابقة ما لگه هنّاك شي، فركب وراح المدينة طهران، ظل يفتر بشارع مروي، وتعرف هنّاك على هوايه عراقيين، وفي أحد الأيام شاف أبنه الكبير في أحد أسواق مروي. إقترب منه وتودد إليه، ولكن الطفل قد كبر

وبلغ من العمر الأثنى عشر عاماً، وچان سامع من أمه شلون أبوهم عاملهم، وشلون فضل نفسه على الاحتفاظ بيهم، فما كان من الأبن غير رفض الحديث مع أبيه، لا بل قابله بالشتائم. تعقب لطفي ولده إلى حيث يسكن، وحين عرف موقع دارهم، تهيأ ورجع في اليوم التالي وطرق الباب فخرج طفله الآخر، وبسبب صغر سنه حين تسفيرهم إلى إيران، فلم يكن ليعرف أباه. طلب لطفي من الطفل أن يخبر والدته، بأن هناك شخص يريد الحديث معها، خرجت المرأة لترى لطفي ينتظر أمام الباب، فما كان منها غير طرده شر طرده.

- وما كان يريد من مطلقته؟

- طباقات.. لوگي.. چان يعتقد ممكن تحن عليه وترجعه مرة لخ، ويستفيد منها كأيرانية.. بس المرية چانت قوية.. تفلت بوجه، وگالتله إذا تتقرب مرة لخ من البيت راح أخبر عليك الإيرانيين، شنو ومنو أنته، شنو سویت بيه وبأطفالك. روح يا ساقط، وأني مو بشكلك وأخلاقی مو بشكل أخلاقك.. روح والله راح يجازيك فد يوم. والله بالأخير صدك جازاه ورفع عقيده.

ما عليه.. لطفي ما كذب خبر ما بقه بطهران، رأسا طلب من مسؤوله الحزبي الانتقال إلى مدينة قم، بحجة التقرب إلى المزارات الدينية والدراسة.. وأصبح لطفي ينتقل من مدينة إلى أخرى، لحين سفره إلى كردستان بالعراق، حيث شارك بقوة في العمل السياسي، ویه باقي الفصائل المعارضة، وصار عضو ارتباط بيناتها. بعدین إنتقل إلى سوريا وهناك أشغل بعدة مهن كان آخرها شغل قجق.

- ماذا يعني هذا العمل؟

- تهريب بضائع بين تركيا وسوريا ولبنان..بعدين طور عمله ليشغل في تهريب البشر من سوريا إلى أوروبا مروراً بآسيا. بعد سقوط صدام حسين على إيد الأمريكان رجع إلى العراق، ولأنه چان ينتمي لذلك الفصيل الإسلامي، فلهذا رجعو إلى الخدمة في الشرطة، ومنحو رتبة عقيد، بعد أن احتسبت له جميع سنوات هروبه خدمة لأغراض العلاوة والترفيه والتقاعد، وعوض بتمليكه دار سكن، ومنح مبالغ كبيرة تكريماً له على سنوات غربته، التي حسبوها إله سنوات جهادية..وهسه أنت أتشوف المجاهد السيد العقيد لطفي، بالزي العسكري وبالداوام الرسمي وبالخفارة مآلته، وبأهم مركز للشرطة وسط بغداد، يصلي الفرائض الخمسة يومية، ويزور الأئمة، بس بي سوله لازم يلط ليلية نص عرك لو أكثر، وبعد فد ساعة زمان من يطوخ، يظل يبجي وينوح..عليمن ما تدري..يمكن على طيحان الحظ مآلته..لأن ما أعتقد هذا يبجي ندامه على الماضي لو على أفعاله السوداء.

- أبو رمزي كيف تسنى لك الحصول على كل تلك المعلومات؟

- شوف ابن عمي..مو يگولون إذا تريد يطش الخبر، أي ينذاع السر للعلن، مو عليك تگوله لشخص ثالث.. بالعراق ماكو هيچ حچي، أصلاً ما يحتاج السر لشخص ثالث.. أحياناً العراقي وحده ما يصبر على سره، وتشوفه يحوص ويتحرگص ويگوم يهذري بالسر مآلته، وبعدين تلگي الناس

تحجي بالسر.. والشخص يتعجب شلون إنذاع الخبر، وهو ما حاجيه لواحد. لا وچماله يگول چان سري إبير، شلون طش إبين الناس ما أدري؟

- أبو رمزي إذا أنا صدقت ما ترويه، وقلت أني عرفت جميع ما تحدثت به في روايتك، فتلك كذبة لا تغتفر لي. بالضبط أعيد سؤالي كيف حصلت على كل تلك المعلومات؟

- أغاتي ماركس.. العلمك هذي الرواية مسجلة بشريط.. وكل هذوله اليشتغلون بالمركز، وأغلب المساجين عرفوها وحفظوها.. بس تعرف السيد العقيد لطفي محد يحجي وياه، لأن هو قائد بالفصيل الإسلامي. في يوم ما هذا العقيد لطفي صار طلي أصلي، بعد ما شرب بطل ويسكي كامل، وچانت الدنيه حاره تشوي شوي، والمزه عنب وخيار وتمر، وهو گاعد خطار يم واحد صديقه من الطفولة وچماله گرايبه، ومن هذوله الحبابين كلش كلش، وراح هذا الصديق يجر من لطفي حديث وره حديث، وبنفس الوقت يسجله بالمسجل..

يگولون هذا صديقه بعد مده گام بيتزه للعقيد لطفي، ويطلب منه طلبات كثيرة، ولطفي ما يمانع، وچان يلبيله كل طلباته، بس فد يوم اختفى هذا الصديق الحباب، بعد أسبوع وجدو هذا الحباب ميت وذابينه فوگ كومة زبل.

- يعني مقتول؟

- أي نعم مقتول.

- والتسجيل؟

- التسجيل ظهر وتوزع بكل مكان، قبل لا يموت الحباب
غرايب لطفي، أصلاً توزع حتى وية الحصة التموينية.. مو
ألك العراقيين عدهم طرق عجيبة بالحياة. والسيد لطفي
وفصيله السياسي يدعون، أن التسجيل مفبرك ومقصود به
تسقيط المناضلين والفصائل الإسلامية.

- في خضم هذه الفوضى العارمة كل شيء يبدو ممكناً
وغير مستبعد.

هكذا قال ماركس وهو يفرك يديه ببعضهما، وأدار نظره
متفحصاً بإحساس كئيب زوايا غرفة الحبس. شعر لحظتها بأنه
بات جزءاً من هذه الفوضى العارمة التي تلف العراق. يجعله
الوضع يعيش وسط دوامة لا يستطيع الخروج منها. كل شيء
فيها غريب ومتسارع وموجع، لم يعد يطبق احتمالاً، وليس
بمقدوره مسايرته أو اللحاق به. تأتي الحوادث فيه غريبة
وصاعقة، لتفرض نفسها عليه، وتسحبه وتكبله بقيودها. لا يجد
في هذه الأجواء ما يوحي بالاطمئنان، بل هناك دائماً مجهول
يخفي ملامحه، ثم يظهر بشكل ما، أغلبه غير متوقع، وغير
مرغوب فيه، دائماً ما يكون على شكل صدمة أو واقعة خارج
نطاق المألوف. يتذكر كيف وقع حادث الفندق في تلك الليلة
المظلمة التي أراد بها ملاطفة الحارس أبو شمخي، ولكن أبو
شمخي سقط فاقداً للوعي من شدة الخوف. كان من الجائز أن
تنتهي حياته العملية في تلك الساعات، وعندها عليه تحمل ذنب
موت ذلك الرجل، ودون أي مبرر مقنع للحدث المفاجئ، ويكون
مصيره عندها السجن لعدة سنوات، ولتنتهي مهمته أو حتى

حياته العملية والعلمية وقدراته الفكرية، وتذهب جهوده المضيئية التي بذلها خلال كل تلك السنين هباءً منثوراً. ثم توالى الأحداث دون أن يستطيع إيقافها أو تغيير مسارها. وها هو الآن وقد مضى الشطر الأكبر من الليل، يجلس جوار أبي رمزي السجين اللغز المريض، الذي لا يفصح عن سبب اعتقاله ولا عن طبيعة مرضه، ولن يروي حكاية أو حدث يقع في السجن أو خارجه إن كان في الحاضر أو الماضي، دون أن تكون هناك مقدمة طويلة من الغاز أو قصائد شعرية، وما عاد هو يستطيع اللحاق أو التعرف بالكامل على معانيها ومكوناتها، ولكنه يجد نفسه مجبراً على الاستماع لها وحتى قبولها، فهو لا يريد أن يختلي مع نفسه ويفكر بوحده وما تخبئ له الأقدار. يكفي كل تلك السنين التي أضاعها وصار فيها مضحياً لأجل الآخرين، وكان يضغط على حياته ويكرس يومه لموضوعه الطبقة العاملة وضرورة انتصارها المستقبلي الناجز.

عند هذه اللحظة توقف ماركس وزجر نفسه معاتباً، كيف تسنى له الآن، أن يبخر نضاله الطويل، كيف سمح لنفسه الوقوع في فخ هذا الوهن، ليذهب فيه بعيداً ويقرع النفس على سنوات الكد والجهد الفكري، التي افضت بنتائج كبيرة لصالح الطبقة العاملة وأصبحت الشيوعية راسخة، تجوب العالم وتهدد مصالح الطبقة البرجوازية وتعطي للعامل شعلة نور هداية، تدله على طريق الصواب للحصول على حقوقه وحقوق طبقته، وباتت الشيوعية حفارة قبر الرأسمالية.

يا ترى ما الذي دفعه للوقوع في هذا المطب. إن التغييرات الظاهرة أو المظاهر الخارجية للحدث تظل نظرة قاصرة إن لم يحاول المرء معرفة الخصائص البنيوية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع، ويتعمق في دراستها. فالتغييرات الاستعراضية التي يشاهدها المرء أمامه لا تكفي لتلمس الحقائق، فلا بد من عمل وتفكير دؤوب متعمق للوصول إلى مدى تأثيرها. لم أستطع، وتلك كانت لها أسباب ومصادفات لم تخطر على البال، أو لم تكن متوقعة وموضوعة ضمن ما قررت معرفته، لم أستطع معها أن أصل بعمق إلى الخصائص الأولية، ومنها طبيعة النمو السكاني الانفجاري للشعب العراقي، رغم ما مرت عليه من حروب وصراعات، وما يرافق هذا الأمر من اختلال في التوازن بين العدد المتزايد للسكان و الموارد المتوفرة، مما يسبب قصورا كبيرا ومشاكل اقتصادية اجتماعية جمّة، ومثل هذا الأمر يحدو بالمرء مراجعة هذا النمط من الفعل بين السكان، والذي ممكن تشخيص أهم علله وهو انخفاض المستوى الثقافي للشعب.

ياترى ما الذي جعلني أتخلى عن كل هذا الوعي لصالح فكرة انهزامية خطرت فجأة على بالي دون تمحيص؟

- هاي وين رحت سيد ماركس؟
- عزيزي أبو رمزي. كانت جولة مراجعة خاطفة.
- هاي شغلة مو سهلة عليّ.. آني ما عندي شي خاطف.. لو أخش بالسالفة طول بعرض لو أعوفها لغيري.

- ألم تنعس بعد؟

- إن نمت هسه لو بعد ساعتين لو باچر، حتماً راح أگعد من النوم وألگي نفسي بنفس المكان.. ويمكن أناام وبعد ما أگعد.. وكل هذا عندي يك حساب.

- أنا اشعر بالتعب والنعاس.

- أخذ راحتك.. بس قبل شويه گلتلي بانك غير راغب بالنوم.

- بت مقتنعاً بأن في العراق هناك ضرورة أن يخالف المرء نفسه في بعض الأوقات، ليكون جزءاً من الواقع. أعتقد أن المرء يحتاج أيضاً لبعض الأنانية وهذه ضرورة كي يخلو لنفسه ليكتشف خفاياها.

- حلو.. حلو ابن عمي هسة تمام.. هذا هو الصحيح.. كل من عليه بنفسه مثل ما يگول الشاعر:

هالوكت شيخه وشبابه

كل من يهفي الكبابه

يشتغل كل من لشخصه

بشغل غيره ما يخصه

ينفصل عن الأحبة

وياه صحبه

أولا تفيد

- ولو أنني لم أفتهم تماماً ما عنيته بشعرك، ولكني لم أكن أقصد ما أنت تحدثت عنه، وربما أنا كنت سيئاً بالإفصاح عن

ما أردت قوله.

- صاحبي، لتكوم تبيع فيكات وبوزات وتتفلسف ووتتعقل
براسي بهذا الليل.. دور وجهك ونام وتصبح على ألف خير..
أوكي سيد ماركس أبن هنروش لو مو أوكي.

- أوكي...تصبح على خير

مد ماركس جسده فوق الغطاء الصوفي لينهي الحديث مع
أبي رمزي، ويدخل في عالمه الخاص.

رغم النعاس الذي بدأ يراوده، ظهرت أمامه كومة من
أحداث وأحاديث راح يللمها وييعثرها، متنقلاً هنا وهناك،
فشعر بثقل كبير يضغط على رأسه. فرك فروة رأسه فشعر
بشيء من رضا وهو يمرر راحة يده ويداعب الشعر الذي بدأ
ينمو مثل دبابيس، ولكن برؤوس ناعمة رغم يباسها. فقد بدا له،
ربما بعد فترة ليست بالطويلة ممكن له استعادة لحيته وشعره
الجميل، اللذين كان يعتز بهما أيما اعتزاز. ولكنه عند هذه
اللحظة شعر بضيق تنفس وثقل في صدره، وأحس بالخوف من
رجوع المرض إليه، وبدء عودة علته من جديد، تلك العلة التي
تجعله طريح الفراش لعدة أيام، وتتطلب علاجاً مكثفاً. عسى أن
يكون ظنه هذا خائباً في مثل هذه الأوضاع السيئة. ففي مسيرته
الطويلة تعرض لمثل ذلك مرات عديدة، وواجه المرض
بشجاعة، ولكن لم يكن يتهيبه مثل هذه المرة، فهو يشعر الآن
بعدم القدرة على المقاومة إن عاد له الربو المؤذي. تبسم
ماركس ومسد شعر لحيته الخفيف محاولاً إبعاد ذهنه عن مثل
هذا التفكير السيئ والمخيف.

ما كان يراود تفكيره وبإلحاح، هو سبب مجيئه إلى العراق، ووضعه الآن في هذا المحبس الغريب، ولسبب يبدو أكثر غرابة من المكان نفسه. ما الذي حدث؟ وهل حقق الغرض الذي جاء من أجله، مهمة صعبة وعسيرة منذ بدايتها.

حين اتخذ القرار بالسفر إلى العراق، لم يستمع لنصائح الأصدقاء الذين استغربوا بالمطلق تلك الرسالة التي تسلمها، ودهشوا من نيته السفر إلى بلد، لا ترد منه سوى الأخبار السيئة، لا بل المخيفة. ولكنه استسهل الأمر، وظن أنه بصدد الحصول على ذخيرة معلوماتية حية، سوف يكتسب منها خبرات جديدة، لم يكن على إطلاع سابق عليها، وسوف تكون تجربتها غني معرفياً، ربما يقدمه في النهاية بكتاب جديد يكمل مسيرة عمله وباقي كتاباته عن نضال الطبقة العاملة، وطرق ووسائل الإنتاج في دولة من العالم الثالث مثل العراق.

الآن يجد أن الطريق قد أغلق في وجهه تماماً، وما عاد يستطيع التحرك ومعاينة الواقع العراقي، وعليه أن يختزل الأمر عند حدود هذه الحجرة، التي تضم بين جنباتها ثلاثة عشر سجناً يزيدون أو ينقصون مع مرور الساعات.

ما النموذج الذي ممكن استحضاره، ومن أي فلسفة وعلوم يمكن اشتقاقه، لتوصيف حال العراق، ووقائع مسيره اليومي. فهو ليس بكيان مجتمعي واحد، أيضاً هذا الشعب يفتقد الهوية الوطنية الموحدة. طوائف وإثنيات مرت بحقب استبداد وقسوة، منذ آماذ بعيدة، فعملت على تأطير عالمها الخاص، ورسخت في فكرها الجمعي، تقاليد تحبذ النفرة والتشردم على حساب

التقارب والانسجام. إرث ثقافي وإبداع واسع وكبير تم تدميره بعشوائية الخيارات وازدراء الخبرة. ليس هناك ما يشي بصراع طبقي فالطبقة العاملة، إن لم تكن مشتتة فهي قليلة العدد والخبرة، وغير قادرة على خوض صراع أياً كان نوعه. حتى القيم التي يتمسك بها العامل العراقي لا علاقة لها بصراع ومواجهة الطبقات المستغلة، أو بناء وحدة طبقية ودفاع ذاتي لأجل المصالح، وإنما تتركن أساسياتها ويتمسك أفرادها بأكثر القيم تخلفاً ورجعية، هذا ما عرفه من خلال محدثيه ومعيناته ولقاءاته رغم قلتها، ولكن حسه الطبقي جعله يكتشف كل تلك العلل والمساوئ، دون بحث طويل ومضني. حتى البرجوازية تراها قد تعرضت لضربات موجعة، أجهضت تطلعاتها وما عادت قادرة على بناء هياكل وأسس مادية اقتصادية، رغم أنها كانت سابقاً تمتلك وسائل إنتاج، ولكن تم إفقارها وتشتيتها من قبل العسكر ودعاة الاشتراكية الفوضوية.

سر مرض أبو رمزي

لليوم التاسع لم يصمت أو يكف أبو رمزي عن الحديث وإطلاق أبيات الشعر والابوذيات، رغم علته التي تضعف قواه، مثلما قالها يوماً ثم صمت، ولم يفصح بعدها عن نوع المرض الذي ينهك جسده. بدا امتناع أبو رمزي عن الحديث حول مرضه، وكأنه خجل شخصي، لا يود معه الإفصاح عن مصيبتة، خوفاً من اكتشاف الآخرين لضعفه. ولكن مثلما قال هو عن السر الذي يفشيهِ صاحبه وليس غيره، فقد عرف ماركس مرض أبو رمزي، عندما التقى سجيناً آخر أثناء الذهاب إلى دورة المياه. وقف ذلك السجين ودار بينه وماركس حديث لبضع دقائق، عن الكثير مما يجري يومياً في غرفة الحبس، ومنها مرض أبو رمزي. وحين سأل ماركس السجين عن كيفية معرفته بإصابة أبو رمزي بمرض روماتزم القلب المتأزم.

- چا أنت ما تشوف الأدوية..تگول أنه أجنبي..ويگولون عليكم مفتحين باللبن.

- ماذا..نعم؟

عندها سارع الرجل بالدخول إلى دورة المياه دون أن يكمل الحديث مع ماركس.

لم يرغب ماركس في البحث عن المرض الحقيقي لأبي رمزي، وراح في شك من حديث السجين، فلم يكن مظهره أو كلامه يشي بمعرفته لحقيقة المرض، ولم يكن توصيفه غير فكرة عابرة، ربما اخترعها ليدعي إمامه بما يدور من وقائع في قاعة الحبس. فأبي رمزي كان يخفي أدويته في كيس أسود، ويحاول أن لا يظهرها للآخرين، فكيف تسنى لهذا السجين اللعين الإطلاع عليها. الضرب في الغيب عادة قبيحة، ولكن خيارها يبدو نافعا للبعض، في إثارة الحدث والتشويش على المعلومة.

بعد ساعات من مظاهر الإنهاك والتعب، التي تظهر فجأة على أبي رمزي، تبدأ سحنة وجهه بالتغير، وتظهر عليه علامات ارتخاء الجسد مع رجفة ظاهرة، عندها يتناول الدواء ثم يكور جسده بقرفصة شديدة، وبعد فترة ليست بالطويلة، يجلس وكأنه خرج من غفوة، ليبدأ حديثه الذي لن يتوقف. لم يكن ليتخلى فيه عن أناشيده وأشعاره، رغم خفوت صوته ومظاهر الوهن البادية على جسده. كانت تلك الأشعار والأهازيج رصيذاً حياً يستعمله كمطارق للتحدي والصراع مع المرض، ومظهراً لقوة الشخصية معنوية وجسدية أمام الآخرين. كان يرفض أن يختطف المرض منه لحظة الحياة وبهجتها، فبعد أقل من ساعة من تناوله أقراص الدواء، يعاود صوته الارتفاع وتنشط حنجرته وتنطلق أحاديثه بسلاسة غريبة.

في إحدى المرات اجتاحتها رغبة الغناء، فراح يغني بصوت

خافت متموج، ولكن رقيق وعذب، ورغم مظهر الفرح المرتسم على وجهه، فقد حملت حنجرته حزناً شفيفاً، فضحته في النهاية دموع جرت بعفوية على خديه فاستدار ووضع وجهه في الوسادة وأجهش بالبكاء.

لم يكن الحزن الذي خيم على قلب ماركس بقليل، فراح ينظر إلى أبي رمزي بعاطفة جياشة، حاول معها إيجاد كلمات ولو بسيطة ليواسيه بها، أو حتى يخفف عنه بعض ألم، ولكن ألمه الوجداني وعاطفته المهتاجة منعه من الكلام، ولم تسعفه في إيجاد ما يرطب الأجواء في هذا الوضع الموجوع. شعر أنه عاجز كلياً عن الوصول لكلمات تسعف الموقف وتجعل أبو رمزي يستعيد رباطة الجأش التي عرف بها، ولكن اللحظة كانت قاسية على كليهما، فعاف ماركس محاولة البحث عن مخرج لموقفه ومد جسده فوق الغطاء الصوفي، وأخذ يرقب نحيب أبو رمزي. فهو يعرف جيداً طبيعة مشاعر الإنسان المريض الضعيف، فشعور الخجل من ضعفه سمة طبيعية، وتراه دائماً في حالتين، إما التشكي واستدراار العطف، أو حالة دفاع دائم ضد افتضاح أمره، يتستر بأشياء يجد فيها ما يستر عجزه وضعفه، وهذا ما يفعله أبو رمزي بروح المرح والإنشاد التي يجدها متراساً واقعاً من انكشاف خوفه وقرب نهايته للآخرين، وكرهاً منه لحالة استدراار العطف، وهو يخشى أيضاً أن ينهار أمام الآخرين، ولذا تراه يلجأ لغمر رأسه في وسادته، حين تنتابه الأوجاع، وهو في ذلك يشعر بأنه في حالة امتحان دائم مثلما هو تهديد دائم مع المرض غير الرحيم. لا يريد أن يفقد توازنه من خلال انكشاف علته وضعفه. تساءل

ماركس عن سبب بقاء أبو رمزي في السجن، وهو يحمل مثل هذه العلة. في جميع دول العالم يطلق سراح مثل هؤلاء المرضى الذين يحملون أمراضاً صعبة ومميتة، فلم يبقون على أبو رمزي سجيناً؟

- أنته.. يول أنته.. شنو اسمك.. أني بعد ساعة راح أطلع من الحبس أخذ فراشي.. خوش؟

انتبه ماركس ليجد أحد السجناء يقف عند قدميه ويخاطبه بلهجة شبه امرأة. تفاجأ ماركس بالوجود القريب للسجين وكلامه الحازم، فتردد بعض الشيء، ولكنه اغتصب ابتسامة ليعرضها على السجين عرفاناً بفعلته الطيبة.

- شكرا جزيلاً.. ولكن ربما تحتاجه في مكان آخر؟

- يول بيش طالبني.. فوگ ما أساعدك تفاولني بالأذية؟

- لا أقصد إيذاءك وإنما قلت ربما تريد أخذه إلى البيت أو هناك سجين آخر يحتاجه.

- لا عيوني.. انته أخذه مو غيرك.. هاي صارلي سبع تشهر هنا وما أعتقد، لا و ما شفت أكو واحد بين الجماعة يستاهل الفراش.

- على أي حال شكراً ومبروك على إطلاق سراحك. متى تخرج؟

- هسه لو بعد ساعة.. حسب مزاج السيد العقيد لطفي، الله يحفظه وينطي الصحة والعافية.

- عجيب.. أنت أول من أسمع منه كلمة إشادة بالعقيد لطفي.

- شوف صاحبي.. إذا حاجتك يم الجلب فسمي حجي چليب.

- ماذا يعني ذلك؟

- بالعراقي عدنه هذا المثل.. من الإنسان يخاف لو يعتقد بأن مشكلته معصصة وصعبة على الحل، لو واگعه بيد واحد مثل عقيد لطفي، فعلينا أن نتوصل بذلك الواحد ونسميه بلطف وحنية.. فالجلب ولأنه نكس فنشبه ذلك الشخص بالجلب، ولمن حاجتنا تكون يمه نطلق عليه تسمية حجي چليب، يعني چلب زغیروني ومدلل وحباب وخلي يدلل عليه.

- وهل مثل هذا المثل جاء لكم أو تعرفتم عليه بعد الاحتلال؟

- يا احتلال يا بطيخ.. أنته مو عالم آثار؟ مثل ما تگول؟

- نعم.

- عیونی.. هذا المثل من عهد نبوخذ نصر وزوجته الموقرة مدام نبخوذه ما إدري شنو إسمها..

- أوكي.. مبروك مرة أخرى.

فتح باب غرفة الحبس وطلب من السجين الذي كان يتحدث مع ماركس المجيء لمقابلة العقيد.

- ياالله صاحبي گوم أخذ الفراش مالتی. يا جماعة مودعكم الله، بس موكلکم، چم واحد بیکم، إبرونی الذمة.

لم يجبه أحد من السجناء بل جميعهم أشاحوا وجوههم بعيداً عنه، وبعضهم دمدم بكلمات مكتومة. فأعطى السجين ظهره

لهم وخرج.

نهض ماركس لجلب الفراش فسبقه سجين آخر وقفز وأخذ الغطاء الصوفي الثقيل ذي الألوان المبهجة، والموشى بورود حمراء كبيرة الحجم، وعاف غطائين صوفيين آخرين ووسادة بقماش أزرق مائل للسواد.

- ولكنه أعطاني إياه كاملاً!

هكذا قالها ماركس وصمت ناظراً لهذا السجين وهو يسحب الغطاء نحو فراشه.

- إي... وهسه أنته شنو تريد؟ ما عاجبك الحال لو شنو؟

- ليس كذلك.. ولكن أعتقد أنه منحني جميع أجزاء فراشه.

- خوش تريد البطانية تعال أخذه بس تدري شنو راح يصير بيك.

- ماذا؟

- إذا مديت ايدك على البطانية أقره على روحك الفاتحة.. أخذ الباقي وروح أشرفلك.. أنته بعد چم يوم تطلع، وإحنه باقين خايسين أهنا.. روح.. يله روح.

لم يرغب ماركس مواجهة هكذا لهجة وتصرف عدائي، فهو ليس بحاجة لمثل تلك المواقف العدوانية، وما كان يوماً يطيق عراك الشوارع، حتى حين كان صبياً. وهو يجزم أيضاً بقرارة نفسه، أن خروجه من الحبس سيكون بين ساعة وأخرى، فلا حاجة به لخصومات، فليس هناك ما يعيق إطلاق سراحه، غير

عناد العقيد لطفي الذي قرر حبسه على ذمة لا شيء، ودون مبرر عقلائي. لقد كان مختطفاً وليس مشاركاً بجريمة، وإن اتهمه عريف أحمد بالعمالة والجاسوسية لإسرائيل، فقد كان ذلك باطلاً وغير مقنع حتى للعقيد لطفي. وها هي قد مضت العشرة أيام، دون أن يجد فيها تغييراً، ولم يرسل العقيد بطلبه مرة أخرى، ولم يسمع من الحراس أو من عريف أحمد ما يشير لأسباب بقاءه معتقلاً، أو متى يطلق سراحه.

رفع ماركس باقي الفراش مع الوسادة ووضع جوار أبو رمزي قائلاً.

- أبو رمزي سوف أرجع لك الفراش فقد حصلت على فراش كامل.

- أعرف دا أشوف وأسمع من ساعة حجه وياك أبو شكرية قبل ما يطلع، لحد ما هذا العفطي أخذ منك البطانية الإيرانية... زين سويت ما تكلمت وياه. هذا حرامي بيوت ومجرم وأدب سز.

- أدب سز! ماذا يعني هذا؟

- أحقق وأرعن ومجرم وطايح حظه...

الناس كل منهم يعرفه

بالدقيقة الف كلبه

جذاب سليمه التكرفه

الملعنة والجذب فنه

إذا تحسب انقلابه

من القشمره صار اكتسابه

قال ذلك أبو رمزي بصوت خافت ضاحك وهو يقرب رأسه من رأس ماركس، ويطلب منه التحدث بصوت خافت كي لا يسمعهم أحد.

- جميع تلك الصفات!؟

- نعم فهو من جماعة الميه وعشرين ألف.

- زدت في حيرتي ياسيدي.. ومن هم هؤلاء الجماعة؟

- هذوله السجناء العفطية الذين أطلق صدام حسين سراحهم من السجون قبل سقوط حكمه، وكلهم من المسجونين وفق جرائم قتل ونهب واغتصاب وخطف وتزوير، تصور بينهم مجموعة جبيرة من المساجين على قضايا الزنا بالمحارم، وعندك الحساب.

- أي حساب عندي؟

- هذا مثل بالعراقي.. يعني أنت تعرف باقي القصة.

- وكيف يتسنى لي معرفة باقي القصة؟

- إي مو دنگول مثل عراقي لتلح عاد.. بلعراق كلشي عدنه أله عله ومعلول.

- ولماذا أطلق سراحهم؟

- صدام أراد الخراب للعراق من بعد حكمه.. وفعلا، فهو لاء هم سادة الموقف في الشارع الآن؟

- غريبة رواياتكم!

- هذا جان نشال ومحتال ومسجون في سجن أبو غريب، ومحكوم بعشر سنوات سجن وأطلق سراحه قبل دخول الأمريكان، بعدها بده بتشكيل عصابة لسرقة البنوك.. بأول وگت قبضو عليه الأمريكان وحولو للشرطة العراقية، بقه بالسجن أربع تشهر، وچان متهم بقتل رجل ثم أطلق سراحه بعد تبرأته.. يگولون دفع فلوس هواية. وسجن سنة لخ، ومثل السابق أطلق سراحه، والآن هو معتقل بتهمة القتل أيضاً، وأوراقه أمام المحاكم منذ ما يقارب الشهرين، دون اتخاذ قرار، ليش متدري، هذا سالفته مثل سالفه طنطل مو بشر.

- ولم لم يتخذ قرار، أو يطلق سراحه بكفالة لحين صدور الحكم؟

- سيدي روح أحجي ويا القاضي، وقبل متروح لهنالك، روح اسأل العقيد لطفي وجماعته، فكل شيء متدستر وأله حساب.. العجيبة، بعضهم يگول هذا المجرم يسوي سحر ويسيطر على القاضي ويلعب بأعصاب العقيد لطفي.

- أي سحر في هذا الزمن؟

- هذا حجي الناس من يخافون من واحد؟ ويتحاشون منه، يگولون القاضي يلط عرك.

- ولماذا يخاف الناس من هذا إذا كان هناك قانون؟

- عمي يا قانون.. ما عندك واسطة.. ما عندك فلوس ظل مظمور بالسجن.. عمي هذوله من رب العباد ما يخافون.. وهو ربك هم بس گادر عليه وسالگنا سلگ وعايفهم يلعبون

بالشارع طنب.

إلاهي أقبل بحكمك ونارك

قريب أعله البشر أنته ونارك

عجيب المؤمن تحركه بنارك

وعلى أصحاب اللغف برد وسلام

- أرجوك أبو رمزي وضح ما تقول؟ لم أعد أفهم ما تعنيه..
هل يستغل السحر للتأثير على قرار القاضي أم ماذا؟

- أسمع هذي الكلاوات.. يگولون يستخدم السحر ويخلي
القاضي يتخربط ويرتبك.. ويگولون أنو في إحدى المرات
أغمى على القاضي قبل لا يقره أوراق الدعوى، ومن يجي
قاضي لاخ يصير وياه نفس الشي. آني ما أصدك.. هذا عنده
فلوس هواية ويكدر يلعب بيهن لعب لا سحر ولا هم يحزنون.

- نعم.. السحر هو سد الثغرات في المعرفة السببية لظواهر
الطبيعة وما غمض منها. نزوة السيطرة وعنصر القوة
والبراعة التي تبهر البعض وتحوز إعجابهم وتجعلهم
يخضعون خضوعاً مبركاً، هذا له علاقة بالخوف والقلق، وهو
شكل من أشكال الفعل التعويضي عن الضعف والمهانة.

- أستاذ ماركس.. لتوصله لهل درجة، من رحلتك فدوه،
واندار صدقه لهل جهره، تره أنه ما عندي قرصاغ لهذني
السوالف.. احچيلي بيتين أبودية أرتاح وياك وأتونس، مو
تاخذني بفلسفة وحچي يدوخ ويفر الراس، تبهر.. وخضوعاً
مبركاً.. وتعويضي.. هاي وين وذيچ وين.

- لا فقط وددت أن أوضح لك أمر السحر..

- ميخالف حبيبي بس شويه على كيفك ويانه مو هيچي..
هسه دجرب تنام على مخده، تره صارلك أسبوع تنام على
أيديك.. ریح راسك أخوي العزيز ماركس.

- مثلما تقول، عليّ الآن تجربة الفراش الجديد.. ان شاء الله
اغاتي، حجينا الورد.

أمسك أبو رمزي كتف كارل ماركس وراح يهزه ببطء
ويضحك بفرح طفولي

- هاي شنو سيد ماركس ما صارلك غير چم أسبوع بالعراق
وتعلمت كلاواتنا، وصرت تحچي بان شاء الله أغاتي.. وبعد
مدة راح تشتغل رحمة الله.. بالتوفيق مولانا.. وصار سيدنا..
ومقبولة أغاتي حجينه.. والله يحفظكم.. ورحمه الوالديكم
أعيوني.. لعد هوايه راح تتوفق سيد ماركس ابن سيد هنروش
ما ادري منو.

- كارل هاينريش ماركس ان شاء الله حجي بالعافية.

- ورده بعرضي أنته أكبر ورده ابن خالتي ماركس.

ردد ماركس ذات الجملة وضحك ضحكة خافته لم يرغب
إسماعها للآخرين. ولكن أبو رمزي لم يستطع كتم ضحكته
فأطلقها فاضحة في مساء غرفة الحبس، فصرخ أحد السجناء
مازحاً.

- ضحكة خير أبو رمزي وشره يطفر على ألي بكلي..

انفرد ماركس ينشد الخلوة مع نفسه، بعيداً عما يحيط به، ولكنه وجدها لا تعاف ما حولها، وتتوغل دون حذر داخل هذا المحيط البائس، بحثاً عن علله وأزماته، فهو يجد درجات مريعة من التساهل تجاه السلوك الشائن للقتلة وشذاذ الأفاق، فبعضهم لا يمانع من إعطاء أمثال هؤلاء دوراً، ووظيفة اجتماعية، لا بل مكانة يحسده عليها البعض.. البنية الاجتماعية الاقتصادية للجماعات المغبونة المقهورة، التي تتحكم بها التقاليد والعادات قبل القوانين، لا تستطيع امتلاك رؤية واضحة للحياة ووقائعها اليومية، وهي ترضخ لمعايير تقاليد تربت عليها وتشبعت بها، ولا تود كسر هذه المعايير أو التمرد عليها. الخوف يعتمر القلوب ولا يسمح المساس بتقاليد تضمن الوجود، رغم بؤسه وتعاسته، ومن يحاول خرق ذلك سوف يطرد خارج السرب ويتعرض للنبد، وربما التصفية. البرجوازية ذات الامتيازات والمصالح الاقتصادية، تصنع وسائل عديدة لتعزيز تلك التقاليد والأعراف، وتبني لها طرقاً وأطواق قمع، تقف في وجه أي حراك أو تفكير بالتغيير، وتجبر المجتمع على اتخاذ وسائلها وبرامجها، وليس غيرها، كمعايير لتفسير الأحداث والعلاقات، ومثلها إبقاء التراتيبية المجتمعية، ليقع الجميع في هذا الفخ، ليصلوا في النهاية حد الاقتناع بأن قوانين وتوجهات البرجوازية وطفيلياتها، من الموجب ألا تمس، ومن يمسه فهو مجرم ينال أشد العقاب. والطبقات صاحبة الامتيازات، تفرض على الناس التفكير بأن غنى الطبقات البرجوازية وفقير الكادحين، هو قسمة طبيعية للمكانة الاجتماعية السياسية وتوزيع عادل للأرزاق، وعلى الجميع قبولها كأمر مفروغ

منه، فليس هناك مغبون سوى الغبي والعاجز، وهو بالذات من يرغب بكسر القواعد العامة لتراتبية العلاقة، ومن ثم التقاليد التي يعيش عليها المجتمع المطمئن القنوع البعيد عن التوترات. هذه هي فكرة البرجوازية في حكمها للمجتمعات. وفي هذا، ومن خلاله، يجدون وسيلتهم الناجعة، لإقناع الناس المغلوبة على أمرها، بما يواسيها ويهدئ خواطرها ويربت على أكتافها ويطمئن نفوسها الثائرة المنفعلة، إنه الدين، الوصفة السحرية لكبح جماح المتمردين والمشككين. فالبرجوازية تُظهر وتحافظ على ما يتضمنه الدين من آيات وأحاديث، لا يسمح أو لا مجال للشك فيها، وإن أعترض المرء، فسوف يواجه عقاب المجتمع، المتوافق والمرافق لعقاب السماء، ويسدل الستار على باقي القيم الداعية للعدالة الاجتماعية والحريات العامة وتحرر الذات الإنسانية وحققها في العيش الكريم والعدالة الاجتماعية. المجتمع الخائف المقهور يبقى يتمسك بكل ما هو تقليدي وسطحي، والعودة للتاريخ تبقى عدة يجد فيها المرء المقهور، ذخيرته التي يواجه بها الأحداث وحتى المصائب، فيرضى بما يقسمه له القدر، ولا يريد رمي أي شيء على مضطهديه من الملاك أصحاب الامتيازات. عند هذه الإشكالية في المجتمعات الفقيرة المقهورة التقليدية لا يظهر التناقض بشكل حاسم، بل بفورات سطحية تتصاعد ثم تخفت.

الانفجار

فجأة، ومضت كتلة لهب، برق ضوءها الخاطف داخل الغرفة واخترق الفضاء المحيط بالمركز، صوت دوي انفجار قوي أرتج إثره كل شيء. قفز ماركس من مكانه مرعوباً فأصطدم رأسه بكتلة صلبة. لقد اهتز المكان إثر صوت وحركة تشبه زلزالاً قوياً، تحركت وتحطمت معه أركان الغرفة برمتها. ارتجت الجدران بقوة إثر انفجار هائل أعقبه دوي ثلاثة انفجارات متتالية عتم المكان بعدها بالكامل.. غطت ماركس غمامة غبار كثيف لم يعد معها يستطيع رؤية ما حوله، ولم يكن ليدرك ما يحدث بالقرب منه. كان مرتبكاً، بل كان في لحظة رعب حقيقية، فتلمس جسده لعله جرح أو شيء من هذا. لم يستطع بسبب الغبار والظلمة تمييز ما حوله، حتى أبو رمزي ورغم قربيه، كانت الظلمة والغبار يغطيانه. جال بأصابعه المكان ولكنه خاف أن يقرب جسد أبو رمزي. تأوهات وهذر وصراخ وضجيج صادرة من قريب وبعيد ونداءات تطلب النجدة.

- أبا رمزي.. ما الذي حدث؟

- شمدريني.. خربت وإنلاصت، واكلنه خره حاشاك، هذا تفجير.. يمكن تفجير لبناية المركز.. إنته بيك شي مجروح لو سالم؟

- كلا فقط لا أرى من حولي بسبب الغبار والظلام. ظننت أنك..

- لا..كلشي مابيه..زين.. خاينا ننتظر ونشوف شنو النتيجة.
راح تروح الغبره.

- أسمع صوت تأوهات وطلب نجدة.

- أني بشكلك.. حتما هناك مجاريح.

- أعتقد أن الجدار قد انهار علينا.

- لو هيچي چان كتلنه!

- تلمس ما فوق رأسك؟

- لك هاي صحيح هذا قالب بلوك نازل علينا.. لك ربك
ستر.. چان رحنه بوله بشط..

- وماذا تعني بوله بشط؟

- يمعود إنته صدك بطران.. هسه محلها.. إحنه بيا حال
دعوفنه خل انشوف دربنه.

شيئاً فشيئاً انقشع الغبار لتظهر بعض المعالم خارج الغرفة،
وانفرج المنظر عن فسحة فضاء تمتد خارج المكان نحو شارع
اسفلتي قريب، وثمة أناس يهرولون ويصرخون ويلوحون
بالأيادي. كان جزء من سقف الغرفة قد سقط بالكامل ليغطي
أرضيتها بما فيها من سجناء، الذين يسمع تأوه وصراخ
بعضهم، وكانت قطعة كبيرة مائلة من الجدار ارتكز عليها
السقف، وهي التي حمت أبو رمزي وكارل ماركس من أن
يهرسهم السقف عند سقوطه.

- ربك حلیم کریم، لو چان هذي الشكفه من السكف واگعه

عليه، چان هسه إحنه ملطوشين بالكاع مثل الزولية.

- ما الذي نفعله الآن؟

مد أبو رمزي يده وأمسك يد كارل ماركس وسحبه بقوة، ليذهبا عبر الجدار المنهار إلى خارج بناية المركز، وراح ينفض عنه الغبار العالق بملابسه ومثله فعل ماركس.

- لنعود ونساعد الباقيين.

- أي باقين..؟ إمشي بابا إمشي.. هاي فرصة إجتني من السما.. ربك الأنقذه من الموت هو ألي خلصنه من السجن وأطلق سراحنا. إمشي.. إنته مو تريد ترجع الأهلك.. يله إمشي.

كانت بناية المركز تبدو أنقاضا لا يظهر من معالمها غير جدران وسقوف سويت مع الأرض. قرب كومة حجارة وحديد ملتوي، شاهد ماركس عريف أحمد جالسا يتوجع بصوت مسموع، وثيابه ممزقة وجسده مغطى بالدماء، وهناك بقربه جثتان مطروحتان ميزهما ماركس، واحدة للعقيد لطفي، الذي بترت أطرافه السفلى، والأخرى مهشمة الرأس تعرف عليها من الملابس، كانت للسجين الذي أهداه الفراش. إلتفت ماركس نحو أبو رمزي الذي بدأ يبتعد متجهاً نحو الطريق الفرعي القريب. ارتبك في اتخاذ القرار وحار بين البقاء أو اللحاق بأبي رمزي. عند تلك اللحظة التي لم تأخذ منه الوقت الكثير، قرر اللحاق بأبي رمزي، فلعل ما حدث فرصة يتجدد فيها الأمل في العودة إلى أهله.

مسرعا الخطى دون أن يلتفت نحو الخلف كان أبو رمزي
يغذ السير، وعند نهاية الشارع توقف وأمسك بكف كارل
ماركس ونظر في عينيه الصفراوين وابتسم ابتسامة رضية
وقال.

- هذا عمود الفجر طر وانتشر

وزال الظلام أو بين المحتجب

انتبه وانظر الحالك ابيا هو صفه

إصبح وبروحك كل وكت مدفنه

مودعك أخ عزيز ماركس رفيق السجن الذي لن أنساه.

- ماذا تقصد بذلك صديقي ابو رمزي؟

- عزيزي ماركس.. لقد زال عنا ظلام السجن وأصبحنا
أحراراً، وإنته هسه عليك تنتبه الحالك، وخلي سرك بروحك،
لا تعرضه على غيرك، ولو أني أدري انته صابتك العدوى من
العراقيين، على قول المثل إلي يگول من عاشر القوم أربعين
يوماً صار منهم، أنا أدري مراح تگدر اتخلي سرك مدفون.

- أبو رمزي ليس لدي سراً أدفنه أو أخفيه، فانا ماركس
ألماني الجنسية، وجئت إلى العراق كعالم آثار ومنقب عنها،
وبحیل الله أغاتي عیوني أرجع إلى أهلي.

والله أنته أكبر ورده. صاير تلگفها وهیه طايره.

- ما هذه التي ألقفها حين تطير؟

- هسه مو وكتها، ولو اني متأكد، إنته تلگفها وهیه حاطه

لو غايصه مو بس طايره.. ما عليه.. شوف عيوني ماركس ابن
هنروش.. هسه إحنه راح نتوادع هنا.. أنه أركب أروح الهلي
خارج بغداد، وإنته تلزم هذا الشارع وتطلع بيه كبل، لا يمينه
ولا يسره، راح تلغي نفسك بنص بغداد، وبالضبط بمنطقة
يسموها الباب الشرجي.. مال تلغي إنته عالم أثار و مدري
شنو، تره شويه صعبه أصدگ بیک.. خلیها إبعک أحسن.. تره
أنه أخوک مکسر گحوف الدنیه علی راسی.. وأقره الممحي..
أوکی حبیبی...

لله درك حتى جذبك غير....

الحيا يجبر مشاعرنا تصون وما تخون...

والسمه لا ما تضیگ إن كان یغشاها الغمام...

والصدر یبقی رحب لو یمتلی ضیق وشجون..

مودعك الله مرة لڤ، وان شاء الله تتوفق بمسعاك وأهم شي
توصل الهلك سالم.

- أشکر لك ما فعلته لي أبا رمزي، متمنيا لك الموفقية. فقط
اسأل ماذا أفعل في المنطقة التي اسميتها باب الشرقي، فربما
سوف يتعرف علي جهاز الأمن أو لا أجد مأوى... هل هناك
فندق التجأ إليه؟

- عزيزي ماركس الطيب.. أني لو اگدر أخذك ويايه چان
سويتها، بس شويه هناك تعقيدات، وأنا مراح أبقه بالعراق
أصلا، أخويه، حاول أن لا تكرب من الشرطة.. وأبشرك همه
ليهسه هم ما عدهم بجيوبهم صورتك.. واضبارتك إحترگت

بالمركز.. وإذا تروح لفندق راح يطلبون منك هوية، وأنته ما شاء الله صلوخ بطرگ الحوايج، ولا ورقه تثبت شخصيتك..ولو بالعراق كلشي تايه ما ينعرف حماها من رجلها..شوف حبيبي هناك گدامك أكو سوگ جبير من تعبر الشارع الرئيسي، بنص السوگ أكو گهوتين لو ثلاثة، من يصير الليل راح إتعزل هاي الگهاوي، وتگدر إنته تنام على القنفات مالاتها.. وهاي المنطقة بالليل حتى الشرطة ما تتقرب منها.. أبقه چم يوم لمن شعر راسك ولحيتك وشواربك يطولن... وهاك الوكت وين ما تسرح محد يسأل عنك.. خوش لو مو خوش.. تره إحنه بالعراق نعمه من الله كلشي ضايع وصايره سفرتح، والكل مضيع صول جعابه.

- أبو رمزي ماذا تعني بسفرتح وكذلك مضيع صول جعابه؟

- بطل هذني السوالف هسه مو محلها أخويه ماركس.. بعدين يجي وگت وتعرفه..جوز عاد من سوالفك.. خوش لو موخوش.

- نعم.. خوش ورحمة الله.

ضحك ماركس وهو يردد كلمة خوش بلكنة إرتاح لها أبو رمزي الذي دس يده وأخرج ورقتين حمراوين من جيب سرواله.

- دون مجاملات عزيزي ماركس أرجو أن تقبل مني هذا المبلغ البسيط، بلكي ينفعك بهذوله اليومين الجايين.. أني عندي من خيرات الله جثير.. إعتبر هذي هدية من صديق رغم أننا لم

نتعارف غير أيام قليلة.. وأني اعتبره ثواب ودفع بله، وهذا الشي إنته متعرفه، وفدوه أروحك لتسأل عنه، تراه وربك المعبود إذا تسأل هسه أرجع وأسلم نفسي للشرطة، وأدهرك وياي.

مد ماركس يده وأخذ النقود، وصافح أبو رمزي، فبادره أبو رمزي وأحتضنه بحرارة، وراح يربت على كتف ماركس، الذي بادله ذات الحركة فضحك أبو رمزي، عندها تذكر ماركس ذات موقف الوداع مع الرفيق جبار، حين قام بنفس الحركة وودعه بعد أن أطلق سراحه من قبل عصابة أبو بشير.

- مودع ومحروس بالله.

- هاي إنته تعلمت عراقي مضبوط.. والله يا صاحب السجن
أني أخاف عليك من هذني السوالف الفاينات.. تراه بدايتها زينه
بس نهايتها كلش مخربطة.. مثل الفلافل أولها منافع وتاليها الله
يستر..

- كانت فرصة جميلة أن أتعرف عليك.. رغم تعاسة الموقف
والظرف.. فقط أود أن أشكرك من كل قلبي، وسوف أتذكر لك
جميع مواقفك.. إن شاء الله أغاتي عيوني.

كرر أبو رمزي كلمة إن شاء الله مع ماركس، وأطلق بعدها
ضحكة قوية، ومد يده مصافحاً، ثم استدار وسار نحو رأس
الزقاق القريب واختفى عند نهايته، دون أن يلتفت ورائه. كان
ماركس يقف متمسراً يراقب أبو رمزي، وهو يغذ السير مسرع
الخطو، ذاهباً إلى حيث يمكنه السفر خارج العاصمة بغداد.

ولن يكون لهما بعد هذه اللحظات لقاء آخر.

بات ماركس عند مفترق طرق، فقد عافه أبو رمزي وحيداً تائهاً في مدينة العجائب بغداد، التي سمع عنها الكثير، وآخر أنبائها ما حدث معهم في مركز الشرطة.

يا ترى إلى أين عليه الذهاب الآن؟ وأي مكان سيلجأ إليه؟ وكيف يتسنى له العيش؟ والأهم من كل ذلك، ما الذي يفعله للخروج من لعبة القدر المؤذية هذه، وبعدها الوصول إلى لندن. كان في حالة ذهول لا يستطيع معها إيقاف تلك التشابكات التي بدأت تلح في رأسه، وتطن مثل جوق حشرات استهوته قطعة حلوى. أين وكيف، كانتا كافيتين لإشغال كامل تجويف رأسه بوجعهما، سار ماركس متجهاً نحو المكان الذي أشار له أبو رمزي. وقف عند حافة الرصيف يراقب المارة وحركة السيارات، التي كانت تخترق الشارع العريض من كلا جانبيه بسرعة جنونية. ثمة نفق يقطع الشارع طولاً يفضي إلى جوار فسحة لحديقة كبيرة، يجاورها أيضاً على الجهة الأخرى شارع لمسير السيارات. سار جوار الرصيف ليقترّب من مقدمة الساحة التي تنتهي عندها مساحة الحديقة. اقترب من زاوية قريبة تسمح له برؤية الواجهة الأمامية للحديقة. شاهد لوحاً أسمنتياً ضخماً، كأنه راية تمتد على طول واجهة الحديقة، وضع فوق اللوح نُصب عديدة. راح ماركس يتمعن فيها محاولاً معرفة طبيعة تلك التماثيل ودالتها. لا توجد رؤية فردية ذاتية في هذا العمل الجميل، فهو يرى فيه عملاً فنياً متأثراً بمختلف الظروف الاجتماعية والسياسية للعراق، الزراعة

والثور والأم والجندي محطم الأسوار، جميعها تؤشر لمحاكاة تجربة حياتية غنية بمعرفة معالم البلد، ومسيرة وحراك البشر فيه. تحت النصب كانت هناك سيارة عسكرية، جوارها وقف عسكريان يتسامران ويطلقان ضحكات مسموعة، وعند قمرتها العليا تظهر فوهة سلاح رشاش كبير، يجلس خلفه جندي يداعب أرقام هاتفه النقال. حاذر ماركس أن يتخذ مسار عبوره من خلال هذا الطريق، خوفاً من إثارة شكوك هؤلاء العساكر إن خطر أمامهم بهذه الهيئة، فربما كانت لديهم معلومة عن الذي حدث وعنه بالذات، لذا استدار وعاد مرة أخرى حيث فتحة الزقاق التي جاء منها. وقف عند جهة الشارع القريبة من بداية النفق يراقب حركة السيارات. هم بخطف لحظة يتوقف فيها سير العجلات ليقفز نحو الضفة الأخرى من الشارع، حيث بدا أمامه سوق مكتظ بالناس، وعربات خشبية كثيرة تسيطر بالكامل على مساحة رصيف المشاة. لم يتعرف على نوع البضائع التي يبيعها هؤلاء. بعد جهد جهيد قفز بنشاط وحيوية ليعبر الشارع بكل ما استطاع من سرعة. اقترب من عربة كان صاحبها يطهو طعاماً، يضع خليطاً من قطع لحم صغيرة مع بيض في مقلاة كبيرة إسودت جراء السخام، فما عاد يظهر اللون الطبيعي لدهن القلي. فكر ماركس أن يطلب رغيفاً وبعض قطع من هذا الطعام، ليلجم جوعه، ولكنه شعر بالتقرز والنفرة من طريقة البائع في طهيهِ، فابتعد ليدخل السوق.

البحث عن المأوى

أزقة السوق كانت ضيقة وخربة، وازدحام البشر فيها على أشده. فالناس محشورة في مسافات ضيقة، جراء فوضى الباعة وسوء أرضية الأزقة المليئة بالحفر. ليس هناك من قدرة على التنقل بسهولة لشدة الزحام وعشوائية انتشار العربات، وربكة عروض بضاعة الدكاكين. فوضى كاملة. بعضهم يعلق في واجهة المحل ملابس عسكرية وجوارها أحذية، وهناك محلات للكي وخياطة الملابس، وأخرى لبيع العدد والتجهيزات العسكرية، وعربات تعرض أنواعاً مختلفة للبضائع، الطعام يجاور الملابس، وعربة للعدد اليدوية، وجوارها عربة لبيع النظارات الشمسية وهناك أخرى للصور الملونة وبنفس الوقت لبيع الأحذية. المكان بمجمله فوضى عارمة وانتشار عشوائي للبضائع والناس، وجو السوق ليس صحياً على الإطلاق، لا بل مظاهره تبعث على الريبة والتاسي ويتسم بالقذارة، ويفصح عن ظروف عمل سيئة وبائسة. دون شك فإن جميع العربات التي تباع بضائعها، من الجائز أنها تحوي ما هو ممنوع أو محرم، وهؤلاء يبدو عليهم وبالمجمل عدم شعور بالمسؤولية للمكان، وللناس ولا حتى لبضاعتهم. يتقاسمون بعرباتهم مساحات الأزقة ومنعطفاتها. السوق يشي بوجود أعمال رائجة، ليس لها علاقة بقطاع حكومي، ويبدو أن السلطات تركت الأمور لهؤلاء لتسيير حياتهم وأعمالهم دون رقابة، أ وحتى بذل

جهد لتنظيم أعمالهم، ومع هذه العشوائية والفوضى، فالجميع ودون ريب يعمل دون إجازة عمل، وبلا أي نوع من أنواع الضمانات.

كان ماركس ينظر حوله بشيء من الترقب والشغف والدهشة. لم يكن ليستغرب من وضع هذا السوق، فقد سبق وأن شاهد مثله في الكثير من المدن العربية التي مر بها، ولكن هذا السوق يمتاز عن الباقيات بكثافة الناس وتنوع بضائعه، وحظوة ظاهرة فيه لبيع الملابس والعدد العسكرية.

تذكر ماركس ما أرشده عليه أبو رمزي، لذا راح يتوغل في أزقة السوق، بحثاً عن مقهى، تكون بعيدة بعض الشيء عن الشارع العام. في زقاق منفرد بفتحة ضيقة يخرج منها المارة إلى زقاق آخر عريض، يلتصق بدوره بممر يفضي لسوق كبيرة بعدة أقسام، كانت هناك مقهى لا تأخذ مساحة كبيرة من المكان، تجاورها عربة لبيع الطعام. تقدم ماركس وجلس فوق التخت المجاور للعربة. نظر نحو صاحب العربة الذي كان يهياً قطعة رغيف وضع فيها الأكل، ثم لفها بقطعة صغيرة من ورقة صحيفه، وقدمها للزبون الذي تلقفها بدوره ودفع له ورقة نقود، وذهب ليجلس داخل المقهى. التفت صاحب عربة الطعام نحو ماركس قائلاً.

- ها عمي جوعان؟

- نعم.

- تريد لفة.. لو بالماعون؟

- مثلما تريد أنت.

- أخليك عروگ وبيتجان لو بس عروگ؟

- حسبما تقرر أنت.

أخذ صاحب المطعم يجهز الطعام وبين لحظة وأخرى يخطف النظر نحو ماركس، الذي تعلقت عيناه بحركة يد صاحب المطعم.

- أخليك خضرة؟

- مثلما تريد.

- أخليك طرشي؟

- مثلما تريد.

بشيء من الحذق قطع الرجل ورقة جديدة من الصحيفة، وغلف بها رغيف الطعام وقدمها لماركس، الذي تلقفها بشديد لهفة ورفعها قرب فمه، ولكنه تذكر أن عليه دفع الحساب لصاحب المطعم، فاخرج الورقتين الحمرأوين من جيب سترته، وقدمهما لصاحب العربة. أطل صاحب العربة النظر في وجه ماركس، عاينه من قمة رأسه حتى أسفل قدميه. رأس خفيف الشعر مغبر، ولحية لم تحلق منذ فترة طويلة، سترة بنية اللون متربة، مزق كتفها الأيمن من أعلى، وثوب هفاهف متسخ كالح اللون وحذاء أصفر مغطى بالوحل.

- هاي شنو عمي !! هاي خمسين ألف دينار.. هاي هواية تگدر تاكل بيها خمس تيام ليل نهار..

- ما أعرف

- إبنى أيبين إنته فقير ما جاي كبل لهنّا؟

- نعم سيدي فأنا لم أدخل هذا السوق سابقاً.

- هاي شنو.. أشو تحجي مو بشكلنا بالعامية؟

- لم أتعلم اللغة الدارجة..

- خوش وليدي صار معلوم.. صار.. أبو داود جيب چاي للأخ على حسابي.

نادى صاحب مطعم العربة على رجل كان يقف داخل المقهى يراقب الشارع. جاء الرجل ومعه قده شاي قدمه إلى ماركس وجلس جواره.

- عمي إنته منين؟

كان ماركس قد بدأ يلوك طعامه لذا لم يرغب الإجابة على سؤال الرجل. وأيضا فكر بأن حديثه سوف يوقعه في ورطة جديدة، فعليه أن يحاذر، فربما لن يجد ما يشفع لإخفاء شخصيته. ظل صامتا يلوك قطعة الطعام بسرعة ويتلفت حوله. لا يريد أن يستدرج إلى ما يجعله مكشوف الظهر للآخرين، فالصمت يغني كثيرا عن الكلام. ولكنه تيقن أيضا، من أن ليس من المناسب بعد الذي حدث أن يخفي شخصيته ويتستر عليها، فالموجب عليه أن يجد حلاً لمأزقه، وهذا هو الأساس ومن الموجب العمل من أجله.

- عيوني أبو داود مو وكتها، خلي الرجال ياكل لكمته

ويتهنا بيها.وبعدين نكدر نوگع على طينته.

قال صاحب عربة المطعم ذلك وغمز بعينه لصاحب المقهى
أبو داود.

- لا عمي أبو عفيفة تره آني متقصد أسأله، لأن آني تهمني
مصلحة اليكعدون بكهوتي. وإنته تعرف شنو مطلوب من
عدنه. تره ما بينه حيل للمشاكل.

- ميخالف.. بعدين عيوني إنته.. دروح جيبه كلاس ماي
ليروح يغص باللكمه..

ذهب أبو داود وجاء بقدر ماء سلمه لماركس، الذي احتساه
بسرعة دون توقف.

- ألف عافية عيوني بصدرك، يبين معطوش حيل.

- نعم منذ الصباح ولحد الآن لم أذق طعاماً أو شرباً.

- هاي عجيبه؟ ليش عمي إنته مو عندك خمسين ألف دينار
هسه أطيئنيهاه.. لعد شنو چنت أسوي بيها؟

- لقد أعطاني إياها أبو رمزي ولم أعرف قيمتها الشرائية.

- عمي إنته شسمك؟

- كارل ماركس!؟

- شنو.. شنو؟ مره لخ أعد شنو اسمك؟ صاح أبو عفيفة
متعجباً.

- كارل هنريش ماركس.

- دخيلك ربي.. لك أحترگ أبو هذا الحظ المخربط.. الرجال
عالگه وشابه عنده كلش.. مشتعله اموره وملتهبة ورايح فول.
قال أبو عفيفة وهو يطالع صاحب المقهى أبو داوود، الذي
فغر فاه تعجباً مما يسمعه.
- داد من أندار صدقه ألهلخلقة التعبانه.. يعني أسمك على
كارل ماركس الألماني؟
- أنا هو.

- يعني إنته كارل ماركس نفسه؟!
- نعم أنا هو بالذات.
- معود إنته متأكد گول غيره.. عمي خاف مشتبه لو جايبك
طيف بالليل ومخربط الغزل عندك.
- عن ماذا تتحدث؟

- أبو داوود إنته تعرف كارل ماركس منو؟
- عيوني أبو عفيفة متگلي أني شمعرفني.. گبل من چنت
زغیرون أروح أشوف أفلام، وجنت أحفظ هواية من أسماء
الممثلين.. جوني ولسملر، روك هدسون، كلاك گيبل، آلان
لاد.. روبرت متشوم.. بس هيچ إسم ما سامع بي ولا خاطر
عليه.

- هذا مو أسم ممثل.. هذا اسم أبو الشيوعية.. مؤسس
الشيوعية هو وصديقة انكلز.
- وهذوله شنو.. وهاي إنته شمعرفك بهذا الشي؟

- أبو داود إنته تدري بوكت عبد الكريم قاسم چنت أني معلم، وچان لذاك الرجال ماركس صيت قوي، وكتبه وصوره بكل مكان، وعد هوايه ناس، والناس تشتري كتبه وهوايه چانو يحبونه، وهمين هوايه يكرهونه، وهسه همين أله جماعات هوايه بالعراق. هذا هو السوه الشيوعية.

- وهذا عايش من وكت عبد الكريم و شنو شجابه هسه هنا لديرتنه؟

- لا عمي كارل ماركس مات قبل لا تتولد إنته لو أني وحتى قبل ما ينولد جدي حمادي..

- أها.. لعد هيچي الحچي، هذا مو هو.. واسمه على أسم ذاك الرجال الميت... إي شکو بيها، مو هواية عراقيين سمو أسامي ولدهم على أسم عبد الكريم قاسم وعبد السلام، وگبله إنتشر اسم فيصل وغازي.. ناس تحب وتسمي. بالمناسبة أبو شهباء راح لدائرة النفوس حتى يغير أسم ابنه من عدي إلى عداي.. شفت الوگت شلون يفتر ويلعب لعبته.

- هاي الناس شببها بس تتلوگ وبعدين من يفتر الوگت نتندم.

- هيه لو محبة صدك لو لوگ لوغيه.

- عيوني أبو داود لكل زمان دولة، ولكل دولة رجال.مثل ما تگول الناس تسمي ولدها ما تدري حب صدگ لو لواگه، الله أعلم..حسبالک قحط الأسماء، بعدين من يتغير الوگت گلبهم يگوم يطگطک من الخوف..

- تعتقد صاحبه عنده شي؟

- ميه بالميه سالفته لاكفه طين أو وايرات الاتصالات معطوبة كلش، الله يرحم الناس برحمته الواسعه.

كان ماركس خلال ذلك الحديث يلوك الطعام وعينه تراقبان الرجلين ويستمع لحديثهما بانتباه، لعله يجد ما يساعده للخروج من المأزق الذي سوف يواجهه، جراء ما سوف ينهال عليه من أسئلة. تلك اللحظة دنا رجل آخر كان ينصت للحديث من داخل المقهى، ومن خلف التخت الذي كان يجلس عليه ماركس.. إستدار وجلس عند طارف التخت قرب أبو داوود صاحب المقهى. ودون مقدمات قال.

- خالي أبو عفيفة آني أدفع حساب الرجال هذا.

- عيوني أبو رجب مشكور.. بس الرجال عنده فلوس.

- حتى لو عنده.. آني أدفع عنه.

- منو يگول يقبل؟

- لا يقبل.. مو حبيبي أستاذ قادر تقبل مني أدفع عنك الحساب؟

نظر ماركس نحو الرجل وأبتسم له ابتسامة رضا، وقال وهو يفرك راحتي يديه بعد أن أنهى التهام الطعام.

- عن ماذا تتكلم سيدي؟

- أستاذ قادر.. الحمد لله آني لكيتك عايش وسالم.. إن شاء الله مرتاح أستاذ.

- شكرا جزيلًا، ولكني لست الذي تنشده، فأنا لست أستاذًا،
وأسمي ليس قادراً.. أنا اسمي كارل هنريش ماركس من
ألمانيا.

- أدري.. أدري الله يكون بعونك... يا جماعة أنه أعرف
الرجال حق المعرفة.

- مشتبه بيه لو تعرفه؟

بادر أبو داوود ومثله أبو عفيفة بسؤال أبو رجب، عن حقيقة
معرفته بشخص كارل ماركس أو مثلما سماه أستاذ عبد القادر.

- حبيبي أبو عفيفة ولا يهون أبو داوود، هذا أستاذ عبد
القادر مله عطا آل مغامس، كان أحد أهم أساتذة كلية العلوم
السياسية في جامعة الكوفة، والمسؤول عن التقييم الجامعي
والبحوث.. فد يوم بعهد صدام اجوي الأمن للجامعة وأخذوه،
واختفى من ذاك الوقت، وبعد مانشاف، ومحد عرف السبب
الصدك.. يگولون طالب بعثي چان يغش بالامتحان، وأستاذ
قادر لزمه ورسبه. وهذا الطالب شد عداوه، وكتب تقرير
موزين على أستاذ قادر، وگال عليه شيوعي. وأجوي بعدين
الأمن وأعتقلوه خطيه.. وهسه هو گدامكم.

- أگول.. من هذا مسمي نفسه كارل ماركس.. بس أبو
رجب إنته منين تعرفه؟

- آني چنت أشتغل بمديرية بريد النجف، وكل أسبوع أمر
لأقسام جامعة الكوفة أسلمهم البريد وبعض الكتب، وجنت
أشوفه لأستاذ قادر وادخل عليه لغرفته.. آدمي ابن أوادم.. وآني

أميزه من بين ألف واحد، رغم شكله شويه متبدل، ضعفان...مو
كلش أبيض، شعره مو أسود كلش، ومشيب، وعيونه صفر،
وچان يوميه يلبس قاط جديد ورباط وقميص منشه..هيبه
وينوصف وصف.. ابن حلال، مع كل الأسف.. نعله على
روحه للكافر بن الكافر شسوه بالناس.. هذا العالم الفاهم خلاه
يصير بهذي الحال.. والله هذا يسوه ألف واحد مثل صدام وربع
صدام.

- لا يا كفار ولد الكفار.. إي ليش من عمت عينه للوكت..
هذي الناس العلامة الفهامة يصير بيها هيچي شي.. وگرایبهم
جابوهم من وره الهوش، وسوهم ضباط وأساتذة أو وزراء
وصارو يتحكمون بروس الناس.

- أغاتي أبو عفيفة هذا قدر العراقيين، راح ذاك المجلوب
وهسه إنته تشوف، إحنه همين وگعنه بيا حال، هم هناك من
يشبه صدام ومجاليبه وديلعبون بالوضع لعب.

- إي والله قدر العراقيين كل فترة ينلعب بيهم طنّب.. تدرون
أني شنو أفكر..

- شنو تفكر أبو عفيفة؟

- أگول لو يجينا فد طنّطل.. طنّطل خشن مصنع ومضبوط
ويشد حيله، ويلعب خلقة بكل هذوله لعب، ويگّطعهم من
عرجهم، ويصفيلنه الجو، ويوگف بوجه كل ظالم وحرامي،
ويوفرلنه الأمن والكهرباء، وبعدها كلشي مانريد ونبوس إدينه
وجه وگفه.

- أبو عفيفة عيوني... تتصور الأمريكان يحبون الطناطل، لو همه أهل الطناطل. بعدين هذا طنطلك، گلي شگد راح يقاوم ویه العراقيين وطلاييه؟ شهر شهرين، سنه سنتين؟ هذا يريد منه استقلال بعشيقه، وذاك يطالب بانفصال عفج، والشطره تطالب بالفدرالية، وذاك يريد بوري نفط يجي البيته، أو واحد يريد كهرباء خمسه وسبعين ساعة باليوم، وهذا يطلب منحة سفر سنوية لجميع المواطنين، أسوة بأعضاء البرلمان، وذاك يصيح حرية حرية دولة مدنية، ويجاوبه اللاخ، الحكم لله والموت للعلمانية، وهذا يريد وذاك يريد، إلى إن أطگ حوصلة وفيوزات الطنطل، وتشوفه بعدين راح يندار على الشعب العراقي، ويلعب بطراگاتنه لعب.. إنته من كل عقلك يجي ابن أوادم طنطل لو بنطل لو حنطل، ويعدل حال هذي الأمة المسكينة.. أيس، وأخذها مني ماراح ينعدل الحال إذا مو إحنه ننعدل.

- والله حچيك ذهب ابن عمي أبو داوود الورد.

قال أبو رجب ذلك وراح يلوك قطعة صمون صغيره، سحبها من تحت الغطاء الموضوع في عربة الطعام دون استئذان من أبو عفيفة، الذي لم يبد اهتماما للأمر، فقد اعتاد ذلك، ومطعمه مباح لجميع أصحابه. كان ماركس يراقب حركات الرجال الثلاثة، وينصت لحديثهم باهتمام وتمعن، محاولا أن يلم ويستوعب جميع ما يدور الحديث حوله. كانت تقلت منه بعض الكلمات التي لا يفقه معانيها، ولكنه في العموم بدأ يفهم أغلب ما يتحدثون عنه. حديث الناس في هذا البلد لا

يخلو من التباس في محاولة فهمه، ليس له فقط وإنما يشعر أن ذلك يحدث فيما بينهم أيضاً، هذا ما تلمسه ماركس عند جميع من تعرف عليهم. فالمشتركات في الحوار تتدهور فجأة وتقفز نحو عدة مواضيع، ثم تذهب بعيداً، ويكون ذهابها سريعاً وجلياً دون ثبات على حال، فمن السهولة أن يصب الحديث في جوانب مختلفة ومتنوعة في آن واحد، حينها تبدأ معه سرعة التأويل وإطلاق الأحكام واستباقها، فالحظة الراهنة لا تلبث أن تتشعب نحو الماضي والمستقبل ويضطرب معها الحديث، ثم يختلط السلوك المنطقي بالغرائبي أو الهازل، ويتحول إلى شيء مختلف أو بعيد عن الراهن. آلام الماضي تضغط على الحاضر فتجعله اشدّ عسراً، وترحل نحو المستقبل لتجعله أكثر التباساً وقلقاً. لا أدري إن كان ذلك جزء من ثقافة وخيار عام لهذا الشعب. الغريب أن ما يتحدث فيه هؤلاء الطيبون، هو من هذا الصنف، وباتوا مقتنعين بأنني الأستاذ عبد القادر. فالحجة التي يقدمها لهم هذا الرجل، الواقف أمامي، يتحدث ويحرك يديه في الهواء، وكأنه يقف وراء منصة خطابه، تبدو سليمة بمجملها، منطقية ومقنعة له ولهم، وهم لا يملكون سوى الموافقة على روايته التي يقرنها بالأدلة، وهامهم يراجعون الماضي ويتمنون شيئاً للحاضر ويجيبون عليه قبولاً أو نفياً.

ولكن أنا، أنا المعني بكل ما جاء في هذه الحكاية، والذي يراد منه أن يماشي رغبة أحدهم، ما علي فعله الآن. أجد من الممكن أن أمسك هذه الحكاية من تلايبيها، وأتوافق معها بشكل وآخر، لأخرج من المأزق الذي وقعت فيه، وأبعد عني الشبهات. قادر.. عبد القادر أستاذ كلية العلوم السياسية في

جامعة الكوفة أو أي مسمى أو وجود آخر، يستطيع أن يمنحني فرصة أخرى، أقفز معها نحو ضفة جديدة، وتغطي على شخصيتي ووضعي، ومن ثم تبعث عندي أملاً جديداً في العودة إلى لندن. هنا عليّ أن أضع أو أختار ما يفي ويتوافق وحالة عبد القادر. تدريسي أعتقل، الآن هو خارج السجن مطلق السراح، ولكنه في حالة فقدان ذاكرة أو جنون، ولكن من الممكن أيضاً أن يدخلني هذا التقمص في متاهة ومأزق جديد، أضيق فيه لاحقاً وأخسر كل شيء. حتماً سوف أصاب بالذعر عند منعطف حاسم من هذه اللعبة. ربما لا يستطيع الاحتمال إلى ما لانهاية، وبالذات إزاء مشاعر الذنب التي سوف أشعر بها لاحقاً، جراء قبولي ومجازفتي بخداع الآخرين، فلم يسبق لي أن مارست خداع أحد. أعتقد إن الأمر قد اختلف في هذا الوقت الراهن، لا بل يتطلب قوة شكيمة وإرادة ومجازفة، فالقيام بمثل هذه الخدعة يكون دفاعاً عن النفس ضد تهديد أتعرض له وأنا في العراق، ولن يكون عيباً ذاتياً أبدياً، إن فعلت مثل هذه الخدعة، فهي جزء من مرحلة أجبرت فيها على تقمص شخصية قادر، وسوف يعد سلوكاً مشروعاً. ولتكن قدرتي تتوافق مع هذه اللعبة، ولأبدأ بمجاعة هؤلاء بشيء من الحذر وبكلمات مختصرة هلامية.

- أستاذ قادر عود صدك إنته وين جنت؟

قال ذلك أبو رجب بينما كان ينفذ عن كتف ماركس شيئاً من التراب العالق.

- بالسجن.

- شفتو يا جماعه يتذكر خطيه. اتعذبت هواية استاذ قادر مو..؟

- كثيراً سيدي العزيز.. كانت أياماً صعبة.

- شلون ويمته خلصت السجن، شلون طلعت؟

- لا أعرف..

- زين صدگ أبو رجب إنته ما تندل بيت استاذ عبد القادر؟

- لا والله لأن يگولون هو مو من أهل النجف..خطيه.

- أبو داوود... ليش هيه السالفة مال أستاذ قادر هم يرادلها تفسير؟!.

- هم صحيح والله ما ينرادلها.

- من دخلو الأمريكان ما بقه واحد بالشماعية لو بالسجن...
عمي أستاذ قادر إنته چنت بالسجن لو بالشماعية؟

- لا أتذكر شيئاً من هذا القبيل. ربما هناك أو هناك.

- يابه خلوه للرجال.. إي هسه شيفيد لو عرفتو چان وين..
چان عند الحكومة الظالمه وطلع.. يجوز كل ذاك الوكت
خلصها مشي وتايه بالدروب.. عمي عندك أهل، عندك بيت؟

- كلا.. أو الأحرى لا أدري.

- زين وين خلصت كل ذاك الوكت؟

- بالسجن.

- من عهد صدام لهذا الوكت إنته بالسجن؟

- لا أعرف.. ألا أستطيع الحصول على وجبة طعام أخرى؟

- تدلل أستاذ قادر العزيز چنك على قوزي..

- رحم الله والديكم.. إن شاء الله أغاتي.

قالها ماركس، وأشاح وجهه بعيداً، خافياً ابتسامة ارتسمت على وجهه، فهو الآن يستخدم ما تعلمه من اللغة العراقية الدارجة، لتمرير خدعة يشعر أنها بدأت تتسع، وباتت تكبر مع كومة الأسئلة التي راحت تنهال عليه، ولا يعتقد أنها سوف تختزل عند حدود هذه المجموعة، بل عليه أن يكون في قادم الأيام على كامل الاستعداد لمواجهة أسئلة متنوعة، وربما صادمة تريد منه الإفصاح عن شخصيته، ولن تتركه دون أن تقتنع بما ينفعها، لذا عليه أن يختصر إجاباته قدر المستطاع، ويجعلها تضع السائل في حيرة أو اقتناع، وهذا هو المهم في هذه اللعبة الكريهة، لحين الوصول إلى نقطة يمكنه معها الحصول على حل لجميع مشاكله، وفي مقدمتها الخروج من العراق.

- زين إنته وين چنت تنام وشلون تعيش؟

- بالشارع ورحمة الله واسعة.

- لعد شنو تگول اسمي كارل ماركس.. ليش إنته صدك

شيوعي؟

- أنا لست شيوعياً.

- شوف أبو عفيفة هذا صار يتذكر زين.. الدنيه راح تصير

مسه وين هذا يبات؟

- عمي استاذ قادر إنته عندك مكان تروحله؟

- ما أعرف..

- لعد شنو تفكر... وين راح تروح.. وين تبات؟

- لا أدري.

- يابه هذا يبين ما عنده مكان... زين أستاذ قادر تگدر تبات هنا، على الكرويتات مال الكهوة بعد ما أعزل.

قال أبو داود صاحب المقهى وهو يناول ماركس كأس ماء جلبه له أثناء ما كان يأكل لفافة الطعام الثانية التي هياها له أبو عفيفة.

- نعم أستطيع ذلك.

بدأت حركة الناس تخف كثيراً، وأغلقت بعض المحلات أبوابها، وسحب باعة العربات عرباتهم إلى أماكن بعيدة عن وسط السوق، باتجاه أزقة ومحلات أخرى. كان أبو عفيفة وأبو داود ومعهما أبو رجب قد دخلوا وسط المقهى، وراحوا في حوار حول كيفية التعامل مع أستاذ قادر أو كارل ماركس. وهل من الممكن إبقاءه هنا داخل المقهى. عندها اعترض أبو داود بشدة قائلاً.

- أخوان.. هذا الرجال أني ما أعرفه، بعدين مبين عليه مخبل مخربط.. زين اذا گعد بالليل وكسرلي حاجات الكهوة شراح أسوي.. يبات على القنفات بره حاله حال غيره من

المجادية والمخابيل.. مخالاف.. بس بنص الكهوة أعذروني.

- خوش أبو دواوود الخاطري.. نصفطله كرويتين ويناام
أباب الكهوة.. تراه هذا رجال ذبه الدهر والسريرية لعبو بي
لعب... هذا چان أستاذ جبير ومحترم وينشال فوك الراس..
عزيز قوم ذل والله العظيم وداعة الخوه.

- على راسي أبو رجب مخالاف بس تراه عصابة أبو تركي
الأعضب يوميه بالليل.. هذا المكان يصير مالتهم.. حتى
الشرطة ما تدخل لهناء، وتخاف منهم.. شغلتهم يبيعون ويشترون
الممنوعات، ويشغلون بكل أنواع الدكايك السوداء، حتى القتل
والنهب، وخاف يلگونه ويقتلونه وياخذون فلوسه، لو يبيعونه
تفصيخ، حتى أحنه نفسنه مخلصين منهم، كل شهر ياخذون
من عدنه خاوه.

- فلوسه راح أبقياها يمي، وأني هسه من راح أعزل أروح
لعد أبو تركي... شويه آني عندي خاطرانه يمه.. أروح أوصي
وأحچيله قصة أستاذ قادر... وهم أنطي حصه الشهر. هسه
خلي يگوم... ساعدوه يغسل وجه خطية حسبالك طالع من گبر.

قال أبو عفيفة ذلك واخذ بيد ماركس وسلمه لأبو داوود
ليساعده في تنظيف وجهه.. وفي ذات الوقت أخذ أبو رجب في
مدحهما.

- رحمه لوالديكم.. والله چنكم مسوين فضل علي من السما
للأرض.. آني أشعر جني أريد أرد فضل لهذا الرجال.. لأن
چان ما يقبل إذا ما يگعدني يمه ونشرب سوه چاي.. ايباه شلون

دنيه.. الله لايطي كلمن سعه بعذاب هذا الزلمه.. الله يخبل عوائلهم.. ليش شنو ذنبه يتخبل بعد ما چان أستاذ محترم ومقدر..

- إن شاء الله محلوله.. خلي يبات هنا يمينه لحين بلجي نشوفله دكتور من جماعته يساعده ويقيس شكد خبالاته، ويمكن ينعدل حاله ويرجع حتى لو مو مثل گبل بس أحسن من هسه.

بعد أن ساعدوا ماركس في تنظيف وجهه ويديه، أخذ أبو داوود وبمساعدة أبو رجب لملة حاجات المقهى، ثم وضعوا أمام المقهى تختين متقابلين، ليكونا سريراً لماركس. وافرغ أبو عفيفة بضاعته في حقيبة صغيرة تسحب باليد، ودفع عربة الطعام وذهب بها نحو زاوية داخل السوق، حيث ركنها هناك وأحاطها بسلك معدني طويل ربط طرفيه بقفل كبير، ثم سحب الحقيبة اليدوية متوجها للبحث عن أبو تركي الأعضاء، ليشرح له حالة عبد القادر ويستعطفه من أجل حماية ماركس ليلا و عدم إيذائه.

في ثياب الأستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس

لم تكن ليلة عادية فرغم كون ماركس قد قضى أكثر من أسبوعين، كان خلالهما ينام فوق بطانية صوفية واحدة، وضعها كفراش فوق أرضية غرفة السجن الإسمنتية الصلدة، وكان يتوسد راحتي يديه، وقبلها كان ولمدة أكثر من شهر تحت التهديد اليومي في الغرفة المتربة، في بيت المجرم أبو بشير، وقد مورس ضده من العنف المنفلت الكثير. يتذكر الآن تلك الليلة المجنونة التي ربط جسده المقيد بخطم البقرة الهائجة. ولكن في هذه الليلة ومع صرير تخوت المقهى كلما حرك جسده، كان مجبراً على السهاد، وفي ذات الوقت يشعر أنه تحت تهديد حقيقي، وكان وكأنه في انتظار أحد ما، سوف يأتي من فج في هذا السوق لينقض عليه، وأن ساعة حتفه قد اقتربت. فهو يترقب رجال العصابات السائبة، الذين يتحدث البعض برعب عنهم، هؤلاء الذين يجوبون ليل بغداد، بحثاً عن ضحايا وأماكن لسرقتها، لا يدري أي ساعة سوف يكون قدومهم، ومتى يجدهم قرب مضجعه الاضطرابي، وعندها يمارسون نزواتهم الوحشية تجاهه بقسوة عمياء. فأفعال هؤلاء لا يمكن توقعها، ولا حتى فهم دوافعها على الإطلاق، ولن

يكون بينهم من يتعاطف مع الضحية، فتلك المشاعر قد أختفت من قلوبهم، ولم يعد لها مكان في نفوسهم، وتحول لديهم القتل إلى هواية، تسبقها غواية وضرورة أن تكون هناك ضحية، ضحية مهما كان لونها أو مكانتها أو حتى عمرها وجنسها. ورغم كل هذا وكل ما شاهده وعلق في ذهنه، وما تلقاه من ألم وقسوة ووجع وحتى خديعة طالته منذ أول دخوله عالم بغداد، وبعد كل هذه الجولة من الإحباط والضياع والعذاب فلن يخدع نفسه، ويكون متحيزاً أو مجافياً لأفكاره ويوسم هؤلاء البشر جميعاً بالتخلف والدونية. وبالرغم من أنه ينتظر الليلة من يأتي ليجهز عليه في فراشه الخشبي هذا، ولكنه يود أيضاً أن يجد المبرر العقلاني لما يعتمل في ضمائر وقلوب العراقيين. فهم أبناء بيئتهم القاسية وتراثهم الطويل الضاح بالعنف، ومع كل ذلك الإرث القاسي، فأرواح البعض منهم لا تخلو من عاطفة وبراءة وقدرة على نكران الذات، والاستعداد لتقديم العون للآخرين، ولكن العواطف ليست كل شيء في هذه الحياة، وضغوط الجماعة، وربما عدوانيتها، والخضوع لإرادتها، ونمط الحياة، وقيمها، ووطأة الوضع الاقتصادي المزري في أغلبه، يدفع المرء لتغيير دائم في السلوك العام والخاص، ويؤثر هذا حتى على المظهر الخارجي والتركيبية العامة للشخص فيتصرف أحياناً بعيداً عن شخصيته الحقيقية.

لم يكن ليل تلك المنطقة من بغداد ساكناً هادئاً على الإطلاق، فرشق الرصاص يتكرر بين فينة وأخرى، وكأن هناك في الجوار قتال شوارع بين خصمين عنيدين. ها قد أنقضى الوطر الأكثر من الليل، وهو مستيقظ لم يغلق عينيه، وكانتا على

سعتهما، تراقبان السماء بنجومها اللامعة. وكان يتنصت دبيب الحشرات وأصوات الكلاب والقطط السائبة، وهي تتعارك على بقايا الطعام المبعثر في المزابل داخل أزقة السوق، حين سمع فجأة وقع أقدام تقترب وحديثاً هامساً لمجموعة رجال. بعد برهة وجيزة أطلت ثلاثة وجوه تنظر له فوثب من رقدته.

- لتخاف يول لتخاف.. إنته إسمك قادر.. أستاذ عبد القادر.

حاول ابتلاع لعبه ولكن حنجرته كانت جافة يابسة مثل صحراء ملح، فخرجت الكلمة بحشرة متقطعة ومعها صفير خوف.

- نعم.

- لتخاف.. إرجع نام إنته بحمايته، وصانا بيك أبو عفيفة.. تدلل أستاذ قادر.. نام نوم العوافي..

- أني ما عندي فلوس.

- نعرف.. موغلناك لتخاف إنته بحمايتنا.. أبو عفيفة صاحبنه وصاحب جميل عليه.. نام إرجع نام.

- أبو تركي ما تخلينه نتونس شويه وياه؟.

- هاي سوافك الفاينات.. تريد تصوير سبع ولوتي براس المخابيل.. دعوفه للرجال بقهره.. دمشي وتعال وياه وهناك طلع شطارتك... اليوم دسمه أريد اشوفك..

- عد عيناك أبو تركي.. ممنونك.. خليني على يمينك..

- في أمان الله عبد القادر بيك.

- إن شاء الله أغاتي.. عيوني..

هكذا نطق ماركس جملته بفم جاف، فضحك الرجال وربت أبو تركي على كتفه. ومع صخب شحكهم ومزاحهم ورعب ودهشة ماركس، انسحبوا وابتعدوا يسIRON ببطاء نحو نهاية الزقاق. عندها عاد ماركس لرقدته وقد شعر بشيء من الاطمئنان وراح ينتظر بزوغ فجر يوم جديد.

تضاربت الأفكار في ذهنه، فها هو الآن في وضع قلق وغير مطمئن، ولكن في نفس الوقت يشعر بأنه وجد بعض الحماية جراء تعاطف له ما يبرره، ولكن في حقيقة الأمر يأتي بالذات على حساب شخصيته. فوصمة الجنون للأستاذ قادر، وجدت طريقها لتسلب شخصيته الحقيقية عند هؤلاء، ولكنها في الوقت نفسه تسبغ عليه فائدة ليست بالهينة، وهي تؤشر أيضا لفترة مظلمة وقاسية خطفت من الناس حتى عقولهم. فالعنف والجنون باتا صنوين لمرحلة امتدت طويلا، ولم تكن شططا عابرا في حياة الكثير من العراقيين، وحين يتحدثون عنها، يصفونها بشتى المسميات، لا بل كانت ومازالت عندهم ظاهرة، مثلت نموذجا فريدا للقسوة والظلم، حتى وإن واجهتهم كل تلك المشاكل والصعوبات في الراهن من الوقت، فإن هناك غالبية لا تريد أن تذهب لمقارنة الماضي بالحاضر، وتصر على أن الحاضر هو نتاج ذلك الماضي، وتلك حقيقة بائنة، وقسوتها لا تنكرها عين منصف. ولتفسير العنف والقسوة المجتمعية، نجد أن الماضي له من السطوة والتأثير الكثير. فالصفات العدوانية والعنيفة لها جذورها وتربتها التي تغذت

منها، ولكن لا يمكن أن تكون خاصية إنسانية. فهؤلاء الناس لو أتاحت لهم فرصة حياة متجددة إحيائية تطويرية، ويرفع عن كاهلهم عبء التهديد النفسي، وكبت الحريات والعوز المادي، ولو كانوا في وضع مريح يسمح لهم بالتفكير العقلاني، لتغيرت الكثير من طباعهم، وقدموا ما يشي لرفعة قيمهم الإنسانية الحقيقية. ولكن مع انعدام كل هذا، فالمواقف الشخصية والثبات على الحال والنفرة من التغيرات، يشخص عندهم بشكل ظاهر، ويظهر في إدارة الظهر للعالم وتفريغ العوامل الذاتية في فورات غضب وانفعالات فجائية وعناد في المواقف، ولم يأت ذلك اعتباطاً، وإنما جاء بسبب الشعور بالتهديد الدائم والمسلط بشكل يومي. أيضاً عوامل القلق وفقدان الحريات، مما يربك التوازن الوجودي لديهم، ويبعدهم عن حقيقتهم كشعب يعد من أول شعوب الأرض وبناء أولى حضارة في هذا العالم.

الحلم

فتح ماركس عينيه على سعتهما وهو ينظر إلى صديقه إنجلز الجالس جواره على ذات تخت المقهى الذي أتخذه سريرًا. كانت مفاجأة غريبة، ولكنها أدخلت السرور والارتياح لقلبه، وشعر وكأن الحياة ردت إليه، لذا قال بنشوة وفرح غامر.

- ما الذي أتى بك يا صاحبي؟

- تسلمت رسالتك وعرفت أنك في مأزق كبير، ففكرت أن أقدم لك المساعدة قدر ما أستطيع.

- آه كم أنا بحاجة إليك في هذا الظرف العصيب. لم أكن لأعرف من أين سوف يأتيني العون، لأهرب من هذا الكابوس الذي تلبسني. يا صاحبي كم أنا فرح بوجودك، دائماً أجذك جوارى، وأنت تضع معي خطة خلاص هذا العالم، وتشاركني حتى في همومي ومشاغلي الشخصية، أنا جد فرح بوجودك أيها الرفيق الباسل إنجلز.

- لم أمنع نفسي من المجيء إلى هنا والبحث عنك، فقدرى أرتبط بقدرك وبتنا صنوين في هذه الحومة. لا فكاك عن بعضنا البعض. أليس ذلك صحيحاً رفيقي العزيز؟

- نعم أيها الرفيق.. كنت أنت سندي وصاحبي وأيضاً ملهمي في الكثير من الأفكار والمطامحات.

- صديقي ورفيقي ماركس، أنت من أكتشف قانون تطور التاريخ البشري، وهذه الحقيقة البسيطة والواضحة، دائماً ما كانت تخفيها وتشوش عليها هيمنة الايدولوجيا، وهي إن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب، ويجد المأوى والملبس، قبل أن يصبح في استطاعته الاهتمام بالسياسة والعلم والفن والدين. ألم تلاحظ هذا هنا في العراق؟

- أعرف هذا عزيزي إنجلز، وما مجيئي إلى العراق غير محاولة لسبر غور حركة وتطور التاريخ البشري، واكتشاف الحقيقة المتعلقة بالصراع الطبقي، وطبيعة وسائل الإنتاج في هذا البلد العجيب، الغني بإفراط والفقير بذات المستوى ونفس الوقت. ولكنني تعرضت للتشويش، وأدخلت في دوامة صعبة، ولم أعد أمتلك القدرة لتلمس وتتبع الأحداث والتطورات المتسارعة والمعيقة. فلم أجد طبقة عاملة بالمعنى الحرفي والاحترافي للكلمة، وأيضاً تختفي بشكل مشوش البرجوازية، ومثلها وسائل الإنتاج. لذا فطبيعة الصراع الطبقي مشوشة ومتداخلة بشكل غريب، لن يستطيع المرء تفسير الكثير من وقائعه اليومية أو مسالكه ومآلاته بعمومها. ولم أجد عندهم إنتاجاً للوسائل المادية الحقيقية الضرورية للعيش، فهم يعتمدون على استيراد كل شيء، ولم أحصل على مؤشرات عن درجة التطور الاقتصادي المتحققة من طرف هذا الشعب، فالسلطة تعتمد الربيع النفطي في مجمل الاقتصاد. أيضاً وهذا ما شوش علي وأربكني، فقد أدخلني من استدعائي، في مآزق عديدة وصلت في بعضها حد التهلكة لا بل الموت المحقق.

- حتى لم تستطع أن تدرك وتطلع على حقبة تشكل الأساس الذي تقوم عليه مؤسسات الدولة، والمفاهيم الشرعية، والفن، وحتى الأفكار حول الدين التي يختص بها هذا الشعب، والتي على ضوءها تفسر الكثير من الأحداث، وكان من الممكن أن تنفعل في قادم الأيام.

- لا يا صديقي إنجلز، لم أكن في وضع مستقر، وفاجأتني أحداث وضعتني في حالة تقترب من الضياع، أنت تتذكر كيف تسنى لي اكتشاف القانون الخاص بالحركة الذي يحكم نمط الإنتاج الرأسمالي لعصرنا، والمجتمع البرجوازي الذي خلقه هذا النمط من الإنتاج، وأيضاً لفائض القيمة الذي سلطت الضوء عليه، وهو لب المشكلة، ووضعت الحل لما عجزت عن حله جميع الأبحاث السابقة من لدن الاقتصاديين البرجوازيين وكذلك النقاد الاشتراكيين. ولكني في نهاية المطاف لم أجد أو أشاهد أو أتمس هنا ما يسعفني، لمعرفة كيف يتولد فائض القيمة، في هذه العشوائيات الكثيرة المنتشرة في طول العراق وعرضه، ولم أجد اقتصاداً يمكن للمرء دراسته واستخلاص نتائج منه. تصور يا رفيقي، حتى الرؤية لدى السلطة والمجتمع حول توزيع الثروة ونظام الاقتراض الحكومي غير عملية، وأيضاً غير منصفة، وتنعدم الأسس لنظام الضرائب والحماية الكمركية وتوزيع الدخل، واعتمدت هذه الطرائق في جانب منها على العنف الوحشي، وتستخدمه سلطة الدولة، أي العنف المنظم والمركز في المجتمع، بغية إنماء عملية تحويل أسلوب الإنتاج المشوه السابق الذي سمي ظلماً بالاشتراكي، وتقليص مراحل الانتقال إلى نمط الاقتصاد

الرأسمالي. وهنا نرى أن العنف ذاته أصبح قوة اقتصادية، وولدت من رحمه مافيات مدججة بالسلاح.

- ولكن أين منظمات المجتمع المدني من كل هذه الفوضى؟

- هنا مربط الفرس يارفيقي، فأنت تعرف وربما فاتنا سوية تطوير مفهوم رأس المال الاجتماعي، هذا الذي كان علينا بحثه بشكل تفصيلي، فقيمة وفعاليات العلاقات الاجتماعية، ودور التعاون والثقة، لها الأثر الكبير في تحقيق الأهداف الاقتصادية، فرأس المال الاجتماعي ركيزة أساسية للعلاقات الاجتماعية، وهو الذي يتألف من شبكات اجتماعية ومشاركات مدنية وعادات مشتركة، لها تأثير على إنتاجية المجتمع والفرد، وهنا فإن المجتمع يعوزه الكثير ليخلق مثل تلك الشبكات، والسبب هو تخلف أنماط محددة في شبكة التشكيلات....

شعر ماركس بلكرة قوية عند قدمه فوثب من نومته وفرك عينيه فوجد أبا داوود وأبا رجب يقفان جواره ويبتسمان له.

- أگعد عمي أگعد... الدنيه صبح والشمس صارت بنص السما، وإنته رايح بسابع نومه. خلينا نفتح على باب الله.

- لم أنم طوال الليل.

- هسه چنت نايم وتدردم چنك بعدك بالكلية، وتحجي محاضرة للطلاب. صار ساعة إحنه واگفين يمك نسمع سوالفك. إي مو خبلتنه.

هكذا قال أبو رجب وهو يسحب مع أبي داوود التخت ليضعاه جوار الآخر ويخرج ماركس من بين المقعدين.

- خالي أني سمعته.. هذا عود صدك چان أستاذ. يرطن
رطينه ما افتهمت منها كلشي.. هاي شلون چانو الطلاب
يفتهمون.. عملية تحويل أسلوب الإنتاج المشوه، عود شنو
هاذي.. هاي تسطر أكبر واحد.

- هوه أني شنو گلنتكم.. هذا أستاذ عبد القادر چان ينحلف
براسه وبعض الطلاب يعبدو عباده.

- يابه إذا چانو يفتهمون شنو يگول.. لعد ينجرلهم إذن،
وحقهم من يحبونه. بس سمعته يحجي بالقيمة.. تراه يمكن خطيه
ديفكر ومشتهي مرگة قيمة.. والله لخاطر هذا الرجال راح
أوصي أم داوود تسوي جدر قيمه، أو باچر اجيبله سفرطاس
كامل.. ثواب لروح الموتى.

كان ماركس يفكر في حلمه الذي تحدث فيه مع رفيقه إنجلز،
بتفاصيل كان يود الإفصاح عنها. كان يحتفظ بها داخله، وها
هو قد تحدث بها في حلمه الجميل، استرسل فيها، وكأنه يتحدث
عن حقائق ووقائع، كان بحاجة لتدوينها، جميعها يتعلق بطبيعة
هذا المجتمع. تمنى لو لم يستيقظ من النوم، ولم يأتي هؤلاء
لإيقاظه، فأحلام الرعب والكوابيس كانت الوحيدة التي تعبت
بلياليه على مر الأيام الماضية، ولكن اليوم اختلفت وكان رفيقه
بجانبه مثل ماضي الأيام.

- عيوني قادر دگوم غسل وجهك.. راح يجي أبو عفيفة حتى
تتريك وتشرب چاي وترتاح.

- هم أجوك جماعة أبو تركي بالليل؟

- نعم أتوا منتصف الليل وكانوا مؤدبين جداً.
- خوب ما آذوك لو فتشوك؟
- كلا كانوا مسالمين.
- إي مو أبو عفيفة دهن زردومهم.
- دهن زردومهم.. ماذا تعني كلمة دهن زردومهم؟
- دهن زردومهم مو زردومهم.. يعني إنطاهم المقسوم.
- وما معنى المقسوم؟
- يعني الخاوه الشهرية.
- وماذا تعني الخاوه الشهرية؟
- لك عاد مو من صبحية الله، تفرغ خبالاتك براسنا.. هسه إحنه خاشين يوميه بحزوره وطالعين من حزوره وإنته اليوم جاي تسأل وإحنه نجاب وما تفتهم.
- إي أبو داود.. تتذكر ذيج الأيام السوده من طلعو علينا البعثية إبلتيقه.. أنت تسأل والحزب يجيب.. هسه أستاذ عبد القادر يريد يسويها ويانه.. عيوني أستاذ قادر دگوم غسل وجهك وأشرب ماي وأتهده بالرحمن ولكل سؤال جواب إن شاء الله.
- إن شاء الله أغاتي.
- قالها ماركس، ورفع عجيزته بتثاقل، وذهب إلى داخل المقهى، ليقف عند حنفية الماء للاغتسال. وقف أمام المرأة

المغبرة الموضوعة أعلى الحنفية، وراح يطالع وجهه الشاحب المتعب وعينه الكسيرتين. ها هي لحيته قد نمت وارتفع شعر رأسه بعض الشيء، ربما لا يحتاج سوى أسابيع أخرى، لتختلف صورته كلياً عن وضعها السابق، بعد الحلاقة القسرية القاسية التي ارتكبها المجرم أبو بشير ومرتزقته، وكذلك عما كانت عليه في السجن، ولكن ماذا سيكون عليه الوضع بعد هذا الزمن؟. مد يده وأراحها تحت صنوبر الماء، ثم رشق بقوة وجهه بقبضة ماء، وكأنه يريد أن يوقظ نفسه من غفوة أو غفلة، شعر في هذه اللحظة برغبة قوية في جعل انفعالاته تنفجر، رغب أن يصرخ بكل ما أوتي من قوة، يود لروحه أن تستجيب الآن برد فعل حاد لكسر لحظة المتاهة المرعبة التي يدور فيها عقله وجسده، يريد أن تصرخ ليخرج كل ذلك الغضب اليائس الحبيس، الذي يمزق صدره. يريد أن تعلن تمردها على الواقع المفرط المرارة الذي وقعت فيه. تفتت حال التخبط والاعتباطية، التي يجرجره نحوها القدر الهمجي الخبيث. أن تكسر عجزها وقصور تحليلها لما هي عليه، وتعاكس السؤال عن كيف ولماذا وضعت حالها في كومة مآزق، وبدأت وكأنها في ميزان المعالجات، جاهلة وفاقة للقدرة، وتفتقر لأي خبرة حياتية، ضعيفة الحيلة مدحورة القوى. عند تفكيره اليائس المتطير هذا، راح يرشق وجهه بالماء بقوة وعجالة وتكرار، مما جعل أبو داود وأبو رجب ينتبهان لما يفعله ويتبادلان نظرات الشفقة.

- شوفه خطيه.. شوف شنو ديسوي المسكين بنفسه.. مو بيده.. الله لا يوفقكم والله يجازيكم بالأسوأ منها، على هذي

العملة السويتوها بالرجال.

- إي والله خطيه مسكين.. والله آني أخاف فد يوم يسوي بنفسه فد شي. همزين ما تورطت وخليته ينام جوه بالغهوه.

- عمي أستاذ عبد القادر.. أستاذ عبد القادر.. حبيبي هدي نفسك، دنيه الصبح سمي بسم الرحمان، تره أبو عفيفة أجه بعربانته.. تعال تريگ..

قال أبو رجب ذلك وسحب ماركس من يده ليجلسه فوق التخت جوار عربة أبو عفيفة. الذي سأل بدوره ماركس عما جرى له ليلاً، فلم يجب ماركس بغير كلمة واحدة.

- جيد.

- خوب محد آذاك؟

- كلا. شكراً إلك.

- تشتهي لفة كباب عروگ لو تتريگ ويايه جبن؟ آني جايب ويايه لفتين جبن.. ملت روعي من العروگ.

- ليس لي شهية للأكل الآن.. شكراً لك سيدي.

- حتى لو نص صمونه تفتح بيها ريگك.

- كلا فقط أرغب بتناول الشاي.

بحركة وكأنه يدير بأصابعه في الهواء شيئاً ما، أوماً أبو عفيفة لأبو داوود ثم أشار نحو كارل ماركس، فهم أبو داوود الإشارة فجاء بقدر شاي وقدمه لكارل ماركس وجلس جواره.

مفتريات «ألف ياء» AlfYaa

- وحق الخوة هذا من راس القوري أستاذ قادر... بلجي على
گصتك الشغل اليوم يصير أحسن.

- شنو راس القوري؟

- راس القوري، يعني إنته أول واحد نقدمله الجاي، قبل ما
يطلع من القوري لغيرك.

أخذ ماركس يرتشف الشاي ويطالع حركة الناس في السوق،
وفضل عدم الإجابة على الأسئلة أو حتى مجارة حديث أبو
داود. كان يريد أن يعبر عن موقف ما أمام الأحداث، وأن لا
يظهر قلة حيلة، وعدم قدرة على التحكم بالوقائع. وكمحاوله
منه لسد الثغرات غير متوقعة، إن شارك بالحديث أو أجاب
على الأسئلة، فضل خيار الصمت في هذا الوقت، فهو إحياء
مناسب لحالة الجنون التي يظنون أنها تتلبسه. دعهم يفكرون
بما يشاءون فما عاد ذلك يؤذيه، وليمتنع عن الإجابات لبعض
الوقت، حتى لا تكون إجاباته مصيدة لكشف أسرارهم، وما عليه
بعد كل تلك المصائب غير التفكير بالخروج نحو فضاء الحرية
والوصول إلى بلده، بعيداً عن بلد العجائب هذا ومكمن القلق
والخطر، وليكن خروجاً عجولاً من هذه المتاهة. عليه أن يجد
الدفاع المشروع عن النفس، وهذا لن يكون موجوداً دون تغليب
المصلحة الذاتية. ولكن هل من الممكن تحقيق هذا، بوجود القلق
والخوف المتفجر أمامه كل لحظة؟ وهل تغليب المصلحة
الشخصية سوف يجلب له الأمان ويطمئنه؟

- عيوني أستاذ قادر دگوم بدل هدومك وره الوجاغ.. هذي
سترة وبنطلون وقميص بلكي تصير على گدك؟

- عاشت ايدك أبو عفيفة والله ابن أوادم، يصيبك ثواب أو
أجر بهذا المسكين.

- هذني باقيات عندي من چنت معلم.. أم عفيفة ضامتهن
بالكنتور.. أتگول هاي الهدوم إذكرها بأول شوفه شافتني بيها،
من أجبنا نخطبها من أهلها.. وأني كل مره أكلها يمعوده تعوذي
بالرحمان أي مو صرنه شياب، والهدوم هاي راح ياكلها العث،
لكن هيه راكبه راسها ومترضه.. البارحة گلت يزي عاد،
وهاي الهدوم ترهم القادر أفندي وخلي يگدرها.

- بعد شترید أستاذ قادر.. إجاك قاط بالباكيت، وباچر اني
أجيبك فراش ومخده.. تدل.

ذهب ماركس خلف الستارة حيث مخزن قناني الغاز
المجاور لدكة قوارير الشاي. خلع ملابسه القديمة المتسخة
وارتدى الملابس التي أهداها له أبو عفيفة، ومسح بقميصه
القديم فردتي حذائه الموحلتين، وخرج، فارتفع صراخ وتهليل
من أبو رجب ومعه أبو داوود مرددين.

- الله ومصلي على محمد وآل بيت محمد.. عريس وربعه
يزفونه.. عريس وربعه يزفونه.

لم تبدر من ماركس كلمة، ولكنه ابتسم ابتسامة شاحبة لم
يرغب أن يلاحظها الغير، وخرج ليجلس في مكانه المعتاد
قرب عربة الطعام.

- يابه كون على ثقة حسابالك الهدوم أمفصله عليك تفصال،
علخير عيوني أستاذ قادر.

- أشكرك أبو عفيفة.. ممنون أغاتي.
- إي هسه لو مكمّلها وجاييله بينباغ، چان رجع مثل گبل على عهد الكلية، من چان يوكف بالصف هييه.
- أستاذ قادر تلبس رباط ويه القاط؟
- لا أحبذ لبس ربطة العنق.
- دعوفو للرجال.. هسه بعدك متشتهي تاكول أستاذ قادر..؟
- قطعاً.. لا أرغب الطعام الآن.
- براحتك.. من تجوع گلي.

الاختطاف مرة أخرى

بعد أن ملّ الجلوس والنوم في المقهى لثلاثة أيام، يُزق فيها الشاي من يد أبو داوود ويُطعم من طعام أبو عفيفة، مثل فرخ طير كسير، ويستمتع لهذر جلاس المقهى وروايات أبو رجب عن أستاذ عبد القادر. فكر ماركس بالخروج والمجازفة بالابتعاد عن هذه الاجواء واكتشاف عوالم ما يحيط بالمقهى، لذا قرر القيام بجولة بين أزقة السوق. توقف بفضول عند جميع المحلات القريبة، وتمعن في البضائع التي تعرضها العربات الجواله والأكشاك الثابتة. وصل نهاية الزقاق ثم عاد أدراجه. شعر برهبة المكان، فالضجيج والزحام وتنوع البضائع، ووجوه الناس الشاحبة المتعبة اللاهثة، لا تدع للمرء قدرة على التركيز والثبات حول فكرة أو منظر واحد، كل ذلك الضجيج والتنوع والفوضى كان مبعثاً للتشويش والربكة. عاد بعجالة ليجلس جوار أبو عفيفة، ولكن لبضع دقائق ثم نهض فجأة، واتجه صوب وسط السوق. كان أبو عفيفة يطالعه وابتسامة عطف ترتسم على شفتيه، وراح إثر إبتعاد ماركس يهز يده استخفافاً.

توغل ماركس بعيداً في زقاق جديد ثم آخر، بعد ذلك فاجأته عطفة ثم استدارة أجبرته العودة ثانية لذات الزقاق، وأخيراً قادته قدماه للخروج من فتحة للسوق، أوصلته إلى شارع إسفلتي عريض بممرين للسيارات، ونفق تزدهم فيه العربات بشكل غير عادي. توقف لينظر ما حوله، ويراقب حركة سير

الناس والعجلات. كان الزحام على أشده، وهدير السيارات يختلط بأصوات الباعة. على يساره يمتد جدار إسمنتي عالٍ يحجب واجهات الدكاكين والبضائع عن الشارع الإسفلتي. سار محاذراً الارتطام بأجساد المارة في الممر الضيق المزدهم، جراء كثرة البضائع المعروضة في واجهات المحلات وعلى جانبي الممر، فلم يترك للبشر سوى فسحة ضيقة يتعذر السير بسهولة خلالها. لم يشاهد في حياته مثل هكذا زحام مربك، غير مرة سابقة كانت في أحد أسواق الجزائر. وحتى ذلك الذي شاهده في الجزائر العاصمة، لم يكن بمثل هذا الحال من الفوضى والإرباك.

نعم، يتحالف أصحاب المصالح الكبرى لخلق مثل هذه الفوضى العارمة لتمرير بضائعهم وتحقيق مآربهم، والعمل على إشاعة الأساليب الملتوية، ليعيشوا وجهاء على حساب هذه النسب العالية من الباعة البسطاء المسحوقين. الجميع هنا يتدبر أمره كيفما يستطيع، فهم يجدون أنفسهم متروكين يواجهون مصيرهم لوحدهم، على الأقل هكذا يوحي منظرهم. أغلب هؤلاء من صغار السن، يعملون دون ضمانات للحاضر أو المستقبل، وتراهم يتنافسون في يومهم من أجل لقمة العيش، بصراع ظاهر ومستتر، فلقمة العيش تفرض مثل هذا الاقتتال. وهناك في الخفاء تمتد أيادي المافيات العابثة، ويكون العالم بالنسبة لها، مجرد شيء يتلاعب به ويدار بالقسر والقوة. هكذا فكر ماركس بعد أن شعر بعدم قدرته على احتمال هذه العشوائية والوضع المربك، فمن الجائز أن يفقد في نهاية جولته طريق العودة، فقرر الرجوع من حيث أتى.

عرج ماركس عائداً ليدخل الزقاق القريب، متوجهاً نحو مقهى أبو داود. عند استدارة قصيرة أجتازها بصعوبة، دخل في زقاق، شعر فجأة وهو يقف وسطه، إنه أضاع الطريق، فراح يتلفت حوله محاولاً التعرف على دالات، ممكن أن ترشده إلى الطريق الصحيح. فكلما توغل في الأزقة المتشابهة والمتشابكة كان يضيع عليه المكان، فشعر وكأنه داخل لعبة متاهة الممرات المغلقة. بدأ التوتر يسيطر عليه، وأصبح في حالة نفسية معبأة بالهواجس غير المريحة، فهو لا يريد ولو لفترة قريبة، أن يفقد المكان الذي التجأ إليه، كذلك لا يود في هذا الوقت، الابتعاد عن صحبة أبو داود وأبو رجب وتصوراتهم الطيبة عن أستاذ عبد القادر، الذي حل بديلاً عنه، وأيضاً أبو عفيفة وسخاءه وطيبته.

باتت المقهى تعني لماركس الكثير، فهي ليس فقط مكاناً للمبيت، وإنما يجد فيها الحماية ضد التهديد والعنف، حتى وإن كانت تلك الحماية مؤقتة، وجاءت عبر وساطة أبو عفيفة. يدرك الآن أن ما حدث لهذا المجتمع كان كبيراً وقاسياً جداً، لذا فالعدوانية ظاهرة طبيعية عند البشر، وبالذات الذين مورست عليهم ضغوطات كبيرة وواجهوا عدوانية سلطة بشعة ومجرمة، مثلما يتحدثون عنها، لذا فهم يفرغون ردود أفعالهم، بممارسة العنف ضد الأضعف من بينهم، وهو اليوم وفي مثل هذه الظروف يبدو الأضعف في هذه المعادلة. فهو شخص تائه وحيد دون أوراق ثبوتية، وأجنبي بين أناس لا يفقهون ما يريده، وبالعادة يتوجسون من الغريب خيفة، وها هو الآن يمارس طقوس الخداع والتمويه ليحصل فقط على الطمأنينة

ليس إلا.

أين مقهى أبو داوود في هذه الفوضى والتخبط؟ ليست بأزقة واسعة ولاحتى كثيرة، ولكنه أضاع فيها طريقه، بسبب عشوائية المحلات والأكشاك والعربات. تجرأ وسأل صبي يقف عند عربة لبيع أقراص الأفلام المدمجة.

- هل تعرف أين تقع مقهى أبو داوود؟

- ليش عمي شتريد منه؟

- لا أريد شيئاً فهو صديقي، وأود الوصول إلى مكانه.

- أبو داوود عده صديق أجنبي!

- ماذا تعني أجنبي؟

- أنت مو أجنبي لو من الجماعة؟

- وكيف عرفت أنني أجنبي؟

- مبين من حچيك... ما عدنه واحد يحچي بهلشكل إذا مو

اجنبي، لو شو شنو!

- جيد وأين تقع مقهى أبو داوود؟.

- شمدريني... أني ما أعرف روح أسأل غيري.

استدار ماركس، وعاد أدراجه من حيث أتى، في محاولة لاستبيان واكتشاف صورة جديدة للمكان الذي قدم منه، عسى أن يجد دلالة ترشده نحو المقهى. وقف عند رأس الشارع، وراح يتأمل المحيط وما حوله، شاهد الصبي صاحب العربة،

يلوح له من بعيد وكأنه يستدعيه. ربما وجد ما يسعفني بها، هكذا فكر ماركس وهو يتحرك باتجاه الصبي. وقف أمامه مبتسماً وكان الصبي يهرش رأسه بعجالة، ويتلفت يمينا ويساراً دون أن ينظر لماركس، أو حتى ينطق بكلمة. وقف ثلاثة شبان جوار ماركس وأخذوا ينظرون له بحدة ظاهرة، ثم قال أحدهم موجهاً كلامه لماركس.

- أخونا تفضل ويانه.

- إلى أين؟

- إنته مو دور على كهوة أبو داوود؟

- نعم أبحث عن تلك المقهى.

- لعد تعال إحنه نوديك لهنالك.

لم يخنه حدسه، فهو الآن تحت رحمة هؤلاء، وهو مثلما فكر، بات الحلقة الأضعف، فالشباب الثلاثة يطوقونه ويوجهون سيره، ليدخلوا معه في زقاق مغلق النهاية، لم يحاول المقاومة أو الممانعة، فقط سألهم عن السبب في إجباره للسير معهم، فأجابه أحدهم بأن واجبهم يحتم عليهم مراقبة جميع من يدخل هذا السوق، ولن ندعك تتأخر فقط دقائق معدودات، بعدها نرشدك إلى مقهى أبو داوود. لم يفكر في طلب المساعدة رغم زحمة الناس أو محاولة الهروب. فإن صرخ طالبا النجدة، ربما ذلك سيدفع هؤلاء الشباب لقتله مباشرة، وبدم بارد ووسط السوق دون خشية من حشود المارة، فالشرر كان يتطاير من عيونهم وهم يحادثونه ويحثونه على السير أمامهم. دخلوا زقاقا

ضيقة دون مخرج، دفع أحدهم باباً خشبياً ثقيلاً، فأصبح الجميع وسط باحة مكشوفة تحيط بها غرف عديدة، يبدو وكأنها مخازن لبضائع متنوعة ومتعددة. دفعوا به نحو زاوية خلف كومة أخشاب كبيرة وماكينة لتشطيب الخشب.

أجلسوه فوق كرسي خشبي يبدو جديد الصنع، بعدها انهالت عليه الأسئلة.

- من وين تعرف أبو داوود؟

- صديقي وأنا أبيت عنده ليلاً.

- عجيب.. وشوكت تعرفت عليه؟

- ليس من وقت بعيد؟

التفت أحدهم وأمال رأسه على صاحبه، وكأنه يهمس له بكلام سري ولكن ماركس كان يسمعهما بشكل واضح.

- أگلك خاف هذا يطلع بالأمن؟ أشو حتى حچيه مو بشكلنا.

- ما أعتقد.. أبو داوود صاحبه، وچان گالنه عليه.. خوب أبو داوود ما يلعب بذيله ويسوي علاقة بدون ما نعرف.. أبو داوود هو عيوننا بالمنطقة، وإذا هذي العيون أتغشنا نقلعها.

- إي بلي نقلعها.

- إنته شنو أسمك؟

تردد ماركس قبل أن يجيب على السؤال، ما الذي عليه قوله، الموقف لا يحتمل تغير في الأدوار، أو القفز فوق لحظة يتقرر فيها مصير الإنسان دون اتخاذ قرار صائب، عليه الآن

ودون تردد الاختيار بين الهوية الأصلية أو البديلة. ليرمي كلمته وما يحدث بعدها فليحدث، فما عاد يهتم للقادم، فليس ما يحدث من حوله فقط مفارقات، بقدر ما هي نكبات ونكد أيضاً، وقدر تعس يهرول وراءه أين ما أراد الذهاب. وها هو يقع مرة أخرى بيد عصابة جديدة، ربما لن يفلت منها هذه المرة، وقطعاً لن يخرج سالماً.

- عبد القادر؟

- وين بيتكم بيا منطقة؟

- لا أعرف.

- شكد صارلك تعرف أبو داود.

- لا أتذكر.

- شوف أبو صبري.. هذا مو خالي.. هذا لو بالأمن ودازي يشمشم بالسوگ..لو دازي جماعة ابو المحجل بالبتاويين، لو شوف شنو عنده من لعبه جبيره تخوف؟

- يابه والله المعبود وروحه الخالي، وداعة ابني صبري.. إذا هذا طلع بالأمن و يلعب بذيله، وعنده علاقة بأبو داود.. راح أخلي لششم ثنيناتهم معلغة اباب الگهوة..وأسويهم علج بخلوگ الناس.. حجي...حچينا أبو سبتي رحمه الوالديك ما تجي يمي.. تعال هنا..

كان أبو سبتي جالساً أمام أحد أبواب الغرف يعبئ ألعاب أطفال بأكياس نايلون، بعد أن يخرجها من صندوق خشبي كبير. كان شيخاً في السبعينات من عمره. وبعد أن سمع نداء أبو

صبري عليه، رفع جسده الناحل بتثاقل وتقدم منحني الظهر ليقف جوار ماركس.

- ها عمي أبو صبري گول آمر.

- تروح على گهوة أبو داوود، وتگله عمي أبو صبري يريديك، يجينا بسرعة وبدون عذر.. گله شغلت عشر دقائق ويرجع.

- صار عمي.

قالها ابو سبتي وذهب مترنحاً خارج الدار.

- زين طلع هويتك أحسن ما أنطلعه أبدالك.

- لا توجد لدي هوية أو أوراق إثبات.

- هاي شنو يابه.. فتشو خل نوگع على ما يه.

نهض ماركس عن الكرسي وتقدم اثنان وراحا يفتشان ملابس ماركس، لم يجدا شيئاً. فصرخ أحدهما بوجه ماركس..

- لك إنته شنو ومنو ومن وين؟ هذا كلشي ما عده لا فلوس لا هويات.. يبين جاي ومضبط شغله حتى محد يكشفه لو نلزم.

- لك إنته من يامديرية أمن دازيك؟

- ماذا تعني مديرية أمن؟

- شوف وچماله دهري ويسوي نفسه غشيم، تره شغلة عشر دقائق مو أكثر وتنكشف أوراقك.

- خالي أبو صبري بروح الوالده، عود خليني أنه أحط

رغبته بالمنشار وبعدين أشلخه شلختين.

- لا حبيبي قاسم مثل ما گلت راح أني بنفسي أعلگه براس
السوك يم الگهوه.

تلك اللحظة إنفرج باب البيت ليدخل أبو تركي الأعضب
وخلفه رجل طويل القامة ممتلئ الجسد يرتدي العباءة والعقال.
كانا يتحادثان دون أن يلتفتا لما يحدث داخل البيت، واقتربا من
فتحة السلم المفضي إلى السطح، عندها التفت أبو تركي نحو
تلك الزاوية من الدار فشاهد ماركس جالسا على الكرسي تحيط
به مجموعة رجال أبو صبري.

- هاي شنو هذا شجابه هنا؟

- عمي أبو تركي هذا جاي للسوگ ويسأل على گهوه أبو
داوود ويگول هوه صديقه.

عندها ضحك أبو تركي الأعضب قائلاً.

- هاي أنتو شلون صيده صايدين اليوم.. هذا خطية.

- شنو تقصد عمي أبو تركي؟

- صحيح، هذا عرف لأبو داوود... إنته أستاذ قادر مو؟

- نعم أنا أستاذ عبد القادر.

- يابه شباب هذا عرف راجع لأبو عفيفة وأبو داوود، وهمه
وصوني عليه، لحد يجيسه، أخذنه محصوله من أبو عفيفة.

- لعد أحنه تصورناه بالأمن وأبو داوود عنده علاقة وياه.

- يمعود يا أمن، تره أبو داوود وأبو عفيفة جماعته ومن
عدنه وبينه ما يخونون.. وياما وكفولنه وكفات جبیره.. وهو
هذا الرجال بيا حال، ما تشوفونه بيا حال.. هذا چان أستاذ مال
جامعة وانسجن وصار بي ألي صار..خويطات..دعوفو

- أها لعد من هيچ كلشي ما عنده موشل هينوب..

بعد أن صعد أبو تركي الأعضب السلم ودخل إحدى الغرف
في الطابق الأعلى وقبل أن يغلق الباب خلفه قال.

- إذا تكدرن أنتم ودو للرجال لكهوه أبو داوود. هذا هو بيا
حال وأنتم حاصرینه بهالشكل؟

راحت عيون ماركس تنتقل بين الوجوه، لقد تعرف على
هؤلاء اللصوص وقدم نفسه لهم دون ماض أو هوية. شخصيته
الجديدة دخلت عرينهم ولم يجد بداً من خداعهم رغم اضطرابه،
ولكنه هذه المرة يشعر أنه كسب الجولة بسهولة، ضربة حظ
كانت، فلو أن هؤلاء عصابة لا علاقة لها بابي تركي الأعضب
وأيضاً بابي داوود، لكان الآن في حال لا يحمل معه غير
مشاعر استعجال الموت وليس غيره. ولكن رغم انقشاع حالة
الشك عند هؤلاء، فالخوف والأحاساس بعدم الاطمئنان كان
راسخاً في فكر ماركس، فهو على يقين من أن أفكار جميع
رجال العصابات سريعة العطب، ومن السهولة قلبها في أية
لحظة يشاؤون. فكرة سيئة منحهم الثقة، فعالمهم المشحون
بالصراعات والمؤامرات والخدع والجريمة، يجعل منهم في
حالة إرباك وارتباك دائم، وهم غير راضين عن وقائع يومهم،
لا بل واقع حياتهم بمجمله، ويكاد المرء يلمس ذلك في عيونهم

القلقة وأمزجتهم المتقلبة، وحديثهم الخشن القاسي. فكيف يطمئن المرء حاله بعد حين. احتمل ماركس نظراتهم الشرسة وهي تنسقطه بالكامل، وفي نفس الوقت كان يفكر بالخطوات القادمة التي سيتخذها معه أبو صبري، فربما ينقلب فجأة كل شيء ويبدأ الجميع ممارسة العنف معه، باستهتار وشيطنة بحجة مداعبة أو الهزأ من مجنون. فالمجنون في هذا البلد دائماً ما يكون ملاحقاً من الناس، ومصدراً للسخرية والطعن ويهمل ويعزل ويضرب ويطرد دون رحمة.

لم يسمح ماركس لتفكيره الابتعاد كثيراً عن حيز المكان، أو الذهاب شططاً نحو فكرة تبعده عن الذي هو فيه. كان تفكيره محصوراً في باحة هذه الدار الخربة، ولكنه أيضاً يتذكر كيف كان مصير حبه معلقاً عند شفتي والد بيرتا الجميلة، كان يطلب منه أن ينطق كلمة القبول بزواجهما، وتلك كانت أصعب اللحظات التي ترقبها بصبر لا حدود له وانتهت بخيبة أمل مع كلمة كلا. فهل ينتظر الآن قراراً مجنوناً من أبو صبري في حالة عدم حضور أبو داود. ولكن ما علاقة هذا بذاك، كيف سمح لنفسه أن يجمع بين هاتين الحكايتين، هل بدأ ذهنه يتشتت وينحرف نحو مسالك لا جامع بينها. كل تلك الحوادث التي توالى عليه قربته من عالم الهلوسات، أم يا ترى فعلاً تلبسته روح أستاذ عبد القادر، وبدأ ذهنه بالهذيان. شعر بتعب شديد يدب في أوصاله فأرخى جسده على الكرسي ووضع رأسه بين يديه.

تلك اللحظة فتح الباب ودخل الرجل العجوز أبو سبتي وخلفه

أبو داود الكهوجي الذي توسط باحة الدار ونظر في زوايا البيت وحين وقع نظره على كارل ماركس هز رأسه وقال.

- يمعود خاطر الله متكلي وين وليت.. العفو يابه السلام عليكم.. شلونك عمي أبو صبري.

- هله أبو داود.. الشباب لگو تايه بالسوگ.

- خطيه أبو رجب صار تلت ساعات ما خله مكان بالسوگ ما دور بيه على هذا البلية.. مسكين.

- بالريش همزين الله ستره.

ضحك ماركس ضحكة مفتعلة وقال بصوت عال.

- شنو يعني بالريش؟

- هسه محلها أستاذ قادر د گوم يمعود.. تعال نروح، الرجال أبو رجب خبص الدنيا عليك بس عوزه يبجي حسبالك مضيع ابنه.

قال أبو صبري ضاحكاً:

- هاي غير حنيه على هذا الطباقات!

- مو هو يعرفه من چان أستاذ بالجامعة. يلا بينه أستاذ قادر.

- إن شاء الله.. الله يحفظكم أغاتي، ممنونين عيوني.

قالها ماركس مبتسماً فراح الجميع ضاحكاً ومردداً.. الله وياك أستاذ قادر.

خبر حرية دولة مدنية

بعد أن خلت أزقة السوق من البشر، وأغلقت المحلات أبوابها، ومثلما في باقي الليالي حاول ماركس النوم ولكن هيهات، فالنعاس لا يأتيه قبل الضياء الأول للفجر، وبعد صراع طويل مع الأفكار، حلوها رغم قلتها، ومرها الذي يسيطر على أغلب ما يدور بخلده. يحضره الآن فولتير⁽¹⁾ الذي أُعجب بالكثير من أفكاره حول الحقوق المدنية وحرية العقيدة، ودفاعه عن يتعرضون للاضطهاد دون وجه حق، وانتقاده الحكم الارستقراطي، والتوزيع غير العادل للثروة، ونظرته النقدية حول فرض الضرائب المجحفة، والعقوبات على أبناء العامة من قبل رجال الحكم ورجال الدين والنبلاء، أيضاً فكرته عن الكون القائم على العقل واحترام الطبيعة. ولكن في دراسته لتأريخ الشعوب التي أسهمت في بناء الحضارات الكونية، فإن فولتير خلص إلى فكرة عدم الثقة بالديمقراطية، كونها تروج لحماقات العامة والدهماء، وكان ينادي بحاكم مستنير منفرد بالحكم، ولكنه يستمع لنصائح مستشارين أذكياء. وهذا الحاكم

⁽¹⁾ فولتير؛ كاتب وفيلسوف فرنسي عاش في عصر التنوير. عُرف بنقده الساخر، وذاع صيته بسبب سخريته الفلسفية الظريفة ودفاعه عن الحريات المدنية خاصة حرية العقيدة، والمساواة وكرامة الإنسان.

يمكنه دفع القوة والثروة التي يتمتع بها رعاياه، في الاتجاه الأفضل.

فولتير يفكر بالاستبداد المستنير كمفتاح للتقدم والتغيير. كفيلسوف نابغة كان يثير مثل هذه الأفكار، وهو يشاهد الفوضى العارمة التي تعم فرنسا والعالم وما يواجهه الناس من مصاعب ومتاعب.

لن يكون مثل هذا الأمر سليماً في الكثير من الدول. هكذا فكر ماركس، فهو بالذات ينشد حكم الطبقة العاملة وبناء الاشتراكية لتحقيق دولة العدالة الاجتماعية، دولة يكون الإنسان فيها أئمن رأس مال، ويجزم أن فيها خلاص البشرية. ولكن ما العمل مع بلد مثل العراق يخلو من تصنيف وانشطار طبقي ظاهر. فالبرجوازية الوطنية طعنت من السلطة فأفرغت ساحتها لصالح تجار الفساد وصناع الجريمة، الذين يمارسون الأدوار المنحطة في مسيرة الاقتصاد والاجتماع، وهم من ولد كل هذه التناقضات والفوضى والأزمات الاقتصادية والاجتماعية، دون ان يلعبوا دوراً ريادياً في بناء وطنهم. أما الطبقة العاملة فتبدو في حالة أكثر غرابة وتغريب من البرجوازية، فهي تظهر وكأنها منزوعة طبقياً، أي لا يمكن، وفي اغلب الأوضاع، توصيفها وتصنيفها طبقياً. فليس من الجائز إدراج كل من يعمل باجر أو من يؤدي عملاً نافعاً ضمن جوقة العمال. وباستجلاء الموقف، فإن أعداد من يدخلون في علاقات الإنتاج الرأسمالية، وهم جميع من يبيع قوة عمله وينتج عنها فائض القيمة، حتى يمكن تسميته بالعامل، ولكن في هذا

البلد لا يوجد ما يشير لوجود مؤشر حقيقي لهذه القوة العاملة، ولذا يضمحل الوعي الطبقي الذي يفعله ويعمل الفرد وأيضاً الطبقة بمنظوره ومن خلاله. والطامة الكبرى أن هلامية الطبقة العاملة جعلت المرء يتعذر عليه وسمها حتى بطبقة لذاتها، فكيف والمطلوب في الصراع الطبقي والدور التاريخي أن تكون طبقة بذاتها؟

ولكن يمكن أن تكون نظرية فولتير في الحكم صالحة للعراق بشكل خاص؟. فما شاهده من انفلات وفوضى عارمة، تتعزز على ما سمي الديمقراطية والحريات المنفلته، التي جلبها الأمريكان للإفساد وليس للإصلاح، فراحت الناس تتصرف فيها بغباء وعشوائية مقبلة، بل مهلكة في الكثير من المواقف. ربما من المقنع أن هذه الأفواج من البشر الضائعة تحتاج إلى سلطة ذكية حكيمة واعية لمهامها، وذات برنامج سياسي اجتماعي إقتصادي، يحيي البلد وينقذه من الذهاب نحو الفشل والسقوط المريع. وعليها قبل أي شيء آخر منع العامة والدهماء من فرض خياراتهم على الناس، وأن يكون الحاكم شديد المراس قوياً، يعرف كيف يوجه رعاياه نحو الفضائل والتغيير والحدثة، ويقف بحزم لمنع التصرفات الطائشة وعصابات الجريمة والحريات السائبة، ولكن من أين وكيف يأتي هذا الحاكم وقد تقاسم الدهماء السلطة وقبضوا عليها بيد من حديد؟.

- إگعد يمعود، إگعد اليوم جمعة والصلاة على رسول الله محمد.

- لست نائماً فقط أغمضت عيني لفترة وجيزة، كم الساعة الآن؟

- هاي هم حلوة.. تسأل على الساعة.. شنو تريد تروح للدوام؟!

- كلا، فقط أردت معرفة الوقت.

- نعم أخويه أستاذ قادر، تراه آني يوم الجمعة أفتح من وگت، لأن يوم الجمعة يوم مو عادي، أولا هو يوم الله والگهوه تنترس بالزباين.

- ماذا تعني بالزباين؟

- هاي آني شلون وياك.. صدگ چذب إنته فد مرة كلشي ناسي، هب بياض.

- كلمة جديدة لم اسمع بها سابقاً.

- هم ميخالف عمي، الله لا يوفق ألي سوه بيبك هاي السالفة.. زباين يعني جمع زبانه.. يعني گطوفه مال جگاير... لو جمع زبون يعني هدم مال الزلم.

قال ذلك أبو داوود وأخذ جسده الضامر النحيل يهتز جراء محاولته كتم ضحكته.

- ربي ضحكة خير بهذا الصباح بس لا ينگلب علينا شر؟

- ما الذي دهاك في هذا الصباح أبو داوود، تتكلم بالالغاز؟

- عيوني أستاذ قادر حببت أتلاطف وياك بهذا الصباح.. اليوم جمعة عطلة، والناس أتغش وتجي من وكت تتسوگ حاجاتها

من هنا، والبعض عنده حاجه زايد بالبيت هم يجي اليوم يبيعه،
ويحصل بيه چم فلس لعياله.. واليوم تبدي رحمة الله بعد
الظهر، تلتم ناس هواية من جماعة خبز حرية دولة مدنية،
وبعضهم يجي يمينه بالغهوه ياكلون ويشربون.. اشو دگوم
ساعدني.. حرك نفسك!

رفع ماركس جسده فأحس بالتعب، فالسهر كان يثقل رأسه
وجسده، ولكنه قاوم ذلك واستدار ليمسك التخت الخشبي من
طرفه الآخر وليساعد أبو داوود على نقله جوار مثيله أمام
المقهى، ولكن جملة دولة مدنية أدارت رأسه، وأيقظت عنده
هواجس الفضول الشديد.

- أبو داوود الله يحفظكم وشلونكم عيوني.. ما الذي تعنيه
بجماعة خبز حرية دولة مدنية؟
- هسه ما راح أجابك... إنته خوب أندليت بيت الشايب أبو
سبتي.

- من هو أبو سبتي؟

- هذا شلون حجي؟ يمعود بيت أبو سبتي إلی جماعة أبو
صبري وأبو تركي الأعضب هذاك اليوم ودوك لهناك ودزو
أبو سبتي علي، وبعدين انتظروني لمن أجي وأخذك..

- نعم.. نعم أتذكره. أعرف مكانه، عند المنعطف الثاني من
الزقاق ما بعد زقاقنا هذا..

- يعني ما أتيه لو رحت هناك..؟

- كلا أعرف الطريق جيداً..

- عجيب ويگولون مځبل؟

همس أبو داود ذلك مع نفسه واستدار ليدخل المقهى.

- ماذا قلت؟

- هيڇي ما ڪو شي..

- لم تخبرني عن جماعة خبز حرية دولة مدنية؟

- دخذ هذي السلطة وروح ليم أبو سبتي أمليها مي وتعال..

اليوم جمعة وبالعادة الماي ينگطع بالنهار فتره طويله.. ليش متدري؟

- لماذا يقطع عنكم الماء؟

- أسباب هوايه يمكن يسووها قصطني على مود

المظاهرات، لو أكو هناك من يقبض من ولد الخوش، و يريد

يخربط شغلنه لو شغل الحكومة حتى يهيڇ الناس.. بالعراق

أتوقع كلشي يصير، وكلشي أله أسباب ومسببات، الشغل هذا ما

يجي من وحده.. كلشي مخربط ومتعرف راس الشليله من

جعبها.. مشروع الماي يگولون صار ست سنوات وما كملوه..

بالمليارات يگولون صرفنا عليه.. والبوگ صاير عدهم مثل

شربة الماي.. هسه إنته وين وديتنه دروح يم أبو سبتي جيب

من عنده ماي وتعال بسرعة.

- أعطيتها لأبو سبتي؟

- لا بويه إنته تمليها بنفسك وترجعها لهنأ.

رفع ماركس جردل الماء وسار متهادياً وسط الزقاق. كان

يريد أن يعرف الكثير عن هذا المجتمع، حتى الننف الصغيرة التي تتفاعل وتعمل وتتضاد لتخلق عاداته وتقاليده وحراكه وممارساته وأعرافه. تلك التي تختفي ثم تظهر فجأة بعفوية دون تخطيط أو توجيه، فهذا التخبط والعشوائية في مجريات ووقائع الحياة، هو النمط الشائع في المجتمع العراقي، وبمثله حين يراد التصدي للحياة ومشاغلها اليومية.

دائماً ما أراد أن يعيد للفكر النظري وظيفته النقدية وصلته بالواقع، ولذا فهو ينطلق من الواقع وليس غيره، أي البحث في ظاهر الواقعة، ثم يقوم بتفكيكها وكشف منطقتها الداخلي وتعارضها أو تناقضاتها المتلازمة، وميول تطورها وإلى أين مآلها. يوم الجمعة حسب ما عرف عنه، هو يوم عطلة دينية للمسلمين، حاله حال يوم السبت لليهود، والأحد للمسيحيين، وهذه الأيام في سماتها الأعم ظاهرة اجتماعية سياسية تاريخية، حيث يتحول هذا التقليد إلى مكنون لعلاقة دينية أو مذهبية، ومن ثم يأخذ طابعها الوجداني الحقيقي بالسير والتحول إلى علاقة سياسية، تتمحور في انحياز الدولة كلياً إلى دين الأكثرية، مما يجعل من باقي الطوائف والديانات غريبة في بلدها، حتى وإن اعترفت الدولة بوجودها وحقها في ممارسة طقوسها، ولكن طابع الدولة ومسامها الديني، يرفض مساواتها مع مكون الطائفة الأكبر. وهنا يتم بقوة التوظيف السياسي للخطاب الديني، ليكون في الأخير عنواناً للفرقة والحروب، ويفرض طابع الجشع والنفعية ومن ثم خيارات المفاضلة عند الترويج لذلك الخطاب، ويكون الوجه الأمثل والدين العملي للمجتمع المدني البرجوازي. ومع هذا فإن ما هو إنساني في

الدين قابل للتحقق في الدنيا، لو توجه الناس للفضيلة وأبعدوا عن الأقليات الدينية مشاعر الغربة عن المجتمع والدولة، وتم إقصاء المعاناة من التمييز والاضطهاد وهضم الحقوق بعيداً، وهذا لن يتحقق إلا في ظل سلطة البروليتاريا وعملها الدؤوب لبناء دولة العدالة الاجتماعية، وجعل الجميع متساوين في الحقوق والواجبات دون استثناء، ودون الرجوع لمقولات الدين وأعرافه.

كان أبو سبتي يجلس القرفصاء أمام باب الدار بثوبه الكالْح، يتلفع بغطاء رأس أبيض مرقط بمربعات سود، كان ساهماً يطالع السماء بعمق، ويداعب بيده سيجارة يبدو من شكلها أنها صناعة يدوية. بين لحظة وأخرى يرتشف منها نفساً طويلاً، ثم يخرج دخانها الكثيف من منخريه وفمه، ويروح يراقب بشغف كتلة الدخان البيضاء ويتعقبها ليطردها بنفخة من فمه، يلعب لعبته هذه بغبطة ظاهرة على وجهه الموشى بالاخاديد، فكلما سحب رشفة قوية يعقبه بزفير قوي، كان يراقب الدخان وهو يبتعد فيبتسم بفرح رضا ظاهر.

- السلام عليكم أبا سبتي.

لم يلتفت أبو سبتي نحو ماركس، وراح ينظر إلى أعلى هازاً رأسه بحركات خفيفة وكأنه يبحث عن شيء علق عند سطوح وجدران البنايات الشاخصة أمامه.

- أبا سبتي...السلام عليكم..

لثلاث مرات كرر ماركس ذلك دون أن يسمع جواباً. وفجأة

نطق أبو سبتي دون أن يلتفت نحو ماركس.

- ها شتريد جاي.. ما تخاف يبسطوك..

قال ذلك أبو سبتي وهو يسحب الكلمة الأخيرة عنوة، وكأنه يخرجها من منخريه

- أرسلني أبو داوود لجلب جردل ماء من عندكم..

- ولك إنته تبقه مخبّل؟ أي دحجي عدل مثل الأوامد.. گول بالصحيح شتريد... مو جاي من الصبح حتى تصطرني وتخربط عليه الجو.

- حجي رحمه الوالديكم... ألم تفهم ما أقوله؟

- سليمه وصخونه لكل المخابيل.. هو أبو داوود ما لكه غيرك؟ گول شتريد؟

- ماء لأبو داوود.

- فوت جوه وعلى إيدك اليمنه الحنفية.

من خلال حركة اليد فهم ماركس ما قاله أبو سبتي، فدخل البيت وذهب حيث حنفية المياه ليضع الجردل تحتها ويملؤه بالماء، ثم خرج ونظر إلى أبو سبتي وشكره. كان أبو سبتي غائم العينين يطالع السماء المغبرة، يرتشف من سيجارته بتلذذ وقوة ويمارس لعبته مع دخانها، كان يبدو وكأنه في عالم آخر، ساهياً عما يحيط به ولم يكن ليعنيه دخول وخروج ماركس أو حتى وجوده بالقرب منه.

- في أمان الله حجي أبو سبتي.

كرر ماركس ذلك لعدة مرات بعدها عاد أدراجه إلى مقهى
أبو داوود دون انتظار جواب أبو سبتي. وجد هناك أبو رجب
وكذلك أبو عفيفة وعربته يقفان قرب المقهى.

- هاي شنو أبو داوود شغلته لأستاذ قادر عندك؟

- أحسن ما گاعد بطل عطل.

- عاد تنطي شي لو بلوشي؟

- بسم الله الرحمن، هو ليش أسوه، قابل گام كسر السده..
الشغلة كلها سطل ماي جابه من يم أبو سبتي، وهو يوميه يطله
تلت اربع استكانات چاي بلوشي.. وبالشقه أبو عفيفة يگول
سجلهن على حسابي، وفوكاهه فندق بلاش..

بشيء من العصبية قال ابو داوود ذلك وهو يغسل الصحون
عند دكة قوارير الشاي.

- دنشاقه هاي أشبيك صاير بارود، وروحك زغيره تطفر
بالعجل. عمي أستاذ قادر أغسل أيدك وتعال أكعد يمي خل
نتريك، جبت صحن كاهي بالگيمر، والله على مودك رحمت من
الصبح يم القشلة حتى أجيبه.

- أشكرك إن شاء الله.. أبو رجب أغاتي.

ضحك الجميع وجلس ماركس وأبو رجب عند تخت داخل
المقهى يتناولان الفطور، وقد أخذت حركة الناس وبمرور
الوقت تزداد، ودبّ النشاط في محلات السوق، وامتأ الزقاق
بضجيج وصراخ الباعة. جلب أبو داوود قدحين من الشاي
ووضعهما أمامهما فوق المنضدة. في ذلك الوقت شعر ماركس

بأن ما يلح داخل رأسه من سؤال، ما زال طرياً وقد كبر بشكل لا يحتمل التأجيل، لذا عليه أن يسأل أبو داوود عن معنى جملته، خبز حرية دولة مدنية، قبل أن تزدحم المقهى بالرواد ويبدأ يوم العمل الثقيل المتعب، ولا يبقى لدى أبو داوود فسحة من الوقت لتفسير ما قاله.

- أغاتي إن شاء الله.. رحمه لوالديكم، حجبنا أبو داوود.. لم تخبرني عن قولك بأن هؤلاء جماعة خبز حرية دولة مدنية.

- شلك بدوخة الرأس؟

- بودي معرفة ذلك، الباب اليجيك منه ريح... لا أعرف مابعدھا؟

- هاي شلك بيھا.. شجاب هذا المثل بهذا الوگت؟

- سمعتهم يتحدثون به.

- إي خوب مو كلشي تسمعه تگوله.

- نعم، أوكي. فقط أريد أن أسمع عن هؤلاء.

- شوف أستاذ قادر هاي صار چم سنه، قبل وبعد المظاهرات يجون شباب حلوين يگعدون هنا بهاي الكهوه.. يسولفون ويرطنون أريد أفتهم منهم شي ما أگدر، أريد أوگع على مايهم.. كلشي ما كو.. شنو حريه حرية.. افتهماها بعد ما أجوي الأمريكان للعراق، وبعد ما أبو شعبنا انسلک بهذي الحرية ألي إجتته وإحنه بعدنه ما نعرف راسنا من رجلينا.. چان قبل هذا الوگت، واحد لاعب بالشعب طوبه وطنب، وإحنه طگت بلاعيمنا من العطش والجوع، ومن خوفنه چنه نشتم

برواحنه ونخاف نشتم بي، وهسه بهاذي الأيام حتى التلفزيون والإذاعة تصيح حرية حرية ديمقراطية.. بس والذي رفع السما دون عمد، هذي الأيام مثل كبل، إذا ما عدك حامي يحميك، لو ما عدك واسطة لو حزب لو عشيرة، ولو بس تفك حلگك وتگول هذوله الجماعة مو خوش، ثاني يوم شوف شيصير بيك.. لو تجيك إشاره لو ورقه تگول إنچب أحسلك.. وإحنه هسه گمنا نستعمل إنچب مثل الأول أحسن وأشرف إلنا.. هاي الحرية بالعراق من چنه ویه ابن صبحه، لحد ما أجو الأمريكان وجابو وياهم ولدنه الحبابین.. دخلینا، فك یاخه استاذ قادر الخاطر ربك، خلینه من هذي السوالف الفاینات، شراح تستفاد لو عرفت شنو حرية حرية دولة مدنية. إي مو هیه يمكن نفس السالفة السوت بيك ما سوت، وخلتك بهذا الوضع.

- على أية حال، ولو أني لم أفهم من قولك الكثير، ولكن ما الذي عنيته بدولة مدنية.

عندها صاح أبو عفيفة بصوت عال وهو يقوم بترتيب مواد مطعمه فوق سطح عربته، مكماً ما ابتدأه أبو داود.

- یابه یا دولة مدنية هاي أنته شبیک.. هذوله الشيوعیین خابصین الدنيا بیها.. هیه شلون واحد یگول.. کلمن بکیفه ومعلیه بالآخرین، والدين الإسلامی ما لازم الناس یصیر عدهم مهم ویجلبون بی، لو یحللهم مشاكلهم.. یعنی لتگلي ولا أگلك کفر بکفر. یردونه نصیر مثل الغرب الکافر.. بالمناسبة فد يوم من چانو الأمريکان یفترون براحتهم بشوارع بغداد، سألت جندي منهم طبعاً بالانکلیزی.. چان یصیح ویشتم علینه بدون

سبب.. كُتله إنته تؤمن بالسيد المسيح، چان يجاوبني.. گالي وهو هذا منو..أوين بيتهم.. هذولة الشيوعيه يردونه نصير مثل هذا الجندي.

- هاي شلك بيها أبو عفيفة تراه السالفة مو هيچ..شنو علاقة الكفر بمطاليب الجماهير، بعدين الشيوعيين شعليهم.. تراه المتظاهرين أكثرهم مو شيوعيه، والناس تظاهر من ضيمها ومذلتها.

- هيچ مو هيچ.. أبو رجب تراه هذوله ثخنوهه كل جمعة گاطعين أرزاق العالم.

- غير همه يردون مصلحة الشعب.

- هذا يا شعب... ليش هذا الشعب يا يوم عرف مصلحته، أشو كُتلنه الملك وسحلنه الوصي ونوري السعيد، وكُتلنه عبد الكريم أو ياه جماعته، وصار يوميه انقلاب عسكري، وأجو البعثيين مرتين وحكمو الناس بالنار والحديد، والشعب مجتف وخايف وما يعرف راسه من رجليه، بس يدردم وبدون نفع، وهسه أجو هذوله وأشتغل البوگ للضالين، وإحنه وغيرنا نصرخ ونعيط وننبطح على ظهرنه، والجماعة مطمئنين، لا وچماله ديضحكون على الناس.

- نعم وهذوله يتظاهرون حتى يوعون الناس ويدلوهم على باب رزقهم، ويكشفون هذوله الحچيت عنهم.

- أهو هاي هيه ما كو غيرهم يدلي الناس على رزقه.. إي مو الناس ما عدها خبز وذوله يردون يجيبون الخبز.. المثل

يَـكُولُ لَو الرزق على كَد العقول چَان البهايم ماتت من الجوع.
الله ورسله وكتبه موجودين وكلشي ماشي بالعدل، والناس عال
العال، وربك يَـكُول، رزقكم في السماء وما توعدون، وخلص.

- وهذوله أصحاب عقل وضمير وإخلاص للوطن.

- خوش خوش.. البارحة سمعتها من إذاعة موزمبيق باللغة
الصينية.. خوب إنته اليوم ما نسيت العلم مالتك، همين راح
ترفعه وتقره نشيد الجمعة المباركة.. بسم الدين باگونه
الحرامية؟

قال ذلك أبو عفيفة هازناً وطلب من أبو داود أن يجلب له
قدح شاي تخين فجاء له بما طلبه.

في الوقت ذاته كان أبو داود يتكلم بصوت مرتفع، وكأنه
يوجه حديثه لجميع من كان جالساً في المقهى.

- هاي الشغلة أمدوختني ومدا أفتهم منها شنو وlish وشلون.
بس الخال أبو رجب كل جمعة يروح للمظاهرات، ويشيل علم
العراق وهمين يصرخ وياهم خبز حرية حرية دولة مدنية...
وهسه بعد ما سمط الريوك المعدل، ودهن زردومه بالكيمر،
راح يَـكُدر يشرحلنا شنو وlish وعليمن.. خوش أستاذ قادر
أسمع زين بلجي تحصل بيها على ثواب ويصيبك أجر.

- خوش ورحمه الوالديكم، أغاتي ممنون.

قالها ماركس ضاحكاً.

- يله أبو رجب أسطره لحجي عبد القادر.. هذا فد واحد لجه
يريد يعرف كلشي.

- عمي أستاذ قادر.. ولو آني أعتدي عليك، لأن إنته أستاذ بهذا الشي، وماچان واحد يلحكك بهاي الشغلات، بس شتسوي الوكت خربط كلشي، وصار الأستاذ يتعلم من الطالب.. شوف أستاذ قادر هذوله يطلعون يتظاهرون يردون إصلاح الحكم، لأن الأحزاب الحاكمة مصخوها، وبعد الناس ما بقت تتحمل، الشباب عطاله بطاله، والأحزاب إلي تحكم البلد بعضها يريد الدولة تصير دولة دينية، والمتظاهرين يصيحون ما نريد غير دولة مدنية.

- نعم.. وما الذي يعنونه بالدولة المدنية؟

- والله حسب ما عاشرتهم چم جمعة، وخشيت بنقاش ویه چم واحد منهم، لمن يجون مرات يگعدون هنا بگهوتنا، الشباب قنعوني بحچيهم وصدگت بيهم.. همه يقصدون بالدولة المدنية، أنو الحكومة المدنية تضمن المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد الشعب، وهیه تطبق القانون مو غيرها، وتمنع يكون السلاح بيد غيرها.. ويگولون الدولة المدنية تعتمد على مبدأ المواطنة، يعني مو المواطن ينعرف من دينه لو قوميته لو بماله، يعرفونه كشخص مواطن. وهناك شي مهم مو مثل ما يگول أبو عفيفة، الدولة المدنية ما تعادي الدين الإسلامي لو غيره من الأديان، بس هیه ترفض أن يستغل الدين من قبل جماعة لتحقيق سوافهم وأهدافهم السياسية.

- نعم كل ذلك صحيح وجيد.. يبدو أنهم يدركون طريقهم رغم وعورته في مثل أوضاع العراق.

- تدري استاد قادر آني شگد أرتاح وأفرح من اشوفك

تحجي عدل، وصرت تتذكر وكت من چنت أدرس بالكلية.
أسال الله وآل البيت يرجعوك عقلك الذهب مثل ذاك اليوم،
چانت الناس تمدح بيك وبشغلك.

- نستفاد منكم أغاتي أبو رجب.

- اليوم قبل الظهر راح يجون شباب يگعدون هنا بالگهوه
يتحضررون للمظاهرة وأنت راح تستمع إلهم وحتى تگدر
تسألهم.

- جميل جداً.. أتشوق لذلك. متى يأتون؟

- بعد ساعة لو ساعتين.

- لننتظر..

الشباب زباين المقهى

من الصعب وبشكل مباشر اكتشاف ما يفكر فيه الآخرون، فثمة عوامل تلعب دورها في رؤوس الناس وتصارع مشاربهم الفكرية، وما من أحد يستطيع أن يرغب الآخرين، دون وسيلة إقناع، على خوض تجربة نقاش هادئ متكافئ بعيد عن الاستحكامات والأحكام المطلقة المسبقة، ليكتشف ما تخبؤه أذهانهم، فمن المستحيل أن يمتلك الإنسان في الكثير من الأحيان، الحقيقة المطلقة، ولا حتى أقلها شأنًا. فالبشرية تطرح على نفسها، فقط المهام التي باتت الشروط المادية متوفرة لحلها، والتي تتعمق وتدمج في الأنماط والأشكال والوسائل التي تنجز بواسطتها البشرية تلك المهام فعلياً، أي الانتباه يوكل إلى الشروط الإيديولوجية والسياسية للجدل التاريخي، وفي هذا فأبو عفيفة ينازع أبو رجب عند حدود معلوماته عن الدولة المدنية، وهي أكبر بكثير من حدود استيعابه، ولذا فالحقيقة تفلت من سيطرته، ولن يستطيع أبو رجب مهما تهيأت له الحجج، دحر وتبخيس فكرة أبو عفيفة عن الشيوعيين والشيوعية. فأبو عفيفة رغم خلفيته المهنية المتعلمة، يبدو راسخ القناعة ومعتداً بما يقوله، ويعتقد بأن ما يعنيه هو الحقيقة بعينها، ولكن مثل هذا الأمر يعد عند البعض ضرباً من

الجنون، والجائز في أمور الاختلاف والتضاد، فإن المجانين وحدهم من يمتلك الحقيقة. هل يجوز لي أن أصل لمثل هذا الاستنتاج؟ أم تراني وقد تلبستني روح الأستاذ عبد القادر، لذا بدأت عندي مثل هذه الهلوسات، فأخذتني لذة الدخول إلى العالم الافتراضي، وعندها أتلصص عبر فضائه وتهويماته خطى أستاذ قادر وحياته الملتبسة التي ما بقي منها يقيناً مستحقاً.

هل من المناسب أن أشرح لهم ما تعنيه الدولة المدنية، أم أن مثل هذا سوف يدخلني في إشكال صعب، مع ذهنيته التي استقرت عند عالم أستاذ عبد القادر ما بعد الاعتقال، ودونه سيكون العجب العجيب، أم ترى ما أقوله لهم سوف يتوافق وقناعتهم بأصل الصورة القديمة للأستاذ قادر. مثل هذا الانشطار بين الشخصيتين يمكن له مقاربة الانشقاق الدنيوي بين المجتمع المدني والدولة السياسية، والذي ينجم عن التناقض بين الإنسان البرجوازي ومواطن الدولة العادي. الملاكون ومعدومو الدخل، بين المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، بين طابع التملك الخاص لوسائل الإنتاج ونتائج العمل نفسه، إنه التناقض والتضاد والانشطار بين المجتمع المدني والدولة السياسية. لأرمي ذلك على عاتق ذهن الأستاذ عبد القادر وهو حافظة غنية ممكن لي أن استل منها ما أشاء.

تبسم ماركس وهو يفكر بهذا التعرج الفكري في عالم يراد أن يفرض عليه كواقع، بل حقاً كان يشعر أن هناك كائناً فنتازياً يجاوره في مسيرته داخل العراق، وهو الحضور والواقع الوحيد بالنسبة له، وليس له خيار غير البحث عن الخلاص من

داخله وبأدواته الخاصة.

ارتشف شيئاً من الشاي وطالع وجوه جلاس المقهى.. زباين المقهى مثلما سماهم أبو داوود.. زباين أم زبانات ما الذي سوف يختلف عنده، أيستحق أن يجادل أحدهم في هذا المعنى. فالعراقي معروف عنه، صاحب حجج وجدال حتى في مثل هذه النتف الصغيرة، ولا يمكن إقناعه بسهولة. سمعت مرة قولاً لأحد الرجال الحكماء أن العراقي مشاغب بطبعه، ولكني لم أجد حقيقة ما يصف ذلك أو يقاربه، فالبسطاء من هؤلاء الناس بسطاء في طبيعتهم وكرمهم، مثلما تطلعاتهم ونواياهم. ليست لي القدرة على الإحاطة بكل صلاح أو عاهات هذا الشعب، وأنا الذي وضعت في محيط أدور فيه من مأزق لآخر. زوايا مغلقة ومسالك لا تفضي لشيء يناسب من يريد اكتشاف الواقع.

استرعى انتباه ماركس مرور مجموعة شباب خطرت أمام المقهى، ثم لحقت بها موجة أخرى. جميعهم كانوا شباباً يرتدون الملابس الحديثة، وتبدو على وجوههم سمات الصحة والحيوية. خرج ماركس من داخل المقهى ليجلس عند المقعد القريب من عربة أبو عفيفة. راح ينظر إلى مجاميع الشباب التي ترد المكان سائرة نحو نهاية الزقاق، حيث مخرج السوق المفضي إلى الشارع الرئيسي. اشتدت الحاجة لديه للسؤال عن هؤلاء ووجهتهم.

- من هؤلاء الشباب وأين تراهم ذاهبون؟

- خوش سؤال أستاذ قادر، إنته مو من الصبح ليهسه أدور على جماعة خبز حرية دولة مدنية؟

- نعم.

- أغاتي هذوله همه إلي أدور عليهم.. شوف شلون ورود ومتفحين، ومن تسألهم يگولون ماكو خبز والحكومة تبوگ قوت الشعب.. حيره والله ما أدري أصدگ بيهم لو أصدگ بالحكومة.

هكذا عقب أبو عفيفه وهو يراقب مجاميع الشباب الواردة على الزقاق حاملة بعض الأعلام واللافتات المطوية.

- تعتقد أن هؤلاء غير صادقين في ما ينادون به؟

- مو كلش.. بس مرات أگول الحق وياهم.

- هل أنت مكتفي مالياً؟

- لا عمي.. التقاعد وهاي شغلة العربانه وممطلع بيهن راس.

- ماذا تعني ممطلع بيها رأس..

فجأة صرخ أبو عفيفة بصوته الجهوري منادياً أبو رجب.

- يمعود أبو رجب تعال ترجم العمك.. تراه اليوم روعي زهكانه وليهسه ممطلع فلوس الصمونات.

- هاي شببك أبو عفيفة؟

- أحچيله بالعربي ومدى يفتهمني.. أگله راتب التقاعد والشغل مال العربانه ميكفي العيشه يگول شنو تقصد.

- أنت لم تقل هكذا.. قلت ممطلع بيها رأس، فأردت معرفة

عن أي رأس تتحدث؟

- راس أبو البرتقاله يلوك لببيبتك.. يمعود أبو رجب ليش ما
تخذه للأستاذ قادر تفره ابغداد تراويه الزوراء لو أسواق
الكراده، بلجي ربك يعطف عليه ويگوم يتذكر.. وبجاه الله
وسيدنا عبد القادر ينعدل عنده الديلكو.

- هم هاي فكره والله أبو عفيفة.. بعد شويه آخذه وياي
للمظاهرة وأخلي يرفع علم العراق ويهتف ويانه.

- هاي شلك بيها أبو رجب.. يمعود يروح يضيع، لو
يتخربط، لو يگوم يسوي حركات مزينه ويعتقلوه.. تراه وضع
الشرطة هل أيام مو تمام، ومرات يرتبكون ويدورون حجة
على الناس، وفجأة وتلگاه رايح بالسجن، وهناك راح ياكل تن
كتل ومحد يلحگله.. خوب أنته مو تروح أدور عليه من موقف
الموقف.. وأنته عدك فلوس حتى اطلعه. لو تدور علي
بالمستشفيات بعد ما يتصوب بالدخانيات مال الشرطة.

- لا راح ألزم أيده وأخلي يوكف بصفي وما يتحرك.

- والله ما أدري شاگول شنو أحجي.. هاي أنته العاقل وتريد
تتصرف هيچي.

تقدم أربعة من الشباب رافعين أياديهم بالتحية وطلبوا من أبو
عفيفة أن يعد لهم وجبة الطعام التي اعتادوا تناولها عنده كل
يوم جمعة. من خلال تحياتهم وحديثهم عرف ماركس بأن
لهؤلاء الشباب معرفة سابقة بأبو رجب وأبو عفيفة، وظهر ذلك

أيضاً بترحاب أبو داود الحار بهم. جلسوا في الزاوية البعيدة من المقهى، وكانت ضحكاتهم وأحاديثهم توحى بالحيوية والنشاط. ذهب أبو رجب مقترباً منهم، ففسحوا له المجال ليجلس جوارهم وأخذ يشاطرهم الحديث.

- أستاذ قادر تكدر تساعدني؟

- نعم أبو عفيفة.. أستطيع ذلك.

- أخذ هذني أماعين الزلاطة وديهن يم هذولة الشباب.

- أوكي.. إن شاء الله.

- هاي شنو أوكي وشنو إن شاء الله.

- وماذا أقول إذن؟

- گول بس إن شاء الله وهاي كافي.

تناول ماركس صحن السلطة قائلاً:

- إن شاء الله وهاي كافي.

- خوش، ميخالف، دروخ يمعود، دروخ وديهن وتعال.

ذهب ماركس بالصحن ووضعها فوق المنضدة التي تتوسط جلسة الشباب. عندها أمسك أبو رجب يد ماركس ليقدمه إلى الشباب.

- هذا أستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس، چان واحد من أهم أساتذة كلية العلوم السياسية في جامعة الكوفة، ومسؤول عن التقييم الجامعي والبحوث.

هب الشباب بالترحاب وتقديم التحية لكارل ماركس، الذي
مد يده وصافحهم جميعاً بحرارة. طلب أبو رجب من ماركس
الجلوس. جلس ماركس جواره مبتسماً ينظر إلى وجوه الشباب
بود ورضا. فجأة نادى أبو عفيفة.

- يمعود أبو رجب خلي قادر يساعدني، بعدين عود يتعرف
على الشباب.

تلك اللحظة انتبه ماركس لوجه الشاب الحنطي البشرة الكثير
التجاعيد، الأشعث الشعر الجالس أمامه. راح يطالع وجهه
وحركات يديه، فجأة وجده ينط في الذاكرة، لذا لم يول اهتماماً
لصياح أبو عفيفة وصراخه المتكرر. أغلق أذنيه تماماً وركز
نظره، فقد شدته إليها ملامح الوجه العابس. أخذ يبحث في
ذاكرته عن هذا الوجه. ليس هذا الوجه بغريب عليه. في هذه
اللحظة لم يعد ينقصه غير أن يتذكر الاسم والمكان الذي التقاه
فيه. لا يمكن لذاكرته أن تخونه، لم يعتد ذلك، فرغم كل ما
حدث ويحدث، فهو يختزن في رأسه آلاف الوجوه التي قابلها
طيلة حياته، ولم يدعها تفلت من مخيلته. أطرق مفكراً يحاول
إيجاد وجه هذا الفتى العابس بطياته الكثيرة المبكرة.

لم يأخذ ذلك من وقته الكثير، فجأة مثل ومضة خاطفة
تجسدت صورته أمام عيني ماركس. الصورة المنتقاة الراسخة
في الذهن، لا يمكن لها التوهان أو الغياب بين زحمة الوجوه
والاسماء.. سامر... سامر.. الرفيق المتهور صاحب المزاج
الحاد.. سامر.. نعم هو الرفيق سامر، الذي لم يستوعب حديثي
ثم اتهمني بالتحريفية، وهددني بأنه ومجموعته سوف

يرشدونني إلى الماركسية. ورغم القلق فإن ماركس شعر بالسعادة تغمر كيانه، فيا لها من مصادفة غريبة. هل عاد القدر يكرر لعبته؟ هل استدار ليمنحه فسحة أمل؟ هل يكون هذا الشيء مقدمة لخاتمة مطاف غبي مشاكس، دفع فيه ثمناً من وقته وأعصابه ليس بالقليل. لم يجد ماركس ما يفسر به تلك الدورة وهذه المصادفات العجيبة، وهو الذي لا يثق بالقدر بذلك المستوى من الثقة التي يوليها له الكثير من الناس. ما الذي عليه أن يفعله الآن. هل يقلب حضور هذا الفتى المعادلات، أم من الممكن أن يكون عائقاً، أو شراكاً جديدةً، سوف يعلق بها مرة أخرى، عندها يبدأ فصل آخر من كومة الآلام والمحن. إنه الآن أمام مفترق طرق وخيار صعب وقاهر، لا يستطيع معه المجازفة وكشف أوراقه جميعها، فعليه أن يحسب لكل خطوة حساب دقيق غير متسرع، وما الذي يترتب عليه واقعه الحالي. لا يريد أن يتبع إغواء اللحظة بشكل عفوي وغبي، فعليه التروي دون فضح الموقف، عليه أن يدرس جميع الاحتمالات ويختار اللحظة المناسبة. أن يأخذ كامل التحولات قبل المجازفة بكشف حقيقته لسامر، فذلك الأمر تترتب عليه تغيرات دراماتيكية صعبة ومذهلة، ليس فقط لسامر وجماعته، وإنما الأكثر من ذلك لأبو رجب وأبو عفيفة وأبو داوود، لقد كان صعباً عليه في تلك اللحظات اتخاذ القرار المناسب، ولكنه في النهاية قرر شيئاً ما. فوجه لمجموعة الشباب سؤالاً مراوفاً.

- أود أيها الأعزاء أن أتعرف عليكم فهل تسمحون لي بذلك؟

فسبقه أبو رجب قائلاً.

- مثل ما كُلتكم هذا أستاذ عبد القادر مله عطا آل مغامس
أستاذ كلية العلوم في جامعة الكوفة سابقاً.

- أهلاً بالأستاذ ومرحباً، أنا اسمي عبد الرضا وهذا صديقي
مهند ونحن نعمل بالصحافة وهذا صديقي الآخر وزميلي في
الجامعة سامر، وهذا زميلنا في التظاهرة مزهر ويعمل في
محل لبيع الأدوات الصحية.

تأكد ماركس بأنه أمام شخصية سامر التي قابلها وتعرف
عليها سابقاً، لذا مد يده مرة أخرى وراح يصافح الشباب
بحرارة دون أن يرفع عينيه عن وجه سامر.

- أستاذ قادر صار يومين يسألني شنو نريد بتظاهراتنا، أني
شرحتله مطالبينا ومعنى الدولة المدنية، وهو هسه من شافكم
إرتاح وكيف بيكم واليوم راح يشاركنا بالمظاهرة.

- أهلاً بي وبيك وبكل عراقي شريف أو وطني وغيور على
بلده.

قرر ماركس أن لا يتدخل أو الأخرى أن لا يتحدث، وإنما
المهم عنده الاستماع لأحاديثهم، وفي الوقت نفسه راح يفكر في
الكيفية التي تساعد للانفراد بسامر، بعيداً عن المقهى وعن
هؤلاء أيضاً. اختار الصمت والتروي للبحث في صيغة تسعفه
للوصول إلى مبتغاه، ربما الذهاب معهم إلى التظاهرة سوف
يمنحه فرصة ويسمح له الانفراد بسامر، عندها يكشفه
بالموقف.

جاء أبو عفيفة بصحون الطعام ووضعها أمام الشباب وعاتب أبو رجب قائلاً.

- تره هاي سواف محلوه منك أبو رجب.

- ليش عيوني أبو عفيفة.. آني شنو سويت؟

- إي مو الرجال قادر راد أيساعدني وإنته ما خليته.

- عفيه عليك أبو عفيفة هاي شنو منك.. ليش آني ما خليت قادر يساعدك!!

- أي نعم.. گعدته القادر يم الجماعة وما چان يهتم لصياحي.. هسه بالله هو ما شاء الله لا حگ ومستوي وما ينعتب عليه، بس إنته شببك، ما چنت تسمع صوتي؟.

- أبو عفيفة والله ما انتبهت زين.. تدري الرجال يريد يتعرف على الشباب وبنفس الوقت يعرف شنو غايتهم بالمظاهرات.. وأنني گلت بلكي هذا يكون باب يفتحه رب العباد ويگدر يساعده لاستاذ قادر ويبيدي يرجله عقله.. هاي كل ما في الامر.

- خوش.. بس مچانت حلوه منك.. إنبح صوتي وإنته وقادر وكأنه مو يمكم.

- أعتذر منك أبو عفيفة.. المكان خبسه وما سمعت، العفو عيوني إنته.

نظر أبو عفيفة إلى ماركس فوجده يطالع وجه الشباب بدهشة وترتسم شبه ابتسامة على وجهه، ربت بخفة ومسح

على رأس ماركس، دون أن يجد منه ردة فعل، فاستدار عائداً إلى جوار عربته.

- الحراك لازم يستمر وياخذ شكل آخر.. ميصير جمعة وره جمعة وماكو نتيجة.. أعتقد إحنه وصلنه الطريق مسدود... هذولة البلحكومة يراوغون ويسوفون وميردون يسوون إصلاحات ويراهنون على مللنه وتعبنه.

هكذا قال سامر وهو يلوك طعامه ويلوح بيديه.

- بس عزيزي سامر تره من عام ألفين وأهدعش صارت تطورات كثيرة بالساحة ووقائع جديدة ظهرت، وهمين وياها عناصر جديدة، وبسبب هذا أنولدت شروط جديدة، يمكن نعرف من خلالها أنو المجتمع دخل مرحلة جديدة من الصراع حول شنو التغيرات إلى نريدها، وشنو طبيعتها.

- والله صحيح مثل ما يگول مهند، المهم نعرف التناقضات الموجودة مو بس بلمجتمع، وإنما ما يحدث من تناقضات داخل السلطة، وما نتوقف يم التناقضات الرئيسية، لازم نكتشف التناقضات حتى الثانوية منها.

- يا جماعة الخير حچيكم كلش صحيح، بس لتنسون تره هذي التناقضات وتفاعلاتها، واحد من يريد يكتشفها ويدرسها، لازم يعتمد من البداية و يروح على لب المشكلة وهو الأساس الأقتصادي، وشنو تأثيره، لو شنو حدث من تغييرات بمستوى القوى المنتجة، وطبيعة علاقات الإنتاج، وبنية الطبقات الاجتماعية، وبعدين اندور عليها، ونعاين الاصطفاف الصاير

في الجبهة الاقتصادية، وانعكاساته على البناء الفوقي في إطار العلاقة التبادلية والوحدة الجدلية بين المستويين.

- منطق سليم جداً.

قال ماركس ذلك بصوت خافت ونقر بإصبعه فوق المنضدة، وكان يبدو منشغل البال ينظر إلى سامر، الذي باتت جميع آماله تتعلق على اللقاء المفرد به.

فجأة تدخل أبو رجب وراح يتحدث بصوت مرتفع وواضح جعل باقي جلاس المقهى يلتفتون نحو الزاوية التي كانت المجموعة تجلس فيها.

- خالي أنتو هذا تفكيركم على راسي، وما عندي اعتراض عليه، ولو يرادلي فد عشر دروس تعليمية حته أتعلم وأفتهم شنو تردون.. بس آني اگول واسمحولي، يمكن تفكيري قاصر ومو بشكلكم.. الناس تطلع تتظاهر، تريد شي مبین، ضد شي محدد أو واضح، ضد شي ملموس ومأذي البلد وأهله.. وبسبب الفساد والبوگ صارت الدولة مفلسة، والبطالة مالها حدود، وما خلو بناية مال الدولة ما أخذوها.. والخدمات كلش معدومه.. والسلاح صار بيد حتى الزعاطيط، والمشاكل ما تنحل إلا بالسلاح لو بالفصل مال العشائر، والتفجيرات تحصد بالناس، والحدود العراقية صارت خري مري، والساده والخطوط الحمر وتيجان الروس ترسو للشوارع، ومحد يفك حلگه يخاف ينعلس.. والوظايف بس إهم... وغيرها وغيرها.. تگولون الدولة المدنية تحل كل هذني المشاكل.. هسه إحجولنه بالنتيجة.. أنه وياكم علمود هذني مو على مود غيرهن..

- عيوني أبو رجب ما تفضلت بي صحيح، بس أحنه نسولف على لب المشكلة، يعني شنو السبب بكل هذا.

رد عليه عبد الرضا باسمأ وكأنه يحاول مواساته. ولكن سامر سارع وتدخل بالحديث.

- يا جماعة تراه أبو رجب وياه الحق.. أحنة حراك جماهيري ومن كل قطر أغنية، بينه العامل والبطال والفنان والموظف والطالب، وما جمعنا بالتظاهرات مو غير هاي الاهداف الحجه عليها عمه أبو رجب، وأحسن شي نحسب نفسه حركة اجتماعية متعددة الأطراف والاطياف، وإحنه يبقى شعارنا التغيير، ومن أجل إقامة النظام الديمقراطي ألي يضمن تحقيق الإصلاح مو غيره.. وهذا يجي بالدولة المدنية.

- هو هذا الصحيح.. ولو نكدر نطب عليهم مرة لخ بعقر دارهم بالبرلمان وهناك نراويهم شنو الثورة الجماهيرية.

- حبيبي مزهر هاي باعتقادي چانت غلطة.. وأصلاً لو تنتظر بيها وتشوف وتتمعن زين، راح تلگه إلی فشلها هو منها وبيها، يعني إلی دعا إلهها وقام بيها، بعدين اتندم، لو أگول ما تندم، بس لعبها حسب مصالحه وعلاقته بالحكومة.. لو ما ادري شنو، وفشلها، إحنه نريدها سلمية لا أكثر ولا أقل.

- والله چانت تصير ثورة.

- عيوني رحمه الوالديك.. شلون تصير ثورة؟ ليش هيه ذيچ الحركة إلی دخلنه بيها البرلمان تمثلن؟ تمثل الشعب..!!؟ چنه مجاميع ما ينعرف راسنا من رجليه... الثورة ما تصير في مجتمع منقسم على نفسه، ومتوزع على سبعين ألف شگه، وكل

شكّه تريد تحود النار الكّرصتها.. يا ثورة عمي دخلونه.. نبقه على هذي الجمعة وكل جمعه، بلكي شويه الناس تتحرك. الثورة يرادلها وحدة مجتمعية قبل ما تصير ثورة، وهذا صعب ويوم على يوم الأمريكان ودول الجوار يشتغلون حتى تصير أصعب.

- المهم الناس گامت تتحرك وتوعى وتعرف شنو ديصير.
- هسه يمعودين خل نغسل ادينه ونشرب چاي ونروح يم الجماعة للمظاهرة.

- أوكي يالله ياجماعة.

- ليش متخلوها على حسابي هذي المرة.

- عمي أبو رجب إحنه متعودين كل جمعه نجى يمكم بهاي الكهوه ناكل ونشرب چاي.. خوب مو جايين خطر أبيتكم.. الله يحفظك ويخليك وينطيك الصحة والعافية.. وهمزين بواسطتك تعرفنة على أستاذ عبد القادر.

قال مزهر ذلك وطلب من ماركس النهوض من أجل السماح له بالخروج من المكان للذهاب وغسل يديه فتنحى ماركس جانباً مفسحاً له الطريق وفي الوقت ذاته طلب أبو رجب من ابو داوود جلب الشاي للجميع. ولكن باغتهم ماركس بسؤال مسرحي مفتعل رافقته ابتسامته المخفية.

- ماذا يعني تحود النار الكّرصته؟

- معود بطل من أسألتك.. دتعال گوم نبوس أبو عفيفة ونصالحة وبعدين تروح ويايه للمظاهرة.

في ساحة التحرير

جاور ماركس سامر في المسير نحو ساحة التحرير، وكان قريباً منه جداً، وكأنه يريد أن لا يفلت منه، كان يلاحقه بنظراته وخطوه، ويحاول اختبار ردود فعله مع كل حركة أو جملة تقال، يود أن يتأكد من شخصيته وهل هي ذاتها التي واجهته بنزقها وعنفوانها وهددته بالحساب والعقاب بسماجة وسخف. يا ترى هل يفشل الحوار معه ويكون سامر أكثر تطرفاً وصعب المراس ومتطيراً أكثر من المرة السابقة. في كل خطوة كان يريد أن يسحب سامر من يده ويذهب به بعيداً ليحادثه ويصارحه، ولكن سامر كان مشغولاً مع أصدقائه بالحديث عن التظاهرة التي تأخذ من تفكيرهم الكثير، وهم يبحثون أيضاً في متبنيات المجتمع، وكل ما يعتمل فيه من وقائع ومرارة، تفرضها العادات والتقاليد والمعتقدات الغيبية، وكان حديثهم كعادة العراقيين خليطاً من كل شيء، يذهب هناك ثم يعرج على حديث آخر هنا، بعدها يعيد تكرار السابق. كان محور تفكير ماركس يركز على محاولة الانفراد بسامر، وفي نفس الوقت كان يتنصت حديث هؤلاء الشباب عن حركتهم الجماهيرية، أو من الجائز إطلاق تسمية انتفاضتهم الجماهيرية. فالملاحظات التي أوردتها بعضهم تبدو جد عقلانية

وواقعية، وشخصت لب وأس المشكلة وهو الأساس الاقتصادي، وما حدث من تغيرات وسط القوى المنتجة، وطبيعة علاقات الانتاج وبنية الطبقات الاجتماعية، وانعكاس ذلك على البناء الفوقي للمجتمع، تفكير سليم جداً، ولكنه يحتاج إلى دلالات في الوعي المجتمعي والطبقي والحراك الجماهيري. ومن خلال ما عرفه عن طبيعة التشكيلات الاقتصادية في العراق فإن اقتصاد العراق الريعي اليوم، وهو الذي يعتمد على تصدير النفط وبيعه، لن يفضي إلى ما يرغبه هؤلاء، ولن تولد من رحمه دولة مدنية ديمقراطية، وإنما المعروف وبشكل جلي أن هذه المعادلة دائماً ما تطرح نموذجاً مشوهاً، وأي سلطة فيه ليس لها قدرة على وضع برامج تقدم للمجتمع ما هو نافع وحضاري، فهي تعتمد شعارات وحلول ترقيعية ليس إلا، وتحاول استغلال الدخل الوطني لمصالح فئوية وحزبية. أعتقد أن عزيمة وقوة هؤلاء الشباب يحتاجها العراق بشكل حقيقي، ولكن تحقيق حلم هؤلاء بالإصلاح يحتاج إلى أفق أوسع وإلى قوى تخلق تناسبات وتحالفات جديدة، لتكون قادرة على الاستمرار وخلق الظروف الضاغطة لأجل التغيير. وهذا التغيير من المؤكد إن نجح في مهامه الأولية، سوف يساعد على كسر قاعدة احتكار السلطة المستندة إلى الهويات الفرعية، ويؤسس لوعي اجتماعي جديد، وهؤلاء الشباب أجد فيهم المعرفة الجدية والإيمان بضرورة خلق البديل المدني الديمقراطي، وهو البديل الوحيد القادر على بناء وطنهم. ورغم قناعاتي بصعوبة التغيير هذا في المدى القريب، ولكنه كملح استراتيجي، يبقى ضرورة لإنقاذ هذا الشعب من

ثقافة الاستبداد والنزعات الماضوية المناهضة للحدثة
والمغركة بالتخلف وعدم احترام الرأي الآخر والانكفاء على
الغيبيات.

فجأة وفي غفلة منه وبسبب سرحانه في تحليل أفكار
الشباب، لم يجد سامر جواره. التفت نحو الباقيين وبارتباك
ظاهر سألهم عن سامر، فأجابه أحدهم بأنه ذهب لشراء علبة
سجائر وسوف يعود.

- نلتكي بيه بالمظاهرة وين يروح.

- ولكن كيف أضعته أنا؟

- شنو ليش إنته.. شنو تريد منه؟

- لا شيء... لا شيء ولكن خفت أن يضيع وسط الناس؟

- أخونا الطيب استاذ قادر... ليش سامر زعطوط لو مايندل
المنطقة... چان كمشت إيده وما خليته يفلت منك؟

تدخل أبو رجب بالقول وهو يقبض على ساعد ماركس
ويسحبه إلى جانبه.

- حقه استاذ قادر يخاف على أصدقائه.. تعرفون هو... هو
تعرفون.. چان استاذ جامعة وكلش يهتم بطلابه.

- والله حسبالي غير شي؟ گلت بس لا صاحبنه يدور طيور
جنه مكلشه؟

- لا يعمودين تره استاذ قادر مر بظروف قاسية.. بعهد
صدام چان مسجون وبعد دخول الامريكان طلع وهو هسه

شويه مريض، إن شاء الله يصير زين.

- والله إنته عبد الرضا كلش تفكيرك يروح بعيد ودائماً عقلك يدور على المزين.

- شمدريني، مو أشوفه يباوع لسامر مو طبيعي.

- أي مو سامر يتفلس على التمن.. شلون جهره عاد، مطعجه معقجه.. لو بس أعرف شلون أطاهم كلبهم للأهله وسمو سامر.. ليش ماسمو معيريج.. صليبيخ.. شنيخر لو طاوه محروكه.

ضحك الجميع وكانوا قد اقتربوا من فتحة السوق المفضية إلى ساحة التحرير. كانت عيون ماركس القلقتان تجوبان المكان بحثاً عن سامر الذي فاجأهم عند انعطافة الزقاق. كان يقف أمام بائع صغير السن يعلق صندوقاً خشبياً برقبتة، يضع فيه عدداً من علب السجائر. سارع ماركس ووقف جوار سامر مراقباً حركته ثم سأله.

- سوف تذهب إلى التظاهرة.. أليس كذلك؟

- إي لعد وين راح أروح؟

- ممكن أكلّمك على انفراد.. أرجوك؟

- شنو القصة استاذ قادر أكو مشكلة؟

- نعم مشكلة كبيرة أحتاج أن تحلها معي؟

- خلي نلحگ بالجماعة وعود بعدين نحجي؟

- أرجوك سيد سامر أحتاج مساعدتك.

- زين.. زين بعد ما تنتهي المظاهرة نحجي.
- أرجوك أن تتفهم موضوعتي.. أنا بحاجة لمساعدتك، وأنت أُملي في حل هذه المشكلة؟
- أستاذ قادر إي هسه وقت حل المشاكل.. وشنو آني لگيتني حلال مشاكل، لو أكسر السدة بهيچ سواف.. آني مشاكلي معره ولا تتعد ولا تنحجي، وهسه إنته تريد أحل مشكلتك.. يمعود الجماعة صارو بنص المظاهرة وإنته صالبنی هنا.
- تقدم أبو رجب ملوحاً بيده ومنادياً على ماركس أن لا يتأخر، فالحق به سامر يرافقه ماركس وخلال تلك الخطوات القليلة تابع ماركس إلحاحه بطلب الحديث المنفرد مع سامر.
- أرجوك لا تجعل أبو رجب يعرف بطلبي هذا أرجوك.. طلبي هذا وحديثي سوف يؤثر كثيراً بهؤلاء الرجال الطيبين، لا أريد أن أظهر أمامهم مخادع وغير جدير باحترامهم.
- إي هسه هو شنو طلبك.. هو آني أعرفه حتى متريد أبو رجب لو غيره يعرفه؟
- لن أحدثك به إن لم تعدني أن نبتعد قليلاً عن التظاهرة لأخبرك بالذي أريده منك.
- أو كي... بس كون على ثقة غير خمس دقائق ما أسمحك باكثر منهم.
- جيد... لا تدع أبو رجب يأتي معنا.. علينا أن نجعله بعيداً قدر الامكان.

- أي دتعال أهنا.. گول يمعود سطرنتي.. بس إنته ليش
هيچي تحجي.. ولسانك أعوج چنك أجنبی؟
- عزيزي سيد سامر المحترم أنا هي تلك الحقيقة.. أنا أجنبی
ولست عراقي.

- يعني إنته مو استاذ عبد القادر صديق أبو رجب؟
- سيد سامر أنا وأنت التقينا سابقاً قرب مطار بغداد، ومن ثم
في فندق الرفيق جبار.. هذه ملخص للحكاية كلها.. أنا كارل
هانريش ماركس.

تراجع سامر إلى الوراء وكأنه صعق حين سمع الاسم، شعر
برهبة الموقف وكأن كل شيء قد توقف وتجمد من حوله وردد
وهو يتلعثم بالكلام.

- منو...منو؟

- أنا رفيقكم كارل ماركس الذي استقبلتموه عند أول دخوله
بغداد، وفي اليوم الثاني جلسنا في فندق رفيق جبار، وقد تكلمت
أنا في موضوعة المجتمع والماركسية الجديدة، أثارك موقفي
ذاك، وكنت أنت متوتراً جداً، وطلبت مني الاعتذار عما
ذكرته، وقلت بأن الماركسية الكلاسيكية هي منهجكم وطريقكم،
واتهممتني بالردة والتحريف، حينها قال لك الرفيق جبار بأنك
تثير المشاكل، وبدأ الخصام بينكما، وأنت أخبرته بأنك تحملت
رففته لأكثر من عامين، وأنت لا تعترف به رفيقا لك، واتهممتني
بأنني لست كارل ماركس الحقيقي، وإنما شخص آخر تحريفي،
وكانت ردة فعلك شديدة وعنيفة حين هددتني، وأنت تخرج من

قاعة الفندق مع مجموعتك بعواقب وخيمة، وسوف تطلعوني على الماركسية الحقيقية.

نظر سامر بتركيز شديد إلى وجه ماركس ثم ضغط على صدغيه وهز رأسه، وكأنما يريد أن ينفذ عنه شيئاً ثقیلاً علق فيه، ثم أطرق نحو الأرض، وبعد لحظات رفع عينيه ليغرزهما بوجه ماركس، ثم مسك كتفه وراح يخضه بهدوء وهو يصرخ بسرور وفرح طفولي، تجلى في بريق عينيه السوداوين.

- ياربي.. ياربي هاي شلون دنيا.. افترت ودارت.. ورجعت ليوره.. والله صحيح هذا الخشم عرف، ومو غريب وهاي الكصة نفسها.. هاي انتة وين جنت.. منين أجيت.. وهاي منو هلس شعرك ولحيتك؟

- حين كنا مختطفين عند عصابة أبو بشير وبعد إطلاق سراح رفيق جبار، عذبت كثيراً وقام أبو بشير ومرتزقته بحلق شعر رأسي ولحيتي.

- تعال.. تعال.. تعال ورايه خل ننزل بحديقة الأمة هناك نغدر نتفاهم أحسن.

كان زحام الجماهير على أشده، وهتافاتهم تتعالى لا يستطيع المرء التمييز والتعرف على ما يردد فيها، مجاميع تشتم وتقذف الأحذية نحو صور لشخصيات لم يسبق لماركس مشاهدتها، وهناك مجموعة كبيرة أخرى تستمع لخطاب يقرأه رجل رشيق القامة بشعر فاحم، يعتلي منصة نصبت أمام الساحة، ومجموعة أخرى ليست ببعيدة ترفع لافتة خط عليها شعار كبير، باسم

الدين باگونه الحرامية، لم يجد ماركس في جعبته ما يعطي الكلمة الوسطى حقها، ولم يهتم للأمر بشكل جدي، فكثيرا ما كانت ترد كلمة باگونه على أفواه العراقيين، ودائما ما وجدها قد أصبحت لازمة عند البعض في أثناء أحاديثهم، دون أن يسألهم عن قيمتها المعنوية وتأثيرها.

تابع سيره وسط الزحام ليلحق بسامر الذي سبقه، وكان هذا يقتحم جموع المتظاهرين بقوة وحيوية وكأنه تيس ماعز ضخمة. هبطا سوية السلم المفضي إلى وسط الحديقة، بعد أن اجتازا العربة العسكرية التي كانت تقف تحت الراية الخرسانية، تاركين ورائهم الجماهير الصاخبة، وهي تهتف مطالبة بالإصلاح، والبعض منها يطالب بإسقاط الحكومة. أمسك سامر ماركس من يده وتتحى به جانبا نحو زاوية بعيدة من الحديقة.

- هاي شلون..وين أفتر بيك الدهر يمعود تعال أحچيلي شنو القصة؟

- حكاية طويلة سوف أرويها لك لاحقا.

- لعد أني خبرني رضا أخو الرفيق جبار بأن العصابة أطلقت سراحك بعد ما أخذت الفدية من السفارة الألمانية.

- أي سفارة وأي فدية.. لم يحدث مثل هذا الأمر، وإنما الشرطة من أطلق سراحي بعد فترة من خروج الرفيق جبار الذي دفع لهم أخوه مبلغ السبعة آلاف دولار فدية عنه.

- سبعة آلاف دولار!؟

- نعم سبعة آلاف دولار اتفقوا عليها ولذا أطلقوا سراح

الرفيق جبار.

- ولكن رضا أخو الرفيق جبار گلي دفعنه سبعين ألف دولار.

- مثلما أخبرتك الآن وهو الذي حدث أمامي في ذلك المكان.

- مو غريبة كلها أظير أفياله!

- كيف يظير الفيل، شيء غريب؟

- رفيق ماركس بالعراق كلشي ممكن ولا تستغرب.. الطلي يلعب شناو.. الديج الهراتي من الخوف ينر عص ويگوم يعوعي بنص الظهر.. الواوي يصادق الدجاج.. بالعراق كلشي يصير وكلشي يظير.

- رفيق سامر لا أريد أن أعرف شيئاً عن الذي تحدث عنه.. المهم كيف أستطيع الوصول إلى الرفيق جبار؟

- ولو ما اريد أجدب عليك وإنته رفيقنا الجبير، من يوم تعاركنه أنه وياه بيوم ندوتك.. انگطعت علاقتي بجبار، أو وراكم تفلكش وخرّب كلشي بحزبنه، بس بقت عندي علاقة بأخوه رضا، علاقة قوية لأن رضا خوش ولد حباب وفقير، ومرات شويه يساعد، رجال سخي، وهو سولفلي كولشي إلي صار بيكم. وهذا إلي تسميه هسه رفيق جبار.. وره ما طلع من يمك رجع متخبل وصار طباگات.. أو وره شهر گلب عكرف لوي على حزبنه، وگام يضرب ركعة، وجواها لگسته بالبيتنجان.

- وما معنى يضرب ركعة وجواها لگسته؟

- يعني يصلي ويقشمر بالناس على أساس هو متدين ورايح بالدين للوحه..وگصته صارت سوده، من هلگد ما يصلي.. وتخشش ویه الجماعة المتدينين إلی بالحکومة، وتعين بمركز مهم بوزارة الخارجية ومن ذاك الوگت أربع سيارات جسكاره تودي وأربعه ترجعه وحرس أبا ببيتہ.

- أرجوک رفيقي سامر أفصح جيداً عن حديثك فما عدت أعرف ما تعنيه.. رايح باللوحه وتخشش وسيارات جسكاره.. ماذا يعني كل ذلك؟

- ملخص الكلام، خلال چم يوم، صار الرفيق جبار متدين ومن جماعة الحکومة، ورأساً عينوه بوزارة الخارجية بمركز جبیر، لأنه عنده شهادہ ويعرف لغتين.. وگراييه هم جبیر بحزبهم.. يعني جبار صار فد شي، فد شي مهم بالنسبة لجماعته إلی صار منهم. أصلاً المشيطن حتہ سالفه الاختطاف استغلها وحصل من وراها أشياء.

- ما الذي تعنيه؟

- يگولون سواها على اساس اختطاف طائفي، وبسبب موقفه الديني وعلاقاته ببعض رجال الدين من طائفته..لتگلي ولا أگلك سواها كوليه،وصارت صدگ، تگول چانو خاطفين نلسن ماندلا مو جبار أبو العقد المرعوص.

- ماذا اقول لك وماذا تقول لي..ألا تنتهي هذه الكوارث والعقد اللغوية؟

- حقك ابو الشباب أبن عمي ماركس..العفو رفيق ماركس؟

ولا يهتمك نرجع لصلب الموضوع.

- المهم كيف نستطيع الاتصال به والوصول إليه؟

- الحقيقة.. رفيق ماركس تعرف.. هو بدل تلفوناته وتغيرت أحواله وما گام ينشاف.. بس علاقتي بأخوه رضا استمرت وكلش زينه، يمكن نكدر نحصل من عنده على تلفون جبار ونحاول الاتصال بيه.

- ليتك تفعل هذا الآن.. أرجوك دعني أحادثه.

- إي هسه خليني أحصله وبعدين كولشي يصير.. إذا حصلناه أو وافق يشوفك كون على ثقة أعتبر نفسك وصلت للمكان إلي تريده.

- أيعني ذلك عودتي إلى لندن؟

- نعم، رفيقك جبار سابقاً وحالياً مولانا جبار، بين يوم والثاني يروح خارج العراق، ويكدر يسويك جواز سفر ويطلعك وياه.. هذوله عدهم كولشي سهل مثل شربة بطل ببسي ويجرون وراه تريوعه طويله.. من كثر ما شابعين ومبربعين بالنعمة والناس جوعانه. خل انحصله هسه وإذا وافق يقابلك خير على خير.. إعتبر مسألتك انحلت وميك بالصدر، والهوه بظهرك عدل وكبل إللندن.. بس كون يشيل التلفون، وأخاف يكلب ويرفض يحجي وياه وحتى وياك، تره هو نحس، أعرفه ابن المداس حيل نحس، وشايف نفسه شوفه.. على كل حال نتصل بأخوه رضا أولاً حته نحصل تلفونه، وشي هم حلو، بلجي هم بواسطتك وترجع علاقتنا آني وياه وشويه نستفاد منه

لهذا اليابس الانتهازي اللوغي.

كان ماركس ينظر إلى سامر بغضب ويجبر نفسه الاستماع لثرثرته، وهو لا يملك حيال هذا الأمر ما يجعل سامر يكف عن الثرثرة والشروع مباشرة بإنجاز ما يرغب به ماركس. وترسخت في ذهنه القناعة بأن مثل شخصية سامر، لا يمكن لها أن تكون ثورية وقيادية في مجال عمل ما، أي عمل كان، وهو هامشي وفوضوي ومخادع، فكل شيء فيه يوحي بالتطير والعجالة، وكذلك الوصولية والانتهازية. المهم يريد ماركس منه أن ينجز مهمة إيصاله إلى الرفيق جبار، وليذهب سامر بعد ذلك أين ما يذهب.

ضغط سامر على أزرار هاتفه ليتصل برضا وفي ذات الوقت سحب سيجارة وضعها عند طارف فمه. طال الوقت مع رنين الهاتف دون رد. أغلق سامر الهاتف وأشعل سيجارته وارتشف منها بقوة.

- كلهم نفس الطينه، ولد الرگاع.. تگول حسبالك أولاد شاه نشاه، لو أمبراطور اليابان ولد الق... استغفر الله.

- ألم يجيب..؟

- لا ما د يرد على التلفون.

- يجوز بعيد عن الجهاز لو مشغول.. حاول مرة أخرى.

أعاد سامر الكرة وضغط على أزرار جهاز الهاتف وراح يستمع لرنينه البعيد.

- ألو.. ها سامر.. أهلا شلونك.

- هلو ورده أغاتي شلونك شلون العائلة، والله مشتاقلك كلش، ولو أني أدري إنته مشغول، بس حبيت أسلم عليك، ذاك اليوم أجيت للفندق بالعروضات گالولي بالفندق للاخ ألي بالمنصور.. بقيت شويه وتغديت يم الجماعة وهمه ما قصر.. حبي رضاوي الورد رحمه الذاك الأب الطيب ألف رحمه ونور عليه بهذا يوم الجمعة المباركة، أگدر أحصل تلفون الحبيب جبار.

- شنو اليوم بيها حبيب جبار، لازم أكو شي.. گلي بلكي أگدر أساعدك؟

- لا والله ماكو شي بس ردت أسلم عليه، خوب ما تبقة علاقته مگطوعة بهلشكل وإحنه أصدقاء ورفاق من زمن طويل، واليوم حلمت بي حلم قوي، وگلت لازم أحجي ويه أخويه الحبيب.. من كل ولابد.. داد صدقه للوجه الحلو، أريد تنطيني تلفون الرفيق جبار. خوب إنته متزوج من أخوتك يتصالحون؟

- لا أخويه بالعكس.. ليش ازوج.. تدلل، والله صحيح جنتو أصدقاء وحبائب وچماله رفاق، واليمشي بدربنه شيشوف لو طرگاعه لو عندك الحساب مو هيچي الحجي.

ضحك سامر ضحكة طويلة، ثم راح يسجل في هاتفه رقم تلفون الرفيق جبار الذي أعطاه إياه رضا. وبعد أن أغلق الهاتف مع رضا قال لماركس.

- هسه تمام رفيق ماركس، لو شعراية من جلد خنزير لو

بح.

- أما ضجرت من ترديد الألغاز.. أي خنزير هذا وأي بح؟

- قصدي لو نطلع بنتيجة زينه وياه ابن المهلوس الرفيق جبار، لو يعنفص عليه وكلشي يضيع ومنحصل منه كل نتيجة، وتبقى إنته تفتر بسواكة باب الشرجي لحين يقضي الله أمرا كان مفعولا.. تعال رفيق ماركس تعال نروح نكد فوگ ذيچ المصطبة.

ذهبا وجلسا هناك. كان ماركس يراقب حركات سامر وينتظر بفارغ الصبر أن ينهي ثرثرته ليتصل بالرفيق جبار. سحب سامر سيجارة أخرى وأخذ ينفث الدخان ويقلب بيده جهاز الهاتف دون أن يقدم على الاتصال بالرفيق جبار، بل فضل أن يسبق اتصاله بالحديث عن الخصال السيئة التي يتمتع بها الرفيق جبار، كان الحماس ظاهراً عليه وكأنه يتحدث عن عدو لنيم لا يملك من الصفات إلا سيئها وأرذلها.

- ألا تتصل بالرفيق جبار؟

- نعم سوف أتصل.. من كل ولا بد أتصل. بس دا أفكر شنو أحجي وياه، وبس لا هذا الانتهازي القذر أخاف يسد التلفون بوجهي؟

- بدون أي مقدمات قل له بأنك عثرت على كارل ماركس، وأني أجلس جوارك الآن، عندها نرى ردة فعله. هيا يا رفيقي فقد عيل صبري ما الذي تنتظره.. أرجوك.

- أوكي حبيبي راح أتصل بس تره إنته لا تتفاجئ.. تره آني

أعرف النتيجة ويه هذا.. شايف نفسه شوفه أكثر من كبل بألف قاط.. وهسه ينكر الأول والتالي.. أعرفه آني قاري وكاتبه ومفلسه تفليس.

- مهما يكن أرجوك إتصل به ولنرى حقيقة الأمر.

ضغط سامر على أرقام الهاتف وراح ينتظر، لم يطل به الوقت حين جاء صوت جبار من هناك.

- ألو تفضل وياك سيد جبار آل مطورد.

- مرحبا رفيق جبار آني رفيق سامر.

- أهلا وسهلا بسامر.. هاي شنو شسامع اليوم صار وقت طويل ما سامع صوتك.. سامر بعد لتگول رفيق ولتسولف بذيچ السوالف.. الرفيق راحت ويه الرفيق الجبير.. أوكي سامر.. تفضل شنو تريد.

- ماكو شي حبيت أسلم عليك وأسأل عن صحتك.. خوب ما يطول زعلك عليه، وإحنه أخوتك وانحبك حيل ونحترمك.. أنت جبيرنه وگلبك واسع تتحمل غلطاته وسوالفه التعبانه.. مو هيچ رفيق.

- مو گتلك عوف كلمة رفيق.. تراه اذا كررتها راح أسد التلفون زين.. گول شنو عندك شتريد.. تريد تروح تبات بالفندق.. بعدها أم عشتار ما تريدك. هسه أخبرلك رضا خلي بييتك هناك.

- لا أستاذ جبار آني هسه رجعت يم أهلي وعفتها لأم عشتار هينوب، بعد صارت العيشه وياهه صعبة.. بس أكو شغله

تهمك كلش ردت أحجي وياك بيه.

- گول شنو هيه الشغلة؟

- يمي واحد لا زم إنته تعرفه وهو يريد يحجي وياك.

- جيبه أنطينياه، تره ما عندي وكت، ولازم أطلع يله بسرعة.

أستلم ماركس الهاتف النقال بقلب وجل يخفق بسرعة، وكأن الكون كان يرتج مثل شجرة جوفاء في ريح عاصف. كل شيء يبدو معلقا بكلمة تصدر من الرفيق جبار، وأن هذه اللحظة الصارمة القاسية من عمره، هي اللحظة الحاسمة وهي حد السيف القاتل الذي سوف يشطر العمر لمرحلتين.

- ألو رفيق جبار أنا الرفيق كارل ماركس.

- منو.. شلون منو؟

- أنا كارل هيانريش ماركس.

- يمعود هذا شلون حجي؟ أنت وين يا رجل، وشلون وصلت هنا؟ وهسه إنته يمن.. أطيني سامر.. أطيني سامر.

وبشيء من الفرع الذي دب فجأة في قلبه ناول ماركس التلفون إلى سامر، وهو غير مصدق بأنه تحدث مع جبار.. ظهرت أبتسامة طفولية على وجه سامر وهو يأخذ جهاز الهاتف.

- ألو عيوني أستاذ جبار..

- لك هذا صدگ ديجي، هو كارل ماركس صاحبنا؟ لو

خاف هاي وحدة من دگاتك العوجه؟

- أفه رفيق لا وروحه الوالدك العزيز، هذا صاحبنا نفس الخشم والحلگ والعيون، ولو شعر راسه خفيف وما عنده لحيه بشكل ذيچ لحيته مال گبل.

- أي موگتلك بلا رفيق.. شنو شعر راسه خفيف شنو ما عنده لحيه؟

- رفيق جبار هو يگول عصابة أبو بشير زينو راسه ولحيته وعذبوه.

- شوف سامر اذا تستمر بكلمة رفيق فراح أسد التلفون، وخلي ماركس مالتك هذا يدفعلك فلوس العشه. بعدين أني أعرفك زين أنته تبقه على نفس ذبتك مخبوص ومتطير، وهذا الماركس مالتك لعب عليك وإنته صدگت بي؟

- أستاذ جبار دا أگلك وروحه الخالي هو.. لو بس تشوفه.

- سامر، مو عليه، تره أني أعرف إنته ما عندك خال ميت غير واحد، مات وچان عمره ست تشهر يعني بالكماط فلا تسوي عليه داور كيسه؟

- يابه والله وداعتك والخواه والروح الرفاقية، القصة الحجاهه ألي لو بس تسمعه، رأساً تصدگ بي.

- يمعود إنته متأكد من عنده هو مو غيره؟

- أستاذ جبار نعم حيل متأكد، ومن إنته راح تشوفه ويسولفلك قصته راح تتأكد مثلي.

- منتطينياہ مرة لځ اځي وياہ.

قدم سامر جهاز الهاتف إلى مارکس طالبا منه التحدث مع جبار.

- أستاذ جبار يريد يځي وياک.. يعجبک ځي وياہ لو ميعجبک؟

لم ينتظر مارکس لیجب علی سؤال سامر وتلقف الهاتف بسرعة قائلا.

- نعم رفيق جبار؟

- عزيزي أرجوک لا تناديني برفیق، فقط گول أستاذ جبار فالمسالة حساسة أرجوک؟

- حسنا أستاذ جبار مثلما ترغب.

- تگدر ځي لي وتوصلي شلون ځنت بمان الاختطاف وشلون حاله هناك؟

أخذ کارل مارکس یصف لجبار حادث الخصومة مع عبيس، وكيف تم اختطافهم، وحال الغرفة والبستان، وغرفة أبو بشير ومرتزقته وساقية الماء والتنور، وليلة قرصات البعوض وحلم جبار بمحاولة رميه في النهر، وعندما وصل مارکس لكلمة قزولقورت. صاح جبار بأعلى صوته وبفرح.

- أنطيني سامر بسرعة رفيق، رفيق أنطيني سامر.

ناول مارکس الهاتف لسامر وكانت ابتسامة عريضة ترتسم علی وجهه الذي تحول إلى ما يشبه عرف دیک بلونه الأحمر

القاني.

- نعم أستاذ جبار العزيز أخويه الورد.

- أخذ تكسي هسه بسرعة، وأخذ وياك العزيز ماركس للفندق، أو وصي أخويه رضا إذا شفته، لو العمال هناك حته يعتنون بيه. كلهم وصية جبار، يوفروله غرفة زينه وكلشي يحتاجه، أخوي أخوي سامر ما وصيك أدير بالك عليه، وأنا بعد ساعتين أنهي الاجتماع بالوزارة وأجي عليكم لهنالك... خوش أخويه ما وصيك مره لخ بماركس تره هذا صاحبي بوكت الشده والضيق.. ما أوصيك سامر الورد ما أوصيك.

- أنته تأمر أمر أغاتي أستاذ جبار.. ميصير خاطرك ألا طيب. الله وياك محروس عيوني.

أغلق الهاتف والتفت نحو ماركس قائلاً.

- عيوني ماركس الورده أنته هسه خشيت بالعصر الذهبي.. وأناي همين بلكت يصيرلي فد شي ويه صاحبنا سيد جبار، وتنزل رحمة الله تهلهل علينا، شفته شلون من سمع بيك يمي، تخبل طار من الفرحة.. هو جبار تره هم بشكلك تحريفي.. أكلك أستاذ ماركس أريد أحجي حجابة بس لاتزعل، وهمين مو تروح و تنقله للرفيق جبار.

- تفضل تكلم.

- يعني لو هسه أخطفك وأطالب جبار بفدية عنك.. تتصور راح ينطيني لو يغلس الحباب..؟

كان ماركس يتجنب النظر إلى سامر ويشغل نفسه بالتطلع

نحو المتظاهرين، ولكنه في نفس الوقت كان منتبها لما يقوله أو الأخرى ما يهذر به سامر من كلام.

- شفت شلون صاير جبار سيد ابن رسول الله من بيت الساده آل مطورد، هوايه عدهم الكلبه حيل سهلة. راح ناخذ تكسي على حساب السيد. شتگول رفيقي العزيز لو أفرك أبغداد فد ساعة ساعتين، تشوفها للولاية مالتنه زين وتشبع منها قبل ما ترجع الأهلك.

أطلق ضحكة مدوية بوجه ماركس الذي لم يجاريه بفرحه، ولم يكن على استعداد لقبول مثل هذه المزحة السمجة، وجهه كان مقطباً شاحباً، يفكر بأنه لن يجد راحته قبل أن يلتقي الرفيق جبار، رغم سماعه لكلماته الترحيبية الفرحية وضحكاته التي كان ينقلها الهاتف بشكل واضح حين كان سامر يبعد السماعه عن أذنه متعمداً ليقربها من ماركس.

كان ماركس يتسقط بنظراته حشود الجماهير وهو يتعد مع سامر خارج الحديقة. جموع غفيرة تصرخ وتهتف بملء حناجرها وتلوح بالأعلام، ويبدو الإصرار رغم التوتر هو السمة والطابع الظاهر على هذه الجموع. شيء حسن يبعث على التأمل والأمل، إنهم يشنون حرباً لتحطيم قيم وقواعد وقيود خلقها وفرضها أصحاب السلطة، ولكن يا ترى هل تستطيع هذه الجموع كسر تلك القواعد والاستحكامات. لم تكن حشود الجماهير بأعداد كبيرة ولكن يبدو عليها الإصرار والعزيمة وهذا هو المهم، وليكن هذا سلاحها في المواجهة.

كثير من الغرابة والتناقضات في هذا البلد، وكأن هناك

مخاض لصناعة وطن غير الذي هو عليه الآن. ولكن الغريب أن أكثر الأشياء والأفعال دائما ما تأخذ منحى العنف والعدوانية، وتطغي عليها الأنانية عوضا عن المحبة والتسامح والألفة. المظاهر الطاغية على الفرد وحتى المجموع، متوجهة بشكل غريب نحو تمجيد الماضي، وكقواعد وسلوك عام فذلك من يتسيد المشهد اليومي، وتكون محاكاة الماضي قاعدة وسلوك يومي ومعياري لقياس العلاقات وسير الأحداث. ولكون الماضي والتقليد يشكل الغالب في حياة الناس فحالات التوتر تكون شائعة في البنية الاجتماعية، ومن خلال ذلك يستمر المجتمع في خلق وسائل عديدة لتعزيز التقليد وكبت حركات التغيير والمطالبات الجماهيرية بالإصلاح. ربما كانت تلك قناعاتي أو هناك متغيرات ووقائع لم استطع اكتشافها أو الوصول إليها، فبات فهمي لهذا المجتمع قاصرا، ولكن مثل تلك التظاهرات الجماهيرية في المدن العراقية، حتما سوف تخلق أجواء جديدة وتكون نواة لتغيير قادم، فمن غير المعقول أن يستمر الوضع على هذا الحال الذي تفرضه النخب الحاكمة ومافيات السوق.

- ها رفيق ماركس، أشوفك رحت بدالغة جبيره وإنته تباوع لجماعته؟

- الأفكار تتحول إلى قوة مادية حين تتبناها الجماهير، ودائما ما تبدأ الثورة ببؤرة صغيرة ثم تتسع.

- رفيق من حلكك الباب السما.

- شنو حلكك وأي باب لهذه السماء؟

- رفيق إنته لو مسجل ما سمعته من سوائف وكلمات وأمثال، وما شفته من أحداث بالعراق، وبعدين كل هذا تطبعه بكتاب وبعنوان صارخ، كارل ماركس في العراق، يابه بعرضي راح الكتاب هذا يثير ضجة بالعالم وخاصة هو بأسمك، وينوضع يم كتبك، العمل المأجور وراس المال لو حول المسألة اليهودية وغيرها، يابه وروح خالي، ميه بالميه إنته من وراه راح أتألف وتصير برجوازي. وبالعراق أسألني أني، ناسي وأعرفهم زين، يكيفون لو واحد يسولفلهم عن الأمثال والعبر والدكايج والفاينات العراقية، أحسن من سوائف الاقتصاد وجنلوتيات البحوث والدراسات؟

- أرجوك سامر فلنبتعد ونذهب إلى حيث قال الرفيق جبار.
- يمعود هاي شببك غالب وجهك، موزين راح تلتقي بأحد أقطاب الحركات الثورية العالمية رفيق جبار آل مطورد.
- أرجوك سامر لقد تجاوزت كثيرا، دعنا نذهب حيث طلب جبار ذلك.

- شنو أجازت، وعليمن، تره لوما مصلحتي يم السربوت جبار چان هسه عفتك تفتر أبواب الشرجي، وترجع تبات بالگهاوي، ويبقى أسمك أستاذ عبد القادر إلى يوم يبعثون.
- شكرا لك على كل حال، أعتقد أنك تستطيع أن تفعل ذلك.
- هم ميخالف مقبوله منك، رفيق ميكون خاطرك الا طيب، نص ساعة ونكون بالفندق.

وصية الأستاذ عبد القادر

إقترب من المقهى حافي القدمين بثياب رثة، يده ملوثتان ويبدو عليه وكأنه يعمل في محل لبيع الفحم، أو في كورة حداده. دنا من طارف التخت جوار عربة طعام أبو عفيفة، وجلس ينظر مبهوراً لصحن الطعام الجاهز الموضوع فوق سطحها. التفت أبو عفيفة نحوه وسأله مباشرة وشبه ابتسامة ترتسم على شفتيه.

- ها وليدي جوعان؟

- إي جوعان..

- تريد لفة.. لو بالماعون؟

- بكيفك عمي.

- أخليك عروگ وبيتجان لو بس عروگ؟

- بكيفك.

ابتسم أبو عفيفة ابتسامة عريضة وهو يطالع هذا الفتى البائس بشعره الكث ووجه المتسخ، ثم وجه نظره داخل المقهى حيث يقف أبو داود ويجلس قريباً منه أبو رجب.

- أخليك خضرة؟

- بكيفك.

- أخليك طرشي؟

- بكيفك عمي خليي كلشي وكلاشي.. الله يخلي بيبيتك فدوه.

- عدك فلوس؟

- هذي بس.

أخرج من جيب ثوبه ورقة نقدية إيرانية. ضحك أبو عفيفة وراح يجهز الطعام، وبين لحظة وأخرى يخطف النظر نحو الفتى الفقير، الذي تعلقت عيناه بيد أبو عفيفة وهي تهیی الطعام. ناوله قطعة رغيف كبيرة بداخلها مثلما طلب كلشي وكلاشي، فاخذ الفتى يلتهمها بشيء من العجالة. فجأة نادى أبو عفيفة على صاحبه أبو رجب.

- أبو رجب.. أبو رجب حبيبي.. تعال.. تعال، رحمه لهذا الأب، هذا هم إلك عرف بيه مثل استاذ عبد القادر.. دتعال بلجي هذا هم إله نصيب يمك.

جاء أبو رجب مقطب الوجه يتحدث بعجالة وبشيء من الغضب.

- أبو عفيفة إي هسه صارلك أسبوع تصجم.. يزي عاد.. تراه أزعل والله.

- تزعل على أخوك، خوش والله، هاي الجانت مرجيه منك.

- لعد شنو قصدك.. قابل چنت تريدني أحط أبأيد استاد قادر سناسل؟

- لا، بس أعرفك أدور ثواب من المخابيل.
- هم ميخالف مقبوله منك.. اشكرك هوايه هوايه.
- هاي شببك روحك زغيره اليوم.
- وإنته اليوم جايك الواهس وتصجم وتضرب بسامير.
- قصدي أتلاطف وياك حبيبي.
- تتلاطف مو؟ شنو إنته حسبالك رجعو أستاذ قادر للسجن لو للشماعية لو تاه.
- هسه لو تاه لو رجع الأهله شنو طب بجيسنه؟ أشو أكثر من شهر من أجه يمنه وفرحنه بي، وفجأة كلب وراح مثل فص ملح وذاب.
- أغاتي أبو عفيفة شنو قصدك كلب وفص ملح وذاب؟
- أطلق أبو عفيفة ضحكة صاخبة جلبت انتباه رواد المقهى ونادى بأعلى صوته
- هاي هم خوش والله، تعال عيوني أبو داوود، تعال شوف أبو رجب هم تيه الحجي وگام يسأل شنو ما شنو؟
- جاء أبو داوود ليلتحق بهم وراح ينظر بدهشة نحو الرجل الفقير وفجأة قال وهو يهز يده يمينا وشمالا.
- واي واي، أني أحسنلي أعزل الكهوة.
- ليش عيوني أبو داوود، ليش شنو صاير؟
- صارت السالفة ماصخة، الكهوة صارت تجمع للمخابيل.

- إي لعد شلون، غير شببيه الشيء منجذب إليه.
- عند تلك الجملة راح الجميع في حالة من ضحك هستيري.
- نهض الرجل الفقير من مكانه وفغر فاه وبدأ بموجة ضحك وتصفيق أجبرت الرجال الثلاثة التوقف والنظر إليه بدهشة.
- مستوي حيل..الله يخليه، ما يحتاج..نكره سلف..عفيه وليدي عفيه.
- تره مو بس هو، وربك المعبود، الكل مستويه.
- بس چان استاذ قادر مو بشكل هذا، شوية أوعى و حچيه مرتب وموزون.
- لكن يخربط بالحچي چنه مثل الأجانب ويگلب الولد ويسوي ابنيه والبنية يسويها ولد، ويسأل هواية.
- هسه موزين طلع بهجي حالة، هو چان اليطب يم ذولاك بذاك العهد صدگ چذب چان يطلع عدل؟
- الله يذكرك بالخير أستاذ عبد القادر، ما أدري شنو صار وياه. وشحل بيه الدهر؟
- وضعه كلش زين ومنشنش.
- قال ذلك ابو رجب وهو يسحب نصف رغيف من تحت غطاء القماش الذي يحفظ أبو عفيفة أرغفة الخبز والصمون تحته.
- نعم عيوني نعم، قادر وضعه كلش زين ومرتاح ومنشنش، هاي عرفناه، بس أروحك فدوه،أريد أعرف، عود الخبز

مالتي شعلي؟

- أبو عفيفة فلوسك تلگاهه يوم القيامة.

- أي أقبض من دبش مو؟

- أخويه أبو رجب إنته متأكد من سالفه گرایب استاذ قادر،
أخاف الرجال راح بين الرجلين بهذا الوگت الما يتأمن؟

- لا يابه ماكو هيچ شيء، مو گدامك أبو داوود، ما سمعت
شنو گالي سامر، أنو واحد أجه يمهم بالمظاهرة مال الجمعة،
لمن طلع ويانه قادر.. وهذا الرجال گال هوه گرایب قادر،
وبوسه لعبد القادر وشبگه، وگال راح يوصله الأهل بعد أيام،
وبعدين يگول سامر، الرجال ترخص مني وگال القادر تجي
وياي، وقادر چان فرحان كلش، والرجال أخذه وياه، وقادر
چان راضي ومرتاح، راح ويه گراييه.. أصلا يگول سامر،
أنو گرایب استاذ قادر چانت عنده سياره من هاي الحديثه ألي
تخرج، سوده مظلة وموديل هل سنه.. بعد شنو أريد اسوي
وياه.. الله يحفظه ويسلمه ويشافيه ما طول لگه أهله.

- أي آني سمعته السامر من حبالك، بس شو ما صدگته ما
أدري ليش؟ هذا أصلا مو راحه، وأني خايف تراه بهذا الوگت
ولد الحرام هوايه، أخاف هذا شافو مخبل أخذو وراحو ودو
لهذولة العصابت الياخذون الجلاوي والمشاوي لو واحد من
أعضائه، لو يفخخوه و يستعملوه بالتفجيرات.. الله يستر.

- هاي شلك بيه يمعود أبو عفيفة، فال الله ولا فالك.. تراه
بسو الفك هاي تمرد گلبي مرد.

- لا والله أخويه أبو رجب مو قصدي آذيك، وأسأل الله أن ينجي استاذ قادر..بس أني گلبي يلعب من هذا أبو كفشة المنفوشه ألي أسمه سامر.

- أبو عفيفة، أني أدري ليش.. لأن انتہ تکره هذوله الشباب جماعة حرية حرية دولة مدنية.

- لا والله مو هيچ.. أني ما أكرهم..هذوله ولدنا.. بس أشوف ديتعبون نفسهم وماكو نتیجه، وطوخوها ومصخوها..وسالفتهم ما بيها فايده. والناس تريد السالفة تستوي بالعجل، ما بقه عدها صبر.

- إذا الناس ما عدها صبر لعد شنو تنتظر.. ربك ينزلهم بالزنبيل؟

- وربك المعبود تره البلحكومة رايعين بفالهم وينفذون بس إلی براسهم، وما يهتمهم كلشي، وخاليلهم إذن من طين وإذن من عجین.. دعوفنا من هاي السالفة.. هسه يعني ما راح تتعرف على هذا المسكين؟

- شلك بهذي السوالف أبو عفيفة مو گتلك، تره والله أزعل عليك.. هسه تقبل أدفع حساب أكل هذا الفقير لو تريد تحصل الثواب لوحداك.

- عنده تومانات.

- شنو راح تاخذهن منه؟

- ليش أخويه أبو رجب.. اشفتني.. چنت أخذ من استاذ قادر؟

- لا والله أخويه والنعم منك.. وكفأتك وياه چانت كلش حلوه.
- أبو رجب هذا المسكين ذكرني باول يوم إجه استاذ قادر هنا، گعد بنفس المكان وچان يباوع مثله وهم چان جوعان.
- أبو داوود تره هاي الدنيه.. كثرو بيها المجادي والجوعانين والبطالة والعطالة والمخابيل، وغيرهم بذيخ الصفحة يربون كروش وياكلون ويشربون ومبربعين بالفلوس.. الله لا يوفق كل من سعه بهذا الصار بالعراق.
- الناس راح تتخبل من هاذي الاوضاع.
- ابو عفيفة، ليش إحنه منو بقه بينا صاحي.. أشو كلنا نحتاج علاج نفسي.
- إي والله أبو رجب كلنا أطباكات والحمد لله.. هو إلی شافه وديشوفه العراقي قليل، والله الصار بينه وديصير، لو بغير ناس چان ما بقو على وجه البسيطة..
- صحيح والله.. الله يكون بعون العراقيين.
- صدگني آني حيل حيل مشتاق الاستاذ قادر.. تعودت عليه. تره ما چان يبين عليه مشخوط.
- والله آني بشكلك مشتاقله، وآني أحبه كلش، وإلي وياه ذكريات من چان استاذ، تصور البارحة شفته بالحلم جن گاعد بوسط حديقة جبیره، لابس قاط ومتهندهم وشعره مسقط ولا بس مناظر. مریت من يمه چان يگوم وإجه وسلم عليه وصافحني وسأل عليكم حيل.. بعدین گالي أترخص منك ابو رجب أروح، تره الطلاب ينتظروني، بس گبل ما يروح حجه حچايه حلوه،

كأل تره العراق حتما ما يبقه بهذا الحال، ولا بد يصير زين
ويتقدم بقدرة وقوة وتصميم أهله، أو وصاني أستمر
بالمظاهرات والمطالبة بالإصلاح. كعدت من الحلم ما أدري
ليش فرحان.. كون على ثقة أبو عفيفة چانت الناس تحلف
براس أستاذ قادر... ربي بجاه كلمن عده جاه يمك، ينسعد
ويتشافه ويرجع الأهله مثل ما چان وسالم غانم.

- أمين رب العالمين... ها عمي تريد لفه لخ؟

- إي عفيه حباب ينصرك الله على البنات.

- هاي شنو يابه؟ معود گول غيرها، هاي السالفة منين
لكيتها؟

وبضحكة ضاجة قال أبو داوود.

- هذا عقدته تختلف عن عقدة استاذ قادر، تره ياجماعة كل
عراقي وعنده عقده خاصة بي.

- إي نعم، مثلا عقدة أبو رجب من يوصل يم العربانه، لازم
يهلس نص كرسة خبز.

اشاعت مزحة ابو عفيفة هذه الضحك والفرح بين الجميع.

- ضحك خير ربي وشره على المايحب الخير للناس.

- الله يكون بعون الناس ويمتعهم بالسلامة ويرجع الغايب
الأهله ويشافي كل مريض ويفرج كربة المظلوم والمهضوم
ويطيهم الأمان والعافية.

النهاية

ستوكهولم

منشورات «آلف ياء ألف» Alfaa

صدر للمؤلف

1. "فيما تبقى"، مجموعة قصصية، 2010.
2. "كارل ماركس في العراق" (رواية) (تخيل نقد ماركس للواقع العراقي المعاصر) 2017.
- النسخة الرقمية "ألف ياء" تشرين 2 / نوفمبر 2025
3. "من يسمّل عين الحرب؟"، إعادة إصدار المجموعة القصصية "فيما تبقى" منقحة وموسعة، 2017، إصدار دار اوروك ميديا للإعلام والنشر ستوكهولم السويد.
- النسخة الرقمية "ألف ياء" تموز / يوليو 2025
4. "هارب من الإعدام"، تحرير وتقديم مذكرات الدكتور خليل عبد العزيز السياسية 2018.
5. "بوسترات" (المجموعة القصصية) 2021. إصدار دار اوروك ميديا للإعلام والنشر ستوكهولم السويد.
- النسخة الرقمية "ألف ياء" تموز / يوليو 2025
6. "الإبهار في النص الغنائي" (سيرة وأعمال الشاعر زهير الدجيلي)، 2022.
7. "هناك لي أهل في البعيد (عراقو)" (مزيج من الاجتماعي، التاريخي، والخيالي، مستوحاة من قصة أهل عراقو في أفريقيا)، 2023.



فرات المحسن

- ولد الكاتب فرات المحسن في قلعة سكر / محافظة ذي قار، عام 1949.
- حاصل على بكالوريوس في آداب اللغة الروسية من كلية الآداب - جامعة بغداد (1975-1976).
- غادر العراق نتيجة للقمع السياسي ويعيش الآن في السويد ويحمل الجنسيين العراقية والسويدية.

المسيرة الأدبية والصحفية:

- بدأ النشر الأدبي عام 1975 بنشر قصة قصيرة في جريدة "طريق الشعب".
- تأثر مساره بظروف سياسية صعبة أواخر السبعينيات، أدت إلى توقف مؤقت وفقدان بعض المخطوطات.
- استأنف نشاطه الأدبي والصحفي بعد الاستقرار في السويد، موزعاً بين الهم السياسي والأدبي.

- مارس الصحافة ككاتب للمقال السياسي في:
- - مجلات منظمات المجتمع المدني العراقية في السويد.
- - صحف المعارضة العراقية والمواقع الإلكترونية.
- - الصحف العراقية والعربية لاحقاً.
- حافظ على كتابة القصة القصيرة كـ"سلوى ومتنفس" رئيسي.
- • يواصل الكتابة والنشر في المجالين السياسي والأدبي في الصحف والمجلات العراقية والعربية والمواقع الإلكترونية.